

أ.د. صلاح إسماعيل

فلسفة اللغة

الدار المصرية اللبنانية

فلسفة اللغة

صلاح إسماعيل عبد الحق

فلسفة اللغة /صلاح إسماعيل عبد الحق .

- ط2.- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2018.

264 ص؛ 24 سم.

تدمك: 9789777951425

1- اللغة - فلسفة.

أ- العنوان 400,1

رقم الإيداع: 2017/ 21872

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202+

فاكس: 23909618 202+ - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

الطبعة الأولى: محرم 1439 هـ - أكتوبر 2017 م

الطبعة الثانية: 2018 م

فلسفة اللغة

الأستاذ الدكتور

صــلاح إسمــاعيل

أستاذ بجامعة القاهرة

الدار المصرية اللبنانية

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[يوسف: 90]

إهداء

إلى روح أستـاذي الفيلسوف الأديب

الأستـاذ الدكتور عبد الغفار مكـاوي

وهكـذا كنت فـي أهلي وفـي وطني

إن النفيس غـريب حيثمـــا كانـــا

المـتنبـــي

الفهرس

تصدير

"إن ما يميز الفلسفة التحليلية، في تجلياتها المختلفة، من المدارس الفلسفة الأخرى هو الاعتقاد، أولا، بأنه يمكن الحصول على تقرير فلسفي عن الفكر من خلال تقرير فلسفي عن اللغة، وثانيا، أنه لا يمكن الحصول على تقرير فلسفي شامل إلا على هذا النحو".

Michael Dummett, Origins of Analytical Philosophy, Duckworth, 1993, p.4.

"أعتقد أن أعظم الإنجازات في الفلسفة خلال المائة عام الماضية أو المائة وخمسة وعشرين عاما كانت في فلسفة اللغة. وبداية من فريجه، الذي ابتكر الموضوع، وواصله رسل، وفتجنشتين، وكواين، وأوستن، والذين جاءوا من بعدهم، حتى وقتنا الحالي،
لا يوجد فرع في الفلسفة نال عملا رفيع المستوى للغاية مثلما نالت فلسفة اللغة. والرأي عندي أن الإنجاز الذي يمكن مقارنته بالإنجازات العظيمة في فلسفة اللغة هو إعادة ابتكار رولز لموضوع الفلسفة السياسية (ومن ثمّ موضوع الأخلاق على نحو ضمني). ولكن مع هذا الاستثناء الوحيد الممكن، أظن أن العمل في فلسفة اللغة يأتي على رأس إنجازاتنا".

John R. Searle "What is Language: Some Preliminary Remarks," in Saves L. Tsohatzidis (ed.) John Searle's Philosophy of Language: Force, Meaning, and Mind, New York: Cambridge University Press, 2007, p.15.

مقدمة

اتخذت الفلسفة في النصف الأول من القرن العشرين مسلكا جديدا في التفكير عرف باسم التحول اللغوي linguistic turn ، وهو تعبير ابتكره جوستاف برجمان في مراجعته لكتاب ستراوسون الأفراد بعنوان: انطولوجيا ستراوسون عام 1960، وزاده شهرة ريتشارد رورتي عندما اتخذه عنوانا لمجموعة من البحوث قام على تحريرها بغرض بيان هذا التحول الجديد في الفلسفة. ويرد الباحثون هذا التحول إلى فريجه، وفي ذلك يقول أنتوني كيني في كتاب فريجه متابعا مايكل دميت في كتاب أصول الفلسفة التحليلية: "إذا كانت الفلسفة التحليلية قد ولدت عندما حدث التحول اللغوي، فإن ولادتها لابد من أن تؤرخ بنشر كتاب فريجه أسس الحساب عام 1884، وذلك عندما قرر فريجه أن الطريق إلى بحث طبيعة العدد هو تحليل الجمل التي تظهر فيها الأعداد". (Kenny, Frege, 211)

وينسب بيتر هاكر هذا التحول إلى فتجنشتين الذي قرر في رسالة منطقية فلسفية عام 1921 أن: الفلسفة برمتها نقد للغة (4,0031). وقدمت الرسالة التحول اللغوي في ستة جوانب هي: الأول، بيان أن معظم القضايا والأسئلة الفلسفية ليست كاذبة وإنما خالية من المعنى، أي تتجاوز حدود اللغة، وتنشأ نتيجة إخفاق فهم منطق اللغة. الثاني، تعيين حدود الفكر عن طريق تعيين حدود اللغة، أعني وضع الخط الفاصل بين المعنى واللامعنى. وهذا يضع الفلسفة، وشروط المعنى، والعلاقة بين اللغة والواقع في قلب البحث الفلسفي. الثالث، المفتاح لإنجاز الهدف السابق هو توضيح الطبيعة الجوهرية للعلامة القضوية عن طريق توضيح الصورة القضوية العامة. الرابع، الإنجاز الأعظم للكتاب، كما رأته دائرة فينا، هو توضيح طبيعة الحقيقة المنطقية، أعني تصويرها بوصفها تحصيلًا حاصلًا. الخامس، المهمة السلبية للفلسفة هي إثبات عدم شرعية التقارير الميتافيزيقية عن طريق إثبات أن هذه التقارير تتجاوز حدود ما يمكن قوله في أية لغة، تتجاوز حدود المعنى. السادس، المهمة الإيجابية للفلسفة هي التحليل المنطقي للأفكار عن طريق التحليل المنطقي- اللغوي للقضايا. (P. M. S. Hacker, "The Linguistic Turn in Analytic Philosophy," pp. 933-934)

وبالإضافة إلى عمل فريجه وفتجنشتين، كانت إسهامات رسل والوضعية المنطقية وكواين وفلاسفة مدرسة أكسفورد تؤلف المداخل الفلسفية إلى اللغة، وهي التي شكلت الفرع الفلسفي المعروف الآن بفلسفة اللغة.

هناك أسباب كثيرة جعلت من اللغة موضوعا مهما وجديرا بالدراسة، يأتي في موضع الصدارة منها ثلاثة أسباب: أولا، يوجد افتراض مؤداه أن اللغة خصيصة إنسانية فريدة تميز الإنسان من بقية الكائنات الأخرى. وإذا نظرنا إلى هذا الافتراض بعين الاعتبار، كان من الطبيعي أن نعتقد بأن أي تقدم في فهم اللغة سيفضي إلى فهم أفضل للطبيعة البشرية بصفة عامة والعقل البشري على وجه الخصوص. ثانيا، يتعين علينا دراسة اللغة لسبب عملي، لأن سوء استعمالنا للغة يؤدي إلى

صعوبات متنوعة في التواصل بين الذوات تتجلى في مشكلات نظرية المعنى، ويفضي إلى صعوبات في إدراك العالم الخارجي تتجسد في مشكلات نظرية المعرفة والميتافيزيقا. وليس من شك في أن الفهم الصحيح للغة يؤدي إلى فهم دقيق لهذه المشكلات، ومن ثمّ يمكن اجتنابها أو التغلب عليها. ثالثا وأخيرا، تدخل اللغة بطريقة أساسية في الفكر والفعل والعلاقات الاجتماعية، فهي صورة الحياة على حد تعبير فتجنشتين ، وبيت الوجود كما يصفها هيدجر، وهي مرآة العقل كما يقول العقليون مثل تشومسكي، وهي فن اجتماعي كما يصفها كواين ،
ولا عجب بعد ذلك أن نقول كل الصيد في جوف اللغة.

وتتألف بنية هذا الكتاب من سبعة فصول تعالج الموضوعات الأساسية في فلسفة اللغة وهي المعنى والصدق والإشارة، إلى جانب معرفة اللغة واكتسابها. وذلك من خلال عرض آراء أبرز فلاسفة اللغة المعاصرين. يقدم الفصل الأول تعريفا لفلسفة اللغة ويبين اتجاهاتها الأساسية. ويأتي الفصل الثاني ليركز على النظرية التجريبية في اكتساب اللغة عند كواين. أما الفصل الثالث فيناقش النظرية العقلية في اكتساب اللغة ومعرفتها عند تشومسكي. ويتصدى الفصل الرابع للمشكلة الكبرى في فلسفة اللغة ألا وهي مشكلة المعنى. ويأتي الفصل الخامس ليناقش نظرية قصد الاتصال في المعنى أيضا. وينقلنا الفصل السادس من علم المعنى أو علم الدلالة إلى علم الاستعمال، ويوضح فكرة الاقتضاء التحادثي وقواعد المحادثة. وأخيرا يناقش الفصل السابع العلاقة بين اللغة والواقع من خلال فحص نظريات الصدق.

ولا يفوتني أن أشكر الأستاذ محمد رشاد رئيس مجلس إدارة الدار المصرية اللبنانية على تقبله لكتابي بقبول حسن، وأشكر القائمين على طباعته أيضًا.

سأشكر ما أوليت من حسن نعمةٍ ومثلي بشكر المنعمين حقيقُ

ولست في حاجة إلى القول إن تقديم فلسفة اللغة إلى المكتبة العربية بوصفها تخصصا دقيقا هو من جهدي على مدار ما يزيد على ثلاثين عاما. والذين أرادوا بي كيدا طوال هذه السنين لا أذكرهم، وإنما أذكر بالخير أستاذي المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مهران.

وكـــان لـــه فضـــلٌ علـيّ بظـنِّـه بي الـخيـر إني للذي ظنَّ شـاكرُ

ولست من الذين يروجون لأعمالهم، أو يسرفون في تقديرها، أو يطمحون من ورائها إلى عرض زائل. وإنما أجري على الله، ولسان حالي يقول: أرجو فلا أرجو سواك، وهل الرضا إلا رضاك.

7 محرم 1439 هـ/ 28 سبتمبر 2017 م

صلاح إسماعيل

الفصل الأول

فلسفة اللغة

تحديد المصطلح، وبيان الاتجاهات

1- تمهيد

2- تحديد المصطلحات

3- بعض المجالات الفلسفية التي تظهر فيها عناية الفيلسوف باللغة

4- الاتجاهات الأساسية في فلسفة اللغة

فلسفة اللغة

تحديد المصطلح، وبيان الاتجاهات

1- تمهيد

اللغة كائن عجيب، وموضوع معقد يفحصه بعمق علماء وباحثون في مجالات شتى، فيدرسها النحاة وعلماء اللغة والبلاغيون، ويدرسها أيضا الفلاسفة وعلماء النفس وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلماء الإدراك. ويهتم كل فريق من هؤلاء باللغة اهتماما خاصا يتباين عن اهتمام غيره بها. فعلماء اللغة يعنون باللغة لذاتها، أما الفلاسفة فيهتمون باللغة بغية اكتساب معرفة حولها تساعدهم في معالجة المشكلات المحورية في الفلسفة، ويهتم علماء النفس باللغة لأنها تلقي ضوءا شارحا على تطور العمليات العقلية ووصفها، أما علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا فيهتمون باللغة بغية التوضيح الذي يمكن أن تقدمه حول بنية المجتمعات وطبيعة ثقافتها.

علي أن اهتمام الفلسفة باللغة ليس وليد عصرنا، وإنما هو قديم قدم الفلسفة ذاتها. فأنت تستطيع أن تلمس اهتماما بعلوم اللغة والبلاغة والجدل عند السوفسطائيين الأوائل مثل بروتاجوراس، وتجد بحثا عميقا يقدمه أفلاطون (428- 348 ق.م) في محاورة قراطليوس. أما في فلسفة العصر الوسيط، فتجد اهتماما بالغا باللغة عند فلاسفة الإسلام ويأتي على رأسهم الفارابي (المتوفى 339هـ) في كتاب الحروف. وفي الفلسفة الحديثة عني الفلاسفة أصحاب الاتجاه العقلي باللغة مثل

ديكارت (1596-1650) وليبنتز (1646-1716)، وكذلك أصحاب الاتجاه التجريبي مثل لوك (1632-1704) وباركلي (1685-1753) وهيوم (1711-1776) ومل (1806-1873).

غير أن البحث في فلسفة اللغة قد بات يحتل مكان الصدر والمحراب في الفلسفة المعاصرة، وليس أدل على ذلك من أن أعظم الكتابات الفلسفية المعاصرة وأقواها أثرا تدور في هذا المجال، بدءا من كتابات فريجه (1848-1925) وحتى كتابات كواين وديفيدسون ودميت وبتنام وسيرل ولويس وبراندوم في وقتنا الحالي. وإذا نظرت إلى الدوريات الفلسفية في أعلى مستوياتها الآن، وجدت أن موضوع فلسفة اللغة يأتي في موضع الصدارة من اهتمامات الفلاسفة والباحثين.

2- تحديد المصطلحات

يحسن بنا أن نميز بين عدة مصطلحات طالما يحدث خلط بينها، وهي فلسفة اللغة philosophy of language من جهة، والفلسفة اللغوية linguistic philosophy والتحليل اللغوي linguistic analysis من جهة ثانية، وفلسفة علم اللغة philosophy of linguistics من جهة ثالثة. ودع عنك مصطلح التحول اللغوي الذي أسلفنا الإشارة إليه. فلسفة اللغة هي محاولة لتقديم أوصاف فلسفية لملامح عامة في اللغة من قبيل الإشارة والمعنى والصدق، وتناقش في المقام الأول العلاقة بين اللغة والمتكلم التي تنتج نظرية المعنى، والعلاقة بين اللغة والعالم التي تنتج نظرية الإشارة ونظرية الصدق، ولا ترتبط بعناصر محددة في لغة بعينها إلا بصورة عارضة. وهي بذلك اسم لمبحث من مباحث الفلسفة، فهي جزء من الفلسفة يصب جل اهتمامه على مشكلات تثيرها اللغة ذاتها. وبالتالي
لا تعد فلسفة اللغة دراسة للغة من حيث هي كذلك، بل هي حديث فلسفي "حول" اللغة، وليست من بين ما يقال "في" علم اللغة linguistics الذي هو دراسة علمية للغة من جميع جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية وغيرها.

أما مصطلح الفلسفة اللغوية فإنه لا يزيد- شأنه في ذلك مصطلح التحليل اللغوي- على أن يكون "منهجا" يمكن استخدامه لحل مشكلات تظهر في الميتافيزيقا والأخلاق والمعرفة وغيرها من موضوعات الفلسفة. إذ يعتقد الفيلسوف اللغوي بأننا نستطيع توضيح المشكلات الفلسفية التقليدية وحلها عندما نعيد طرحها في صياغة لغوية. فمثلا بدلا من أن نسأل: ما الذي يجعل الفعل أخلاقيا؟ ترانا نعيد صياغة السؤال في مجموعة من الأسئلة حول معنى أو استعمال تعبيرات من قبيل " خير" و" ينبغي" و" حق" و" واجب" و"إلزام" وهلم جرا. وفي حالة المعرفة يمكن فحص استعمال تعبيرات مثل "يعرف" و"يشك" و"يعتقد" و"يظن" وغيرها. وفي مشكلة حرية الإرادة يمكن فحص استعمال كلمات من قبيل "يستطيع" و"إرادي" و"لا إرادي".

وإلى جانب مصطلح فلسفة اللغة من جهة والفلسفة اللغوية والتحليل اللغوي من جهة ثانية، يقف مصطلح فلسفة علم اللغة في جهة ثالثة . فماذا عسى أن يكون المراد بالمصطلح الأخير؟ ذهب فودور (1935-) وكاتز (1932-2002) في مقال "ما الخطأ فيما يتعلق بفلسفة اللغة ؟" 1962

إلى وجهة نظر مفادها: "بقدر ما يقدم علم اللغة الحالي نظرية تجريبية في اللغة، فلا بد من تأويل فلسفة اللغة على أنها ليست شيئا آخر غير فلسفة علم اللغة، أي الفرع المماثل في كل جانب لفلسفة علم النفس وفلسفة الرياضيات وفلسفة الفيزياء وهلم جرا" (1).ونحن لا نوافق فودور وكاتز على هذه المطابقة بين فلسفة اللغة وفلسفة علم اللغة، لأن فيها تضييقا لمجال فلسفة اللغة لا يتفق مع فهمنا لها، والذي يكشف عنه تعريفنا السابق.

على أن كاتز عاد ورفض هذه الوجهة من النظر في كتاب فلسفة اللغة على أساس أن فلسفة اللغة تشكل مجالا مختلفا عن فلسفة علم اللغة؛ إذ ينظر إلى فلسفة اللغة على أنها مجال في البحث الفلسفي عن المعرفة المفهومية أحرى من أن تكون فرعا من الفروع العديدة في الفلسفة المعاصرة مثل فلسفة العلم وفلسفة الرياضيات وغيرهما، إنها المجال الذي يسعى إلى كشف ما يمكن كشفه حول المعرفة المفهومية من الطريقة التي يتم بها التعبير عن هذه المعرفة وتوصيلها في اللغة. ومن ثمّ فإن المهمة الخاصة لفلسفة اللغة هي كشف العلاقة بين صورة اللغة ومحتواها، ووضع عمليات استدلال كائنة ما تكون حول بنية المعرفة المفهومية التي يمكن إقامتها على أساس ما نعرفه حول بنية اللغة. وعلى هذا النحو تعد فلسفة اللغة مجالا متميزا من فلسفة علم اللغة التي هي جزء من فلسفة العلم والتي يكون اهتمامها الأساسي هو فحص النظريات والمناهج والممارسة لدى عالم اللغة الوصفي (2). وثمة حالات من التداخل جديرة بالاعتبار بين هذين المجالين، ولكن هذا التداخل لا يبيح لنا أن نجمعها تحت اسم واحد. "فمشكلات فلسفة اللغة تتطابق تطابقا جزئيا فقط مع مشكلات فلسفة علم اللغة، ولكن لا يتضمن أي فرع منهما نظيره تضمنا كليا" (3).

3- بعض المجالات الفلسفية التي تظهر فيها عناية الفيلسوف باللغة

هنالك مجالات فلسفية يبرز فيها اهتمام الفيلسوف باللغة، وسوف نتناول ثلاثة منها هي الميتافيزيقا والمنطق ونظرية المعرفة . ويمكن وصف الميتافيزيقا على وجه التقريب على أنها محاولة لصياغة الحقائق العامة إلى حد بعيد عن العالم، بما في ذلك سرد المقولات الأساسية التي تنتمي إليها الكائنات ووصف علاقاتها المتبادلة. ولقد حاول بعض الفلاسفة الوصول إلى بعض هذه الحقائق العامة عن طريق بحث الملامح الأساسية في اللغة التي نستعملها للكلام عن العالم. فها هو أفلاطون يقول في الكتاب العاشر من الجمهورية :"نفترض لكل مجموعة من الأفراد يجمعهم اسم مشترك، مثالا أو صورة مناظرة" (4).ولتوضيح هذه الملاحظات يلفت أفلاطون أنظارنا إلى ملمح عام في اللغة مؤداه أنه من الممكن أن ينطبق اسم أو صفة معينة مثل "شجرة" بشكل صحيح وبنفس المغزى على مجموعة كبيرة من الأشياء الفردية المختلفة. ويرى أن هذا لا يكون ممكنا إلا إذا كان هنالك كائن واحد يسميه الحد العام موضوع البحث، أي "الشجرية" والذي يشارك فيه كل فرد من الأفراد. ولو لم يكن ذلك هو الواقع، فسوف يتعذر على الحد العام أن ينطبق على مجموعة من الأفراد المختلفين (5).

وظهرت في الفلسفة المعاصرة نظرية عرفت باسم الذرية المنطقية logical atomism دعا إليها رسل (1872-1970) وفتجنشتين. ولقد ابتكر رسل هذا المصطلح كاسم أطلقه على فلسفته

الخاصة التي أودعها مجموعة محاضراته التي نشرت تباعا عامي 1917- 1918 بعنوان فلسفة الذرية المنطقية. وفي هذه المحاضرات يضع رسل المبدأ التالي: "في رمزية صحيحة منطقيا يوجد دائما تطابق أساسي معين في التركيب بين الواقعة والرمز الذي يمثلها " (6).ولعلنا نلاحظ أن هذا التطابق في التركيب لا يفترض بحيث يقوم بين أية لغة موجودة والتركيب الميتافيزيقي الأساسي للعالم، ولكن يقوم فقط بين اللغة الكاملة منطقيا والتركيب الميتافيزيقي، والافتراض هنا أننا عندما نبتكر مثل هذه اللغة، أو نكتسب فكرة تخطيطية على الأقل لما يشبه هذه اللغة، فسوف يكون في مقدورنا أن نستمد نتائج منوعة تتعلق بأنماط الوقائع التي منها بني العالم، وبنية كل واحدة من هذه الوقائع. وسوف نكتشف أنماطا مختلفة من الجمل التي نملكها في هذه اللغة بالنسبة لتقرير الوقائع. على سبيل المثال، جمل الموضوع والمحمول من قبيل "هذا الكتاب ثقيل" والجمل الوجودية مثل "هناك قلم على الورقة" (7). وكل هذا يكشف عن مدى علاقة اللغة بالميتافيزيقا من خلال تحليل بنية اللغة وبنية العالم.

والفرع الثاني الذي تتجلى فيه العناية باللغة هو المنطق، والمنطق هو علم الاستدلال، وهو على وجه الدقة محاولة لابتكار معايير لفصل الاستدلالات الصحيحة عن الاستدلالات الباطلة. ومادام التدليل العقلي يتم نقله عن طريق اللغة، فإن تحليل الاستدلالات يعتمد على العبارات التي تبرز كمقدمات ونتائج. فدراسة المنطق تكشف عن الحقيقة القائلة إن صحة الاستدلال أو عدم صحته تعتمد على صورة العبارات التي تشكل المقدمات والنتيجة. والمقصود بالصورة أنواع الحدود التي تتضمنها العبارات والطريقة التي ترتبط بها هذه الحدود في العبارة (8).

أما الفرع الثالث من فروع الفلسفة التي يظهر فيها الاهتمام باللغة فهو نظرية المعرفة. وأبرز مشكلات هذا الفرع التي تعني باللغة هي مشكلة المعرفة الأولية a priori، والمعرفة الأولية هي المعرفة التي يفترضها العقل وتكون سابقة على التجربة، مثل المعرفة التي نملكها في الرياضيات. ولقد بدا فهم طبيعة هذه المعرفة الأولية وتفسيرها أمرا حير عقول الفلاسفة، إذ كيف نستطيع أن نعرف بيقين وبصرف النظر عن الملاحظة أن 5+5=10 دائما وبشكل ثابت؟ الجواب عند أصحاب المذهب العقلي وديكارت خاصة أن المعرفة الأولية تتألف من حقائق خالدة أودعها الله في العقل الإنساني. أما جواب أصحاب التجريبية المنطقية فيتمثل في أن ما نقرره في مثل هذه الحالات يكون صادقا عن طريق التعريف، أو يكون صادقا بمقتضى معاني الكلمات المستخدمة. وليس من شك في أن هاتين الفكرتين عن المعرفة الأولية موضع خلاف، وليس من شك في أن المعرفة الأولية لاتزال موضع خلاف بين الفلاسفة المعاصرين أيضا. لكن الذي يعنينا في هذا الخلاف في المقام الأول هو أنه يفضي بنا إلى إثارة أسئلة حول ماهية المعنى الذي يمكن أن تتمتع به كلمة معينة أو عبارة معينة، وكيف يمكن لعبارة معينة أن تكون صادقة بمقتضى معاني كلماتها فقط. وعلى هذا النحو يولي الفيلسوف الباحث في نظرية المعرفة عنايته باللغة عامة ومشكلة المعنى خاصة.

4- الاتجاهات الأساسية في فلسفة اللغة

يوجد على وجه التقريب ثلاثة اتجاهات في فلسفة اللغة: اتجاه يمتد من فريجه ورسل وفتجنشتين المبكر عبر الوضعية المنطقية حتى يومنا الحالي في كتابات كواين وديفيدسون ودميت وبتنام. وهذا لا يعني أن المواقف داخل هذا التيار متشابهة أو متقاربة، وإنما الذي يعنينا أن هذا الاتجاه يهتم في غالب الأمر بالعلاقة بين المعنى والصدق؛ إذ إنه يعالج العلاقة بين اللغة والأشياء التي تدور حولها كلمات المتكلم، ومن ثمّ يبحث في شروط صدق الجمل. والسؤال المهم في هذا الاتجاه هو : ما شروط صدق المنطوق؟ ويرتبط هذا الاتجاه ارتباطا وثيقا بفلسفة العلم . أما الاتجاه الثاني فيمثله مور وفتجنشتين المتأخر ومدرسة أكسفورد أو فلاسفة اللغة العادية وأبرزهم: رايل وأوستن وستراوسون وجرايس، ويسير في ركابهم سيرل وهابرماس أيضا. وعلى حين يحفل الاتجاه الأول ببحث العلاقة بين اللغة والعالم، نجد أن الثاني يصب جل اهتمامه على العلاقة بين اللغة والمتكلم. وهنا ينشأ الاهتمام بأسئلة تتعلق باستعمال اللغة، وباللغة منظورا إليها كجزء من السلوك الإنساني. والسؤال الأساسي في هذا الاتجاه هو : ما العلاقة بين المعنى والاستعمال؟ ويخطئ المرء لو ظن أن هذين الاتجاهين منفصلان كل الانفصال، وإنما الأقرب إلى الصواب القول إنهما يتداخلان ويتشابكان بطرائق شتى. يقول تايلر بيرج : "التقليد المستمد من فريجه أخذ العلم، والمنطق والرياضيات كمصدر للإلهام بالنسبة للبحث اللغوي والفلسفي، على حين أن التقليد المستمد من مور أخذ الممارسة العادية على أنها المحك بالنسبة للحكم اللغوي والفلسفي" (9). وبالإضافة إلى هذين الاتجاهين فقد ظهر اتجاه ثالث ظهورا بارزا في العقود الأخيرة من القرن الماضي ألا وهو تيار علم اللغة كما تصوره كتابات تشومسكي (1928-)، وما ترتب عليه من تصور معين لفلسفة اللغة ظهر عند أتباعه مثل كاتز وفودور. ويناقش هذا الاتجاه موضوعات تدور في فلك المعرفة اللغوية واعتبار النظرية اللغوية تفسيرية بدلا من أن تكون وصفية. والسؤال الأساسي هو: كيف نفسر الإبداع اللغوي؟

وجرت في نهر فلسفة اللغة في أيامنا مياه جديدة تنبثق من كتابات فلاسفة مثل ديفيد لويس وروبرت براندوم وجون ماكدويل وغيرهم. زد على ذلك إسهامات الفلسفة الأوربية متمثلة في كتابات هيدجر وجادامر وريكور الذين يربطون بين اللغة والخبرة والوجود والتأويل.

******

هوامش الفصل الأول

(1) Fodor, J. and J.J. Katz "What`s Wrong with the Philosophy of Language? " in Philosophy and Linguistics, edited by C. Lyas, Macmillan, C, Martin`s Press, 1971, p. 280.

(2) Katz, J.J, The Philosophy of Language, York and London: Harbon & Row, 1966, p. 4, and See Also, J.M.E. Moravcsik

"Linguistics and Philosophy" in Current Trends in Linguistics, edited .by, T. A. Sebeok, vol. 12. Mouton, The Hague, Paris, 1974, p.5

Pelc, J., "The Place of the Philosophy of Language", in (3) Comtemporay Philosophy, A New Survey, edited by G, Floisted, Vol.I, Philosophy of Language and Philosophical Logic, The .Hague,Boston: Martinus Nijhoff, 1981, p.16

(4) أفلاطون : جمهورية أفلاطون، ترجمة ودراسة د. فؤاد زكريا، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة: 1985، الكتاب العاشر، فقرة 596، ص 530.

Alston, W .P., Philosophy of Language, Englewood Cliffs, NJ: (5) .Prentice- Hall, Inc., 1967, pp.1-2

Russell, B., Logic and Knowledge, edited by R.C.Marsh, London: (6) George Allen & Unwin LTD., New, York: The Macmillan Compeny, .1966, p.197

.Alston, W.P., Philosophy of Language, p.3 (7)

.Ibid., p.3 (8)

Burge, T., "Philosophy of Language and Mind: 1950-1990", The (9) .Philosophical Review, Vol. 101, No.1, January 1992, p.12

******

الفصل الثاني

النظرية التجريبية في تعلم اللغة (كواين)

1- استبعاد التناول العقلي للغة

2- تعلم اللغة

3- خطوات تعلم الطفل للغة

4- جمل الملاحظة

5- تعريف جمل الملاحظة

6- دور جمل الملاحظة

النظرية التجريبية في تعلم اللغة (كواين)

استهل كواين (1908-2000) كتابه الأساسي في فلسفة اللغة الكلمة والشيء بالقول: " اللغة فن اجتماعي، ونحن نعتمد في اكتسابها اعتمادا تاما على العلامات المتاحة بين الذوات فيما يتعلق بما يقال ومتي يقال، ومن ثمّ لا يوجد مسوغ لفحص المعاني اللغوية إلا في حدود ميول الناس للاستجابة علانية لإثارات قابلة للملاحظة اجتماعيا " (1).وتكشف هذه العبارة عن السمة الاجتماعية للغة، وطريقة كواين التجريبية في تعلمها، وفي تفسير المعنى أيضا.

1- استبعاد التناول العقلي للغة

يتطلب الفهم الدقيق لنزعة كواين التجريبية السلوكية في دراسة اللغة أن نحدد موقفه أولا من المذهب العقلي mentalism، ذلك المذهب القائل إن المعاني هي الأفكار ideas. وفي هذه الوجهة من النظر نجد أن كلمة أرملة، مثلا، تملك معنى يتمثل في فكرة حاضرة في عقل من يستعمل هذه الكلمة. ومن ثمّ فإن الأفكار كائنات عقلية، وهي خاصة بكل فرد، وإن شئت قل سرية من حيث هي كذلك، ولا سبيل إلى معرفتها إلا عن طريق أن يستبطن كل من يملكها ذاته.

إن سهولة الكلام العقلي وإيلاف الناس له يحوّل الأسئلة الخاصة بعملية التعليم إلى أسئلة لا طائل تحتها عن العلاقات العلية للأفكار، ولا يقف عند هذا الحد فحسب، بل يثيربعض المشكلات الزائفة. "إن الفلاسفة وعلماء النفس على شاكله إدوارد. بي. تيتشنر قد أصابهم القلق عما إذا كانت الصورة الذهنية للمثلث عند المرء متساوية الأضلاع أو مختلفة الأضلاع أو متذبذبة بين زوايا متنوعة... ولو أننا فكرنا في الصور الذهنية على نحو صحيح بوصفها حالات عصبية افتراضية، فلن تثار

هذه المشكلات الزائفة" (2). ومن ثمّ فإن الاستعانة بالصور الذهنية أو الأفكار بصفة عامة لا يقدم فهما واضحا لكيفية عمل اللغة وتعلمها.

ومن هنا ظهرت نزعة في علم النفس وعلم اللغة والفلسفة في أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين استبعدت الكلام عن الأفكار، وتناولت بدلا من ذلك الظواهر القابلة للملاحظة. فنجد المدرسة السلوكية في علم النفس تقصر علم النفس على دراسة السلوك. وأكد واطسون، مؤسس هذه المدرسة ومن سار على دربه، على أهمية السلوك وغض النظر عن المصطلحات العقلية مثل الوعي والعقل والفكرة وما جرى مجراها. ورفض منهج الاستبطان، واعتمد على المنهج التجريبي الذي ينصب على السلوك الخارجي والظاهرة القابلة للملاحظة علانية. وجاء بلومفيلد في علم اللغة، وحاول دراسة اللغة دراسة علمية وأدخل مبادئ السلوكية في علم اللغة، ومن ثمّ نظر إلى مصطلحات المذهب العقلي على أنها غير علمية، ورأى أن الصور الذهنية والمشاعر والأفكار وما لف لفها هي مجرد ألفاظ عامة لحركات جسدية.

أما في الفلسفة فقد وجد البراجماتيون وفتجنشتين المتأخر أن الإشارة إلى الأفكار تشكل مصدر صعوبة كبيرة في فلسفة اللغة. فذهب ديوي، مثلا، إلى أن المعنى هو في المقام الأول خاصية للسلوك، ورأى أن القول بوجود اللغة الخاصة يعد ضربا من الاستحالة، وتوصل فتجنشتين بعد ذلك إلى مثل هذه الأفكار. وسار جلبرت رايل على هذا الدرب حيث نظر إلى العقل بوصفه استعدادا للسلوك، وفسر الدوافع والإرادة وغيرهما من العمليات العقلية تفسيرا سلوكيا (3). وورث كواين كل هذا الإرث، وهاجم علم الدلالة العقلي هجوما عنيفا، وذهب إلى أن السلوكيين على صواب في اعتقادهم بأن الكلام عن الأفكار يعد من الأعمال السيئة في علم النفس، كما نظر إلى الأفكار على أنها من الأمور الضارة التي يجب اجتنابها عند دراسة اللغة، وألح بدلا من ذلك على دراسة السلوك اللغوي القابل للملاحظة جهارا.

وعن ذلك يقول: "ولكن حتى أولئك الذين لم يعتنقوا السلوكية كفلسفة تراهم مجبرين على مشايعة المنهج السلوكي داخل ممارسة علمية معينة، ونظرية اللغة هي هذه الممارسة، وعالم اللغة عند هذا الحد سلوكي ... فالعقول ليست مهمة بالنسبة للغة بقدر ما تختلف اختلافا خاصا من شخص إلى آخر، أعني بقدر ما تكون مبهمة سلوكيا. وهكذا رغم أن عالم اللغة ربما يظل يجل الكائنات العقلية بصورة فلسفية، فإنها عديمة الجدوى أو ضارة في نظرية اللغة. ولقد أكد ديوي على هذه النقطة في عشرينيات هذا القرن وذلك عندما أثبت أنه لا يمكن أن تكون هناك لغة خاصة بأي مغزى، وتوصل فتجنشتين أيضا بعد ذلك بسنوات إلى إدراك هذه النقطة، وكان علماء اللغة على وعي بها بدرجة متزايدة، إذ أدركها بلومفيلد بدرجة كبيرة، ثم أدركها هاريس إدراكا كاملا. لقد عملت النظرية اللغوية المبكرة في المذهب العقلي غير النقدي (يقصد كواين المذهب العقلي الذي يسلم بمفاهيمه دون تمحيص أو شك)، وساد علم الدلالة الذي تعوزه المسئولية، والذي ترتبط فيه الكلمات بالأفكار بقدر ما ترتبط اللافتات بالصور في المتحف، وتغيير اللغات هو تغيير اللافتات، وكان المذهب العقلي غير النقدي وعلم الدلالة الذي تعوزه المسئولية فلسفيين أيضا بطبيعة الحال" (4).

وهكذا لا يذهب كواين إلى ضرورة الأخذ بالمنهج السلوكي في علم اللغة فحسب، بل يذهب إلى أن الأخذ بهذا المنهج يعد مسألة إجبارية ليس لعالم اللغة فيها خيار.

ورغم أن الكلام عن الأفكار في الفلسفة قد فقد جانبا كبيرا من قوته، فإنه لا يزال يتخفى تحت مفاهيم أخرى مثل القضية. ولا يقف كواين عند حد تحذيرنا من أن الفكرة تتخفى تحت مفاهيم فلسفية أخرى مثل القضية، وإنما يخطو خطوة أبعد من ذلك ويستبعد مفهوم القضية برمته من فلسفة اللغة والمنطق على أساس أن القضايا تحجب الحقائق التي افترضت لتوضيحها من جهة، أو أن هذه الحقائق يمكن تفسيرها دون التسليم بالقضايا من جهة أخرى.غير أن الكلام عن الأفكار يحتجب أيضا في موضوع الترجمة. ويقدم كواين دعوى اللاتحديد في الترجمة التي قصد بها تقويض وجهة النظر التقليدية القائلة بتماثل الفكرة وتماثل المعنى وتماثل القضية. (وفي دعوى اللاتحديد في الترجمة. ارجع إلى كتابي فلسفة اللغة والمنطق: دراسة في فلسفة كواين، الفصل الرابع).

وإذا كان التجريبيون الرواد مثل هوبز وجاسندي ولوك ومن سار على دربهم قد اضطروا إلى صياغة معيارهم التجريبي بالرجوع إلى الأفكار، وفعلوا ذلك بأن رفعوا من شأن الانطباعات الحسية واستخفوا بالأفكار الفطرية، فإن التجريبية بمعناها المعاصر جعلت من بين معالمها الأساسية تحول التركيز من الأفكار التي هي ذاتية إلى اللغة التي هي بين ذاتية، وهذا هو المعلم الأول من معالم التجريبية كما حددها كواين في مقال "خمسة معالم للتجريبية". ويدل التحول من الأفكار إلى الكلمات على التحول من الداخل الذي هو خاص إلى الخارج الذي هو عام ومشترك، وإن شئت أن تضع ذلك بعبارة أخرى قل إنه تحويل للاهتمام بما يدور في عقول الناس إلى السلوك اللفظي القابل للملاحظة بشكل علني. ويعد التحول من الأفكار إلى الكلمات من جانب الإبستمولوجيا التجريبية بمغزاها المعاصر انفصالا عن الإبستمولوجيا التجريبية الكلاسيكية واقترابا
من العلم.

وليس أدل على ضرورة تركيز الاهتمام على ما هو قابل للملاحظة من أن تعلم اللغة في مراحله الأولى لا يعتمد على شيء سوى ذلك. إذ يعتمد هذا التعلم على ما هو قابل للملاحظة من جانب الطفل والأبوين (أو المعلم) على حد سواء. فإذا نظرنا إلى معرفة الإنسان للكلمة، وجدنا أن هناك جانبين: الأول هو أن يكون الإنسان على ألفة بصوت الكلمة ويكون قادرا على إخراجها مرة أخرى، ويتم اكتساب هذا الجانب الصوتي، عن طريق ملاحظة سلوك الناس الآخرين ومحاكاة هذا السلوك، ولا توجد أوهام تتعلق بهذه العملية وتحول دون فهمنا الصحيح لها. أما الجانب الثاني فيتمثل في معرفة كيفية استعمال الكلمة، وهو الجانب الدلالي. وهذا الجانب، حتى في الحالة النموذجية، أكثر تعقيدا من الجانب الصوتي، إذ تشير الكلمة، في الحالة النموذجية، إلى شيء مرئي، ويجب على المتكلم ألّا يتعلم الكلمة من الناحية الصوتية فحسب، وذلك بأن يسمعها من متكلم آخر، وإنما يجب عليه أيضا أن يرى الشيء. زد على ذلك أنه لكي يفوز بالصلة الوثيقة التي تربط الكلمة بالشيء، لابد من أن يرى أن المتكلم يرى الشيء أيضا. وهذا يعني أن الطفل يعتمد في تعلمه

لكلماته وجمله الأولى على جانبين: الجانب الصوتي والجانب الدلالي، ويدور التعلم في الجانبين على مثيرات خارجية قابلة للملاحظة تترك أثرا في الطفل ومن يتعلم الطفل منه سواء بسواء. وربما يعترض المرء على كواين هنا بأن ليست كل ألفاظ اللغة شيئية بحيث تشير الكلمة إلى شيء لابد من أن يكون حاضرا أمام المعلم والمتعلم معا لكي تتم عملية التعلم على أفضل وجه، وإنما تنطوي اللغة على كلمات مجردة وروابط وغير ذلك من ألفاظ ليس لها مقابل في عالم الأشياء. والرد هو أن تعلم اللغة يبدأ أول ما يبدأ بألفاظ الملاحظة التي يتم تعلمها على نحو إشاري.

2- تعلم اللغة

هناك عدة نظريات تحاول تفسير تعلم اللغة، لعل أهمها ثلاث نظريات:

1- النظرية السلوكية كما وضعها السلوكيون أمثال واطسون وسكنر.

2- النظرية العقلية كما يمثلها تشومسكي وأتباعه.

3- النظرية المعرفية عند جان بياجيه.

وسوف نتناول كل نظرية من هذه النظريات بشيء من الإيجاز فيما يلي:

لقد ذهب واطسون إلى أن علماء النفس لا يحتاجون إلى التسليم بوجود العقل من أجل تحليل الفاعليات الإنسانية التي يشار إليها في الفكر الإنساني على أنها عقلية، ولقد وضع عنوانا فرعيا لفصل اللغة والفكر في كتاب السلوكية يقول فيه : "فصل يقضي، بصورة نهائية، على الوهم الذي ينص على وجود شيء من قبيل الحياة العقلية". ويشير في هذا الفصل إلى أن ما يسميه علم النفس بالفكر ليس سوى تكلم المرء مع نفسه. وإذا كان واطسون يستبعد الجانب العقلي عند دراسة السلوك عامة والسلوك الكلامي خاصة، فإنه يعول على الارتباط بين المثير stimulus والاستجابة response، والكلام تبعا لهذا هو استجابة يصدرها المتكلم ردا على مثير.

وبيَّن سكنر أن السلوك اللغوي، شأنه في ذلك شأن أي سلوك آخر، يعد نتيجة التدعيم reinforcement. إذ يؤسس تحليله لهذا السلوك على تصور ضبط المثير، ويتضمن ثلاثة عوامل هي المثير والاستجابة والتدعيم. وعلى هذا النحو، فكل جملة أو كلمة ينطقها الطفل أو المتعلم، على الأقل في المرحلة المبكرة من التعلم، تأتي نتيجة لوجود مثير معين، ولكي يتعلم الطفل لابد من تدعيم استجاباته، ويتخذ التدعيم صورا متباينة مثل احتضان الوالدين للطفل أو ابتسامهما له.

وفي محاولة لاجتناب الصعوبات التي تعترض سبيل النظرية السلوكية، جاءت النظرية العقلية عند تشومسكي الذي حاول إثبات أن المفاهيم المحورية في السلوكية مثل المثير والاستجابة والتدعيم إن كانت تتمتع ببعض المسوغات من خلال التجارب التي تجري على الحيوان، فإنها تفقد هذه

المسوغات عند دراسة اللغة الإنسانية، وسر ذلك أن الإنسان يتمتع بخصائص عقلية يتعذر إنكارها عند دراسة اللغة.

أما النظرية المعرفية عند بياجيه وأنصاره فترتكز على قضية أساسية مؤداها أن نمو القدرة اللغوية يأتي نتيجة للتفاعل بين الطفل وبيئته. ورغم أن النظرية المعرفية تعارض فكرة تشومسكي في وجود تنظيمات موروثة تساعد على تعلم اللغة، فإنها لا تتفق في الوقت نفسه مع النظرية السلوكية في القول إن اللغة تكتسب عن طريق التقليد والتدعيم لكلمات وجمل معينة ينطق بها الطفل في سياقات معينة. فاكتساب اللغة في رأي بياجيه ليس عملية إشراطية بقدر ما هو وظيفة إبداعية. حقا إن اكتساب التسمية المبكرة للأشياء والأفعال قد يكون نتيجة للتقليد والتدعيم، ولكن بياجيه يفرق بين القدرة والأداء، كما يفرق تشومسكي. فالأداء في صورة "التركيبات" التي لم تستقر بعد في حصيلة الطفل اللغوية، وقبل أن يسيطر عليها نهائيا، يمكن أن تنشأ نتيجة للتقليد، أما القدرة فلا تكتسب إلا بناء على تنظيمات داخلية، تبدأ أولية ثم يعاد تنظيمها بناء على تفاعل الطفل مع البيئة الخارجية. ولكن عندما يتحدث بياجيه عن تنظيمات داخلية، فإنه لا يعني ما يقصده تشومسكي من وجود نماذج للتركيب اللغوي أو القواعد اللغوية بقدر ما يعني وجود استعداد للتعامل مع الرموز اللغوية التي تعبر عن مفاهيم تنشأ من خلال تفاعل الطفل مع البيئة منذ المرحلة الأولى وهي المرحلة الحسية الحركية.

تلك هي أهم النظريات التي حاولت تفسير عملية تعلم اللغة، وسوف نحاول فيما يلي عرض نظرية كواين التجريبية السلوكية في تعلم اللغة، وننظر إلى أي حد تتفق مع النظريات المشار إليها وإلى أي حد تختلف عنها.

3- خطوات تعلم الطفل للغة

يذهب كواين إلى أن هناك خطوتين في تعلم الطفل للغة: الخطوة الأولى هي إشراط conditioning استجابات الطفل اللفظية verbal responses لمثيرات غير لفظية non-verbal stimuli ، والثانية هي إشراك استجابات الطفل اللفظية لمثيرات لفظية. فالطفل الذي لم يكتسب لغته بعد يبأبأ دون إشارة من والديه أو من غيرهما من الناس، ويسمى كواين هذه البأبأة، يحذو في ذلك حذو سكنر، بالسلوك الإجرائي operant behavior وهو السلوك الطبيعي للطفل الذي لم يتم إشراطه وتحديده وتشكيله عن طريق التدريب والخبرة. يقول كواين: "إن الشيء الغريب في جنسنا البشري الثرثار هو مرحلة البأبأة في الطفولة المتأخرة، فهذا السلوك الصوتي العشوائي يتيح للأبوين مناسبات متواصلة لتدعيم المنطوقات التي تحدث مصادفة والتي يرونها ملائمة، وهكذا تكون الحالات الأولية للكلام في المتناول. والبأبأة حالة لما يسميه سكنر السلوك الإجرائي" (5).

على أن هذه البأبأة العشوائية عند الطفل يتم إشراطها وتحديدها في كلام يشبه كلام والديه في المقام الأول. "ويمكن تدعيم السلوك الإجرائي بشكل انتقائي، في البشر والحيوانات الأخرى، عن طريق

المكافأة السريعة. فالكائن الحي يميل إلى تكرار الفعل الذي نال المكافأة عندما تتكرر المثيرات التي تصادف أن كانت موجودة عند الأداء الأصلي، وتتحول الإثارة التي لازمت الفعل مصادفة إلى مثير للفعل، وذلك عن طريق المكافأة. ويجوز أن يكون الفعل الإجرائي بأبأة عشوائية لشيء ما مثل "ماما" في لحظة ما عندما يلوح وجه الأم مصادفة، وتكافئ الأم التي سرتها التسمية ذلك الفعل العشوائي، وكذلك تنجح في المستقبل طريقة وجه الأم بوصفها مثيرا لعمليات نطق أخرى (لماما)" (6).

والحق أن تعلم اللغة، فيما يرى كواين، لا ينشأ عن عملية إشراط الإجراءات أو تدعيم البأبأة العشوائية فحسب، بل ينشأ عن عملية أخرى هي المحاكاة ، إذ يقوم الميل الطبيعي عند الطفل إلى المحاكاة بدور مهم في تعلم اللغة. ويمكن أن نخلص من هذا إلى نتيجة مفادها أن كواين يعتقد أن تعلم الطفل للاستجابة ينشأ من التدعيم، سواء كانت استجابته ناشئة عن البأبأة أو المحاكاة.

وفيما يتعلق بالخطوة الثانية في تعلم الطفل اللغة، وهي إشراط استجابات الطفل اللفظية لمثيرات لفظية، يرى كواين أن الطفل يتجاوز بعد وقت ليس بطويل تعلم لغته عن طريق خضوعه للإشراط للإثارات غير اللفظية، وينتقل من الاستجابة لإثارات مع جمل ذات كلمة واحدة إلى المشاركة في محادثة محدودة النطاق. وفي محاولة لتفسير هذا، يفترض كواين أن الطفل يكون مشروطا لربط جمل بجمل. ومن ثمّ لابد من أن نربط الجملتين بالطريقة التي ألمح إليها كواين، أي إشراط جملة بوصفها استجابة لجملة بوصفها مثيرا.

ولكن، هل يمكن أن تحدث عملية ربط الجمل التي نتحدث بها مع جميع الجمل في لغة معينة؟ الجواب : لا، لأن معظم الجمل التي نتحدث بها هي جمل لم نسمعها ولم ننطقها من قبل. ومن ثمّ فإن الفكرة القائلة إن المتكلمين يتعلمون كثيرا جدا من الجمل في لغتهم عن طريق كونهم مشروطين للجمل الأخرى تفقد جانبا كبيرا من قوتها عند مقابلتها بالفكرة التي يسميها تشومسكي الجانب الإبداعي في اللغة creative aspect of language ، أي قدرة كل الأشخاص الأسوياء على إنتاج كلام جديد كل الجدة، وفهمه عندما ينطقه الآخرون كذلك. وهذا يدل على أن مفهوم الإشراط الإجرائي يواجه مأزقا حرجا أمام مفهوم الإبداع اللغوي ما دمنا نتمتع بقدرات تمكننا من أن نتجاوز خبراتنا اللغوية الماضية ونضع عددا لامتناهيا من الجمل الجديدة التي لا نعتمد في إبداعها على تلك الخبرات. وتتمثل محاولة كواين للخروج من هذا المأزق في فكرة الاستبدال التمثيلي.

4- جمل الملاحظة

إذا كان كواين قد حاول بناء نظرية تجريبية سلوكية في تعلم اللغة بصفة عامة، فقد عالج كيفية تعلم الجانب الإشاري من اللغة على وجه الخصوص، وتناول ذلك في مواضع عديدة من كتاباته، يأتي في مقدمتها مقال "الحديث عن الأشياء" 1957 (وقد أعيد نشره في كتاب النسبية الانطولوجية ومقالات أخرى 1969)، ثم توسع في مناقشة هذا الجانب في كتاب الكلمة والشيء 1960، ثم

خصه بكتاب كامل هو جذور الإشارة 1974.(وتفصيل تعلم الجانب الإشاري تجده في كتابي فلسفة اللغة والمنطق : دراسة في فلسفة كواين، الفصل الثاني).

وإذا شئنا أن نفسر تمكن الإنسان من النظرية العلمية، فلابد أن ندرك كيف يكتسب اللغة النظرية، والسبب هو أننا نستطيع دراسة الكلمات على نحو موثوق به أكثر من دراسة الأفكار. ويضيف كواين سببا آخر يرتبط بالعلاقة بين النظرية العلمية والملاحظات التي تؤديها، لأن هذه العلاقة لها جانب دلالي، بالإضافة إلى جانبها الإبستمولوجي؛ إذ بالإضافة إلى كونها علاقة من خلالها تكتسب الجمل المثبتة في النظرية تأييدها، فإنها علاقة من خلالها تكتسب هذه الجمل معناها، نظرا لأننا نتعلم اللغة عن طريق ربط ألفاظها بالملاحظات التي تستنطق هذه الألفاظ أو تحدثها. وما دمنا نهتم بدراسة الكلمات دون الأفكار، ونربط الكلمات التي نستطيع رؤيتها وسماعها في المحيط الخارجي بالملاحظات التي تحدثها، فمن الطبيعي أن تكون عملية تعلم اللغة
مسألة واقعية.

أما السبب في أن الملاحظات تقوم بدور أساسي في تأييد النظرية العلمية وفي تعلم اللغة على السواء فيرجع إلى كون الملاحظات مباشرة ومتاحة على نحو بين ذاتي. فإذا ظهر بيننا خلاف على أمر من أمور الواقع، فإن الملاحظات هي الأساس المشترك الذي نلتقي عليه لحسم هذا الخلاف، ومن ثمّ يجيء دورها المحوري في تأييد النظرية العلمية. والملاحظات أساسية أيضا لعملية تعلم اللغة، لأن كل واحد منا يتعلم لغته من غيره من الناس في ظروف مباشرة بين ذاتية. وفي مستهل عملية التعلم لابد من أن توجد أشياء يمكن رؤيتها بوضوح في الخارج، وتكون قريبة من الحواس إلى حد يكفي لتحديد هويتها وتعلمها عن طريق الإشارة والتسمية. فالتعلم الإشاري يعد مرحلة أساسية في عملية التعلم ويتطلب القابلية للملاحظة. وإذا أراد الأب أن يعلم طفله كلمة "أحمر"، فلابد من أن يرى الأب والطفل معا في وقت واحد شيئا أحمر مثل حبة الطماطم الناضجة، ولابد من أن يرى الواحد منهما أن الآخر يرى حبة الطماطم هذه في الوقت ذاته.

ويرى كواين أن الدورين اللذين تقوم بهما الملاحظات، أي دورها في تأييد النظرية العلمية ودورها في تعلم اللغة متلازمان. فالملاحظات تكون ملائمة كدليل على تأييد النظرية العلمية بسبب هذه الارتباطات الفعلية بين الأحداث القابلة للملاحظة والمفردات اللغوية النظرية، تلك الارتباطات التي نتعلم عن طريقها المفردات اللغوية النظرية في المقام الأول. وهنا تظهر نظرية التحقق في المعنى بطبيعة الحال، إذ إن معنى الجملة يكمن في الملاحظات التي سوف تؤيدها أو تفندها. وتعلم اللغة هو تعلم معنى جملها، ومن ثمّ تعلم الملاحظات التي تعد دليلا عليها أو ضدها، فعلاقة الدليل والعلاقة الدلالية للملاحظة بالنظرية العلمية متواجدتان معا (7).

ولكن كواين يعتقد، تبعا لتمسكه بنزعة الكلية، أن أنصار نظرية التحقيق في المعنى قد جانبوا الصواب عندما تحدثوا عن معنى الجمل "الفرادى" لأن معظم الجمل لا تقبل "بشكل منفصل" دليل الملاحظة، إذ الجمل تتشابك، وقد أطلق كواين على هذا التشابك اسم "الحياة المتبادلة بين الجمل".
وربما تفند الملاحظة جانبا من نظرية تشتمل على مجموعة من الجمل، ومع ذلك تتركنا أحرارا في

اختيار الجمل المكونة التي تستمر لتكون صادقة والجمل التي نتخلى عنها. وهكذا تكون علاقة الدليل معقدة وغير مباشرة. وقل شيئا كهذا عن العلاقات الدلالية. وما دمنا نتعلم اللغة جزئيا عن طريق ربط الألفاظ أو الجمل ربطا مباشرا بالملاحظة، ونتعلمها جزئيا عن طريق ربط الواحدة منها بالأخرى، فعلاقة الدليل بكل تعقيدها والعلاقة الدلالية بكل تعقيدها متواجدتان معا (8).

وإذا نظرنا إلى الملاحظات ذاتها، وجدنا أنها بصرية وسمعية ولمسية وشمية، فهي حسية بوضوح وبالتالي ذاتية. ومع ذلك فإن الأمر الحاسم بالنسبة لاستعمال الملاحظات، باعتبارها دليلا وبوصفها نقاط الإشارة الدلالية على حد سواء، هو أنها مشتركة اجتماعيا. فهل يجب أن نقول إذن إن الملاحظة ليست هي الإحساس، وإنما هي الظروف البيئية المشتركة؟ الجواب عند كواين بالنفي، لإنه لا يوجد اتفاق حول الموقف البيئي أيضا. وهذا يعني أن هناك صعوبة تعترض سبيل فكرة الملاحظة، طالما أن الملاحظة إذا فهمت على أنها الموقف البيئي المشترك، فإن هذا الفهم أيضا لا يضمن اتفاقا بين الأشخاص الذين يلاحظون الموقف، فهل ثمة طريقة يمكن أن تتفادى بها هذه الصعوبة؟

5- تعريف جمل الملاحظة

هنا يقترح كواين طريقة لا تكمن في الكلام عن الإحساس ولا عن الموقف البيئي، بل تكمن في الكلام عن اللغة، أي نتخلى عن الملاحظة ونتكلم بدلا من ذلك عن جمل الملاحظة observation sentences . فماذا عسى أن تكون هذه الجمل؟ وما الدور الذي تقوم به؟

هناك محاولات عديدة في كتابات كواين لتحديد جمل الملاحظة. ولعل أكثرها دقة في رأينا ما ورد في كتاب جذور الإشارة 1974، ومقال "طبيعة المعرفة الطبيعية" 1975. وإذا كان كواين قد اقترح محاولة لاجتناب تعريف الملاحظة عن طريق الحديث بدلا من ذلك عن جمل الملاحظة، فمن غير الملائم بالنسبة له أن يعرف جملة الملاحظة بأنها الجملة التي تقرر الملاحظة. ومن ثمّ نراه يلجأ إلى شرط الاتفاق بين الذاتي الذي يقدم التعريف المروم، ويعرف جملة الملاحظة في حدود هذا الشرط الأساسي بقوله : "تكون الجملة جملة ملاحظة بقدر ما يوافق على قيمة صدقها في أية مناسبة أي عضو تقريبا في المجتمع الكلامي يشهد المناسبة" (9). ولعلنا نلاحظ أن هذا التعريف يعتمد على فكرة العضوية، ولا يمثل ذلك مشكلة ما دمنا نستطيع أن نتعرف على كون الشخص عضوا في المجتمع الكلامي عن طريق طلاقة حواره مع غيره من الأعضاء.

ولكن كواين يرى أن هذا التعريف يفتقر إلى قليل من التحديد، لأنه قد تدخل ضمن جمل الملاحظة الجمل التافهة التي سوف يوافق عليها كل الأعضاء في المجتمع الكلامي، مثل "الكلب حيوان". "وهذه الجمل التي أسميها تحليلية المثير stimulus-analytic يمكن استبعادها عن طريق اشتراط أن تكون جملة الملاحظة جملة مناسبة occasion sentence، أعني الجملة التي لا تستحق الموافقة أو الاعتراض عليها مرة وإلى الأبد، بل تستحق ذلك على نحو متغير فقط من مناسبة إلى أخرى" (10). وجمل المناسبة تكون صادقة في بعض المناسبات وكاذبة في بعضها

الآخر. فإذا قلنا "السماء تمطر"، نجد أنها جملة صادقة أحيانا وكاذبة أحيانا أخرى، وهي تعتمد في صدقها وكذبها على المناسبة التي تقال فيها.

والحق أن كواين قد عرف جملة الملاحظة تعريفا سلوكيا يعتمد على فكرة المعنى المثير، ولذلك نراه يحدد أولا التعريف السلوكي للمعنى المثير، ثم يؤسس عليه التعريف السلوكي لجملة الملاحظة عندما يكتب قائلا: "التعريف السلوكي للمعنى المثير على النحو التالي: المعنى المثير لجملة، بالنسبة لمتكلم معين، هو فئة جميع المواقف المثيرة التي في وجودها سوف يوافق على الجملة إذا وضعت موضع التساؤل. والمعنى المثير يكون أفضل ما يكون بين جمل الملاحظة. والتعريف السلوكي لجملة الملاحظة كما يلي : "جملة الملاحظة هي الجملة التي يكون المعنى المثير لها واحدا بالنسبة لجميع المتكلمين للغة تقريبا، وأمثلتها من قبيل (إنها تمطر) و(هذا أحمر) و(هذا أرنب)" (11).

ويحاول كواين مرة أخرى أن يقدم لنا تعريفا لجملة الملاحظة يقول فيه : "السمة المميزة لهذه الجملة هو أن قيمة صدقها تختلف باختلاف الظروف السائدة في وقت النطق، وهي جملة من قبيل "هذا أحمر" و"إنها تمطر"، والتي تكون صادقة في مناسبة وكاذبة في مناسبة أخرى، وذلك على خلاف جملة مثل "السكر الحلو" التي تبقى قيمة صدقها بصرف النظر عن مناسبة النطق. وزبدة القول هي أن جمل الملاحظة هي جمل مناسبة وليست بجمل دائمة "standing sentences (12)).

بيد أن كون جملة الملاحظة جملة مناسبة لا يمثل السمة الوحيدة لجملة الملاحظة عن غيرها من الجمل، إذ لا تعتمد قيمة صدق جملة الملاحظة على ظروف نطقها فحسب، وإنما يجب أن تعتمد أيضا على ظروف قابلة للملاحظة بشكل بين ذاتي.

هكذا اشترط كواين شرطين لابد من توافرهما في جملة الملاحظة : أولا، أن تكون جملة مناسبة، وثانيا، أن تكون مناسباتها قابلة للملاحظة بشكل بين ذاتي. ولكن هل يكفي هذان الشرطان لتحديد جملة الملاحظة؟ يجيب كواين عن هذا السؤال بالنفي، ويقدم مثالا لجملة تستوفي الشرطين السابقين ومع ذلك لا تعد جملة ملاحظة بالمعنى الدقيق: "إن الجملة (يسير هناك معلم محمد العجوز) تستوفي هذين الشرطين، فهي جملة مناسبة ويمكن أن يرى المشاهدون المعلم يتهادى في سيره. ولكن الجملة تعجز عن الوفاء بشرط ثالث، أي لابد من أن يكون المشاهدون قادرين بصفة عامة على إدراك أن الملاحظة التي يشتركون فيها هي الملاحظة التي تثبت الجملة، ويجب أن يكونوا في وضع يستوي مع وضع المتكلم لكي يوافقوا على الجملة دون مساعدة في المناسبات. وهم يتمتعون بهذا الوضع في حالة الجمل "هذا أحمر" و"إنها تمطر" و"يسير هناك رجل عجوز"، ولكن ليس في حالة الجمل: "يسير هناك معلم محمد العجوز". وهذا يعني أن هناك ثلاثة شروط يجب أن تستوفيها الجملة لكي تكون جملة ملاحظة وهي :

1- أن جملة الملاحظة هي جملة مناسبة وليست جملة دائمة.

2- أن تكون مناسبتها قابلة للملاحظة بشكل بين ذاتي.

3- أن تحظى بالموافقة من جميع المشاهدين الذين ينتمون إلى المجتمع الكلامي الذي تقال فيه الجملة، ولكي تحظى الجملة بذلك يجب أن لا تقرر أشياء تخص متكلما بعينه أو تتعلق بمسائل خاصة، وإنما لابد من أن تنطوي على إشارات إلى أشياء لا تتجاوز الأشياء الفيزيائية في الواقع.

وربما تتألف جملة الملاحظة من اسم أو صفة، وذلك عندما نفكر فيهما باعتبارهما جملة مثل "مطر" و"بارد" و"أرنب" بالقياس إلى الجمل: "إنها تمطر" و"إنه بارد" و"إنه أرنب". وربما يتم تركيب جمل الملاحظة أيضا لتأليف جمل ملاحظة جديدة، وينتج ذلك عن طريق العطف البسيط : "الشمس طالعة والطيور تغرد". والطريقة الأخرى لتأليفها هي الحمل مثل الجملة "هذه السبورة بيضاء" المؤلفة من "انظر سبورة" و"إنها بيضاء".

6- دور جمل الملاحظة

تقوم جمل الملاحظة بدورين أساسيين، الأول دلالي، والثاني برهاني. مفاد الأول أن جمل الملاحظة هي المدخل إلى اللغة، وفحوى الثاني أن جمل الملاحظة هي المدخل إلى العلم .

إن جمل الملاحظة هي المدخل إلى اللغة لأنها أول ما نتعلمه من اللغة، وجملة الملاحظة في المستوى البدائي تأتي في صيغة الكلمة المفردة مثل "أحمر" أو "لبن" أو "كرة"، إذ يتعلم الطفل الموافقة على السؤال "أحمر؟" في حضور واضح وبارز للأشياء الحمراء. أما الشيء الذي يجعل عملية تعلم جمل الملاحظة عملية سهلة فهو قابلية الملاحظة بين الذاتية للظروف الملائمة في وقت النطق. فلا توجد صعوبة في أن يتحقق الأب من أن الطفل يرى كرة في وقت النطق، وبالتالي يستطيع أن يكافئ موافقة الطفل على التساؤل "كرة"؟. وكذلك يستطيع الطفل أن يتحقق من أن الأب يرى الكرة عندما يوافق الأب على هذا التساؤل. وهنا نجد أن جملة الملاحظة "كرة" تتوافر فيها الشروط الثلاثة المشار إليها لتحديد جملة الملاحظة.

على أن هذا لا يعني أن يتعلم كل منا جمل الملاحظة عن طريق إشراط مباشر، وإنما قد يحدث أن نتعلم جمل ملاحظة كثيرة بطرق غير مباشرة. فقد نتعلمها عن طريق التفسير اللفظي أو عن طريق السياق اللفظي أو عن طريق التركيب المتماثل من كلمات مكونة تم تعلمها من قبل.

وكما أن جمل الملاحظة هي المدخل إلى اللغة، فكذلك هي المدخل إلى العلم. وإن شئت أن تضع ذلك بعبارة أخرى قل إن جمل الملاحظة هي نقاط البدء في تعلم اللغة، وهي أيضا نقاط البدء ونقاط الفحص في النظرية العلمية. وهي تؤدي الغرضين لسبب واحد ألا وهو قابلية الملاحظة بين الذاتية للظروف الملائمة في وقت النطق، فقابلية الملاحظة بين الذاتية هذه في وقت النطق هي التي تمكن الطفل من أن يتعلم متى يوافق على جملة الملاحظة، وهي أيضا، أي قابلية الملاحظة بين الذاتية، التي تحدد جمل الملاحظة بوصفها نقاط فحص للنظرية العلمية. فجمل الملاحظة تعين الدليل الذي لا بد من أن يوافق عليه المشاهدون (12). أي إنها تقدم أساسا مشتركا يلتقي عليه العلماء عندما

ينشأ بينهم خلاف حول نظرية من النظريات. وبعبارة أخرى إن جمل الملاحظة هي الجمل التي يمكن عن طريقها أن يتوصل العلماء إلى اتفاق عندما تتعارض نظرياتهم، وهي بذلك تعد مدخلا إلى العلم.

على أننا قد نجد أنفسنا مدفوعين إلى التساؤل: ألا تذكرنا جمل الملاحظة عند كواين بالعبارات الأساسية أو عبارات البروتوكول protocol statements عند فلسفة جماعة فينا؟ إذا كان الجواب بالإيجاب، فسرعان ما يظهر السؤال: ما هي الصلة بينهما، وما الجديد الذي أضافه كواين في هذا المجال؟

لقد أدى تطور العلم إلى زيادة كبيرة في العبارات والقوانين التجريبية، وكان لزاما على التحليل المنطقي للمعرفة أن يسعى إلى فهم الأسس التي ترتكز عليها مفاهيم وعبارات العلوم التجريبية. وقدم بعض أعضاء جماعة فينا وعلى رأسهم كارناب (1891-1970) ونيورات (1882-1945) وشليك (1882-1936) مفهوم العبارات الأساسية بغية تفسير المعرفة العلمية، وذلك لاعتقادهم بأن جميع العبارات العلمية ترتد في نهاية المطاف إلى عبارات ذات صلة مباشرة بالخبرة الحسية. ولكن ما إن طرح مفهوم العبارة الأساسية، حتى دار حوله النقاش بين هؤلاء الأعضاء، وانصب النقاش في جانبه الأكبر على طبيعة هذه العبارة ومجالها. وبعبارة أخرى، كان السؤال الذي تطلب جواب الأعضاء هو : ما العبارة الأساسية، وكيف نحدد ما إذا كانت عبارة معينة تندرج تحت نمط
العبارة الأساسية؟

وكانت من بين الإجابات المبكرة عن السؤال السابق إجابة كارناب التي رأى فيها أن العبارات الأساسية تشير إلى المعطى، وتصف مباشرة خبرة متاحة أو ظواهر، أو هي العبارات التي لا تحتاج إلى تسويغ وتصلح كأساس لبقية عبارات العلم. موضوع العبارة الأساسية، إذن، هو الخبرة الحسية المباشرة، وهي تمثل نقطة البدء في النسق العلمي، فهي المقياس التي تقد عليه بقية عبارات النسق. وإذا كانت هناك عبارات هذا شأنها، فإن التعديل أو التصحيح لا يجد سبيلا إليها. ولكن كارناب أقر بأنه متردد حول الصيغة التي يجب أن تتخذها العبارات الأساسية. إذ اعتقد بأنها يجوز أن تتألف من تعبيرات من قبيل "سعيد الآن" أو"هنا قلم أسود بجوار السبورة". واعترض نيورات(13) على هذه الصيغ التي قدمها كارناب للعبارات الأساسية اعتراضا عاما مؤداه أن أي صيغة من تلكم الصيغ لا يمكن أن تكون ملائمة للنسق بين الذاتي intersubjective في العلم إلا إذا عرفت الإشارة إلى تعبيرات مثل "الآن" و"هنا"، وعرفت هوية المتكلم.

وبالإضافة إلى الخلاف السابق بين نيورات وكارناب حول بنية العبارات الأساسية، هناك خلاف آخر حول زعم كارناب في تعريفه للعبارة الأساسية الذي أسلفناه، والذي يدعي فيه أنها لا تحتاج إلى تسويغ مما يجعلها لا تقبل التعديل، أي إن كارناب قد أضفى على هذه العبارات نوعا خاصا من اليقين، وبالتالي فإنها تقدم الأساس الصحيح للمعرفة.

ويوضح اير هذا اليقين الخاص بالعبارات الأساسية عندما يقرر أن المرء يمكن أن يقع في خطأ حقا حول خبرات سيحصل عليها في المستقبل، أو حتى التي حصل عليها في الماضي، ولكن لو أعلن المرء فحسب أنه يسجل خبرة يحصل عليها بالفعل، فلا توجد إمكانية للخطأ. ومادام المرء يستطيع أن يكذب، فربما تكون عبارته كاذبة، ولكن المرء
لا يستطيع أن يكون شاكا أو مخطئا حول صدقها؛ فإذا كانت كاذبة، يعرف المرء أنها لابد من أن تكون كذلك. والطريقة التي توضع بها هذه الفكرة أحيانا هو القول إن العبارات من هذا النمط لا تقبل التعديل (14).وإلى جانب رأي كارناب في يقين العبارات الأساسية، ذهب شليك إلى أن العبارات الأساسية هي العبارات التي حازت يقينا مطلقا ليس موضعا لشك، وذلك لأن النظرية والواقع يصبحان في اتصال مباشر أحدهما بالآخر في هذه العبارات (15).

ولكن نيورات لا يقبل القول باليقين المطلق للعبارات الأساسية كاشفا بذلك عن الخلاف الثاني بينه وبين كارناب، كما يقيم خلافا كذلك بينه وبين شليك الذي أيد رأي كارناب. يقول نيورات: "لا توجد عبارة تتمتع بالحصانة التي أمر بها كارناب للجمل الأساسية"(16). وهكذا يرفض نيورات رأي كارناب وشليك لأنه اعتقد أن رأي كارناب يمثل محاولة للوصول إلى المطلق الثابت، وهي محاولة ميتافيزيقية مرفوضة من جانب نيورات، كما أن رأي شليك ينطوي على تعبيرات مثل "اليقين المطلق" و"اليقين الذي
لا يخالطه شك" التي تكشف عن جانب ميتافيزيقي لابد من رفضه أيضا.

وأشار كواين إلى الخلاف بين أعضاء جماعة فينا على العبارات الأساسية قائلا: " في عام 1932 تقريبا كان هناك جدل في دائرة فينا حول ما ينظر إليه على أنه جمل ملاحظة أو جمل أساسية. كانت هنالك وجهة نظر تقول إن لها صيغة تقريرات عن الانطباعات الحسية، وهناك وجهة نظر تقول إنها عبارات من نوع عنصري elementary حول العالم الخارجي مثل "يوجد مكعب أحمر على المائدة"، وهناك وجهة نظر تقول- وهي وجهة نظر اوتو نيورات- إن هذه الجمل لها صيغة تقريرات عن علاقات بين الذوات المدركة والأشياء الخارجية مثل "يرى محمد الآن مكعبا أحمر على المائدة"، وأسوأ ما في هذا الجدل هو أنه لا توجد طريقة موضوعية لحسم المسألة" (17).

لقد تنبه بعض الباحثين حقا إلى الصلة بين العبارات الأساسية عند جماعة فينا وجمل الملاحظة عند كواين، يقول "هوكوي": إن الجمل الأساسية تناظر تقريبا جمل الملاحظة عند كواين (18). ويقول "لي": "تقوم جمل الملاحظة في نظرية كواين بالدور الذي قامت به الجمل الأساسية في الوضعية المنطقية المبكرة، ولكنها مبسوطة في شكل أقل دوجماطيقية ووضعية إلى حد كبير، ومعرفة بوضوح إلى حد بعيد" (19). والحق أن عبارة " لي" أكثر دقة في رأينا لأنه ألمح إلى جانبين مهمين: الأول، أن صياغة كواين لجمل الملاحظة أقل دوجماطيقية ووضعية من صياغة فلاسفة الوضعية المنطقية المبكرة (أي جماعة فينا) للعبارات الأساسية؛ والثاني، أن تعريف كواين لهذه الجمل أكثر وضوحا وتحديدا من تعريف هؤلاء الفلاسفة للعبارات الأساسية. وإذا تناولنا الأمر الأول، وجدنا أن كواين يرفض القول باليقين المطلق للعبارات الأساسية، ويرى أنه "لا توجد

عبارة مستثناة من التعديل"(20)، وهو بذلك يمثل اتجاها أقل قطعية من اتجاه جماعة فينا فيما عدا نيورات. وبالإضافة إلى ذلك،عندما نقابل جمل الملاحظة بالعبارات الأساسية، نجد أن العبارات الأساسية يمكن التحقق منها فرادى في إطار مبدأ التحقق، أما جمل الملاحظة فلا يجري التحقق منها إلا في نسق وذلك تبعا لنزعة الكلية. وعلى هذا النحو ينظر كواين إلى جمل الملاحظة نظرة أقل وضعية من نظرة جماعة فينا إلى العبارات الأساسية.

وفيما يتعلق بالجانب الثاني الذي ألمح إليه "لي" في تقريره عن صلة جمل الملاحظة بالعبارات الأساسية، نجد أن جمل الملاحظة قد حظيت بتحديد واضح وتعريف أكثر دقة مما حظيت به العبارات الأساسية. وسبق أن عرضنا بشيء من التفصيل محاولة كواين لتحديد جملة الملاحظة، تلك المحاولة التي أفضت إلى وضع ثلاثة شروط يجب أن تتوافر في الجملة لكي تكون جملة ملاحظة وهي:

(1) أن جملة الملاحظة هي جملة مناسبة وليست جملة دائمة.

(2) أن تكون قابلة للملاحظة بشكل بين ذاتي.

(3) أن تحظى بالموافقة من جميع المشاهدين في المجتمع الكلامي الذي تقال فيه الجملة.

وإذا كان أعضاء جماعة فينا قد نظروا إلى العبارات الأساسية من الجانب المعرفي البرهاني باعتبار أنها الأساس الذي تقوم عليه بقية عبارات النسق العلمي، فإن كواين قد قرر هذا وزاد عليه جانبا آخر هو الجانب الدلالي. فقد رأى أن جمل الملاحظة تؤدي دورين أساسيين: أحدهما دلالي مؤداه أن هذه الجمل تمثل المدخل ونقطة البدء في اكتساب اللغة، والآخر برهاني مفاده أن هذه الجمل تمثل المدخل ونقطة البدء في النظرية العملية. وهكذا نجد أن معالجة كواين لطبيعة جمل الملاحظة ووظيفتها أكثر تحديدا ووضوحا إذا ما قورنت بمعالجة جماعة فينا للعبارات الأساسية. وأغلب الظن عندي أن هذه المعالجة تقدم طريقة موضوعية لحسم ما يمكن أن يظهر من خلاف حول جمل الملاحظة.

******

هوامش الفصل الثاني

W.V.Quine, Word and Object, second printing, Cambridge, Mass.: -1
.MIT Press, 1964, p.IX

W.V.Quine, The Roots of Reference, La Salle, Illinois: Open Court, -2
.1974, p.34

W.V.Quine, Ontological Relativity and Other Essays, New York -3
and London: Columbia Uinversity Press, 1969, p.27, and see also G.
.Ryle, The Concept of Mind, Penguin Books, 1970, p.61ff

W.V.Quine, "Philosophical Progress in Language Theory," -4
.Metaphilosophy, 1, 1970, pp.4-5

.W.V.Quine, Word and Object, p.80 -5

.Ibid., pp.80-81 -6

.W.V.Quine, The Roots of Reference, p.38 -7

.Ibid., p.38 -8

.Ibid., p.39 -9

.Ibid., p.39-10

W.V.Quine, "Methodological Reflections on Current Linguistic -11
Theory," in D.Davidson and G.Harman (eds.), Semantics of Natural
.Language, p.450

W.V.Quine, "The Nature of Natural Knowledge," in S.Guttenplan -12
.(ed.), Mind and Language, pp.73-74

O.Neurath, "Protocal Sentences," Translated by G.Schick, in -13
.Logical Positivism, edited by A.J.Ayer, p.202

A.J.Ayer,"Introduction," in Logical Positivism, edited by A.J.Ayer, -14
.p.18

B.Delfgaauw, Twentieth-Century Philosophy, translated by -15
.N.D.Smith, Dublin: Gill and Macmillan, 1969, p.147

.O.Neurath, "Protocal Sentences," p.203 -16

.W.V.Quine, Ontological Relativity and Other Essays, p.85 -17

C.Hookway, Quine: Language, Experience, and Reality, -18
.Stanford, California: Stanford University Press,1988, p.189

H.N.Lee, "Discourse and Event: the Logician and Reality," in -19
L.E.Hahn and P.A.Schilpp (eds.), The Philosophy of Quine, La
.Salle,Illionis, Open Court, Third Printing,1988, p.301

W.V.Quine, From A Logical Point of View, Second Edition, New -20
.York and Evanston: Harper Torch Books, 1963, p.43

******

الفصل الثالث

النظرية العقلية

في اكتساب اللغة ومعرفتها (تشومسكي)

1- تمهيد

2- نقد تشومسكي للنظرية السلوكية في دراسة اللغة

1 - 2 الأسس العامة للسلوكية

2 -2 نظرية بلومفيلد في اللغة

3- أهداف النظرية اللغوية

4- النحو التوليدى: دلالة المصطلح

5- نظرية تشومسكي عام 1957

6- النظرية النموذجية

7- الأصول الفلسفية لنظرية تشومسكي اللغوية

8- خاتمة

النظرية العقلية في اكتساب اللغة ومعرفتها (تشومسكي)

1- تمهيد

منذ أن نشر ناعوم تشومسكي Noam Chomsky (1928 -) كتابه الأول البنى التركيبية syntactic structures (1) في عام 1957، وهناك رأي متواتر يقول إن هذا الكتاب الصغير كان ثورة في علم اللغة. صحيح أن فرديناند دي سوسير (1857 – 1913) هو مؤسس علم اللغة الحديث، ولكن تشومسكي أحدث تحولا جذريا في اتجاهات هذا العلم وأهدافه إلى الحد الذي أصبح يمثل تهديدا وتحديا للمدارس اللغوية الأخرى. واحتل تشومسكي بهذا التحول مكانة رفيعة وفريدة لا ينازعه فيها منازع، وأصبحت نظريته اللغوية تمثل نموذجا تقاس عليه النظريات الأخرى، ولم

يقف تأثيرها عند الدراسة العلمية للغة فحسب، بل امتد إلى فروع معرفية أخرى مثل علم النفس اللغوي والعلم الإدراكي وفلسفة اللغة.

وفي العام الذي نشر فيه تشومسكي كتاب البنى التركيبية نشر سكنر B. F. Skinner (1904 - 1990) كتاب السلوك اللفظي الذي نظر إليه على نطاق واسع على أنه أفضل صياغة سلوكية للنظرية اللغوية. وجاءت نظرية سكنر تطويرا للنظرية التي سبق أن طرحها عالم اللغة الأمريكي ليونارد بلومفيلد (1887-1949 L. Bloomfield). وكان تشومسكي قد تلقى أفكاره الأولى في علم اللغة في إطار نظرية بلومفيلد وأتباعه الذين سموا باسم البلومفيلديين الجدد. ولكن تشومسكي لم يقف عند حد طرح نظرية بديلة للنظرية البنيوية السلوكية، وإنما شن على السلوكية هجوما ساحقا ماحقا في مراجعته النقدية لكتاب سكنر بعنوان: "مراجعة سكنر السلوك اللفظي" 1959.

2- نقد تشومسكي للنظرية السلوكية في دراسة اللغة

2-1 الأسس العامة للسلوكية

إن السلوكية behaviourism بصفة عامة هي وجهة النظر القائلة إن السلوك أساسي في فهم الظواهر العقلية. ويطلق هذا الاسم على مذهب في علم النفس ومذهب فلسفي على حد سواء، وبالتالي يجب أن نميز بين السلوكية العلمية (النفسية والمنهجية) والسلوكية الفلسفية (المنطقية والتحليلية). السلوكية العلمية ظهرت في القرن العشرين على يد واطسون J. B. Watson 1958 – 1878)) الذي أدخل المصطلح إلى علم النفس سنة 1913، ثم تطورت على يد هول C.L. Hull و تولمان E. C. Tolman وسكنر B. F. Skinner. وجاءت السلوكية في علم النفس بمثابة خروج على التقليد الاستبطاني وذلك عن طريق إعادة تعريف المهمة الملائمة لعلم النفس على أنها تفسير السلوك والتنبؤ به. أما السلوكية الفلسفية فهي دعوى دلالية حول معاني التعبيرات العقلية، وجاءت صورتها البارزة عند الوضعيين المنطقيين وبخاصة كارناب وهمبل واير، ثم تجلت صيغتها المؤثرة في كتاب مفهوم العقل 1949 لجلبرت رايل، والتي يمكن إيجازها في عبارة تقول إن العقل استعداد للسلوك.

ولسنا في حاجة إلى النظر في الاختلافات الأساسية بين السلوكية العلمية والسلوكية الفلسفية (انظر كتابي فلسفة العقل، الفصل الأول)، وحسبنا الآن أن ننظر إلى السلوكية بصفة عامة على أنها موقف يرتكز على مجموعة من المبادئ هي :

1- الشك في كل المصطلحات العقلية مثل عقل ومفهوم وفكرة وما دار مدارها، ورفض الاستبطان باعتباره وسيلة للحصول على بيانات صحيحة في
علم النفس.

2- الاعتقاد بأن سلوك الإنسان لا يختلف عن سلوك الحيوان، وأن التفكير والوعي الإنساني يمكن معالجته باعتباره سلوكا لغويا شبه صوتي، ويمكن تفسير السلوك اللغوي بالطريقة التي نفسر بها

أنواع السلوك الأخرى لدى الإنسان والحيوان. والاعتقاد بعدم وجود اختلافات أساسية في المبادئ التي تحدد السلوك الحيواني والإنساني يربط علم النفس السلوكي بعلمي الأحياء والحيوان التطوريين، ويدعم محاولات بعض الفلاسفة مثل تشارلز موريس لبناء نظرية عامة في علم العلامات أو السيميوطيقا semiotics يمكن تطبيقها على كل النظم الإشارية الطبيعية. وهذا أمر يعترض عليه تشومسكي، وسوف نوضح اعتراضه فيما بعد.

3- تقليل دور الموهبة والقدرات الفطرية الأخرى والتوكيد على الجانب الذي يقوم به التعلم في تفسير اكتساب السلوك الإنساني والحيواني. إذ تؤكد السلوكية على التربية أكثر من الطبيعة، وتنسب أكثر المؤثرات إلى البيئة وأقلها إلى الوراثة. وبهذا تكون السلوكية هي الحليف الطبيعي للتجريبية في موقفها من العقلانية، فعلى حين يؤكد المذهب العقلي على دور العقل في اكتساب المعرفة، وعلى قدرة العقل على الاستدلال من المبادئ الأولية، فإن التجريبية ترى أن التجربة هي المصدر الأساسي للمعرفة.

4- النزعة الآلية أو الحتمية التي يفهم منها القول بأن كل شيء في الكون يتحدد بشكل سببي تبعا لنفس القوانين الفيزيائية. وهذا الرأي ينطبق على أفعال الإنسان مثلما ينطبق على حركات المادة غير الحية. وإذا تمسك السلوكي بذلك، فسوف يضع توكيدا عظيما على قابلية التنبؤ باعتبارها المعيار الأساسي لتقويم أية نظرية في السلوك الإنساني. ومن الطبيعي تبعا لذلك أن يستهل تقريره عن السلوك اللغوي بالاهتمام بالبنية الخارجية لهذا السلوك وبحثه عن العنصر السببي في إنتاج المنطوقات.

5- إن سلوك أي كائن حي يمكن وصفه في حدود الاستجابات التي يقوم بها الكائن الحي لمثيرات تقدمها له البيئة، والصيغة التي تستعمل عادة للرمز إلى هذه العلاقة بين المثير والاستجابة هي:

م س

ويمثل السهم هنا علاقة سببية، أي إن المثير سبب والاستجابة نتيجته.

2-2 نظرية بلومفيلد في اللغة

إذا نظرنا إلى دراسة اللغة من خلال هذا التصور العام للسلوكية، وجدنا أن بلومفيلد يعلن في كتاب اللغة 1933 تأييده الواضح للمذهب السلوكي. والحق أن بلومفيلد كان قد أعلن قبل ذلك عن مشايعته للتناول العقلي للغة في دراساته المبكرة مثل مقدمة في دراسة اللغة 1914، ولكنه تخلى عن المذهب العقلي في سنة 1926، وأخلص الولاء للسلوكية في بحث بعنوان: "مجموعة مسلمات لعلم اللغة"، وطرح فيه وجهة نظر تقول إن المعنى اللغوي يكمن في ملامح المثير ورد الفعل القابل للملاحظة في المنطوقات. وأقام في كتاب اللغة تعارضا بين النظرية العقلية والنظرية المادية أو الآلية التي يؤيدها. وتؤكد النظرية الآلية على أن الأفعال الإنسانية هي جزء من سلاسل السبب والنتيجة تماما كالسلاسل التي نلاحظها في دراسة الفيزياء أو الكيمياء مثلا. ثم واصل الاقتراح

بأننا نستطيع من حيث المبدأ أن نتنبأ بأن مثيرا معينا سوف يدفع شخصا ما إلى الكلام. وإذا كان الأمر كذلك، فإننا نستطيع أن نتنبأ عمليا بالكلام إذا عرفنا الوضع الدقيق الذي كان عليه جسم الشخص في لحظة الحدث.

يقتسم بلومفيلد إذن موقفين من مواقف السلوكية وهما الارتياب في المذهب العقلي، والاعتقاد في الحتمية. وبالإضافة إلى ذلك فإنه يقبل صورة من الحتمية تسمى باسم الوضعية أو النزعة الفيزيائية، وهذا يدل على أنه يعتقد في أن العلم برمته يتعين صياغته على غرار ما يسمى بالعلوم الدقيقة، وأن المعرفة العلمية لابد من أن تكون قابلة للرد في نهاية الأمر إلى عبارات تمت صياغتها حول العالم الفيزيائي كالتي تصفها الفيزياء مثلا. ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن بلومفيلد قد شارك مع نيورات وكارناب وموريس في إصدار موسوعة العلم الموحد سنة 1939(2).

ويؤكد بلومفيلد على اتفاق أفكاره مع آراء الوضعية المنطقية، فنراه يقول: " لقد توصلت مجموعة من الفلاسفة في السنوات الأخيرة، تعرف باسم دائرة فينا، إلى نفس النتيجة فيما يخص اللغة. وعندما أخضع كارناب ونيورات فروع العلم المنوعة للبحث المنطقي، تبين لهما أن جميع العبارات ذوات المعنى على نحو علمي قابلة للترجمة إلى حدود فيزيائية" (3). وهكذا يرى بلومفيلد أن الدراسة العلمية الصحيحة للغة تبدأ من ملاحظة الكلام العادي ويقدم مثالا بسيطا للحدث الكلامي في صورة قصة
جاك وجيل.

يقول : تخيل أن جاك وجيل يسيران في زقاق، وجيل جائعة، وبينما هي كذلك إذ بها ترى تفاحة، وتحدث صوتا بحنجرتها ولسانها وشفتيها، فيقفز جاك على السور، ويتسلق الشجرة، ويأخذ تفاحة ويحملها إلى جيل ويضعها في يدها، فتأكل جيل التفاحة(4).

ويميز بلومفيلد بين "فعل الكلام" و "الحوادث العملية" الأخرى. وإذا نظرنا إلى الحادثة السابقة من خلال هذا التمييز وجدنا أنها تتألف من ثلاثة أجزاء هي:

(أ) حوادث عملية تسبق الكلام.

(ب) الكلام.

(ج) حوادث عملية تلي فعل الكلام.

ولننظر أولا في الحوادث العملية (أ)، (جـ). تتعلق الحوادث في (أ) بالمتكلمة "جيل" في المقام الأول، إنها جائعة، أي إن بعض عضلاتها قد انقبضت وأفرزت بعض السوائل وبخاصة في معدتها، وربما تشعر بالظمأ أيضا وذلك بجفاف لسانها وحنجرتها. وبينما هي كذلك انعكست الموجات الضوئية من التفاحة الحمراء فصدمت عينيها، ورأت جاك بجوارها. وتدخل الآن علاقتها السابقة بجاك في الصورة، ولنفترض أن هذه العلاقات تكمن في علاقة عادية معينة، مثل علاقة

الأخ بالأخت أو الزوج بالزوجة، ويسمي بلومفيلد كل هذه الحوادث التي تسبق كلام جيل وتتعلق بها باسم "المثير لدى المتكلم" (5).

أما الحوادث العملية في (جـ) التي حدثت بعد كلام جيل، فهي تتعلق في المقام الأول بالمستمع جاك، وتتكون من إتيانه بالتفاحة وتقديمها إلى جيل، ويسميها بلومفيلد "استجابة المستمع"، والحوادث التي تلي الكلام تتعلق بالمتكلمة جيل أيضا، وذلك بطريقة مهمة للغاية، إذ تتناول التفاحة وتأكلها (6).

وإذا نظرنا إلى الجزء (ب) الذي يمثل الحدث الكلامي في قصتنا، وجدنا أنه الجزء الذي يهمنا نحن كدارسين للغة بوجه خاص، فنحن نلاحظ في عملنا برمته الجزء (ب). وعلى أساس الفسيولوجيا والفيزياء، يحلل بلومفيلد الحدث الكلامي إلى ثلاثة أجزاء:

(ب-1) حركت المتكلمة (جيل) وتريها الصوتيين وفكها الأسفل ولسانها بطريقة دفعت الهواء في صورة موجات صوتية، وهذه الحركات من المتكلمة هي رد فعل للمثير م (رمز للمثير). وبدلا من أن تؤدي الاستجابة العملية س (رمز للاستجابة)، أي محاولة الحصول على التفاحة بشكل واقعي، فإنها قامت بهذه الحركات الصوتية أي باستجابة كلامية أو استجابة بديلة، والتي سوف نرمز لها بالحرف (س/). وخلاصة القول هي أن جيل بوصفها شخصا متكلما لا تملك طريقة واحدة للاستجابة للمثير بل طريقتين:

م س (استجــابة عملية)

م س/ (استجابة لغوية بديلة)

وفي حالة قصتنا قامت جيل بالاستجابة اللغوية البديلة.

(ب-2) وضعت الموجات الصوتية في الهواء في فم جيل الهواء المحيط في حركة موجة مماثلة.

(ب-3) اصطدمت هذه الموجات الصوتية بطبلتي أذن جاك وجعلتهما تهتزان، الأمر الذي أثر في أعصاب جاك، فسمع جاك الكلام، ولقد قام هذا الاستماع بدور المثير بالنسبة لجاك، فقد رأيناه يعدو ويأتي بالتفاحة ويضعها في متناول يد جيل، كما لو كان جوع جيل والتفاحة مثيرا أثر فيه. وإن شئت أن تضع ذلك بعبارة أخرى قل إن جاك بوصفه شخصا متكلما يستجيب لنوعين من المثيرات: المثير العملي من النوع (م) مثل الجوع ورؤية الطعام والمثير الكلامي أو المثير البديل، والذي نرمز إليه بالحرف (م/):

مثــير عملي م س

مثير لغوي بديل م/ س (7).

ومن الواضح أن العلاقة بين حركات جيل الصوتية (ب-1) واستماع جاك (ب-3) تكون عرضة لتغير ضئيل، ما دامت مجرد مسألة موجات صوتية تمر عبر الهواء (ب-2). فإذا صورنا هذه العلاقة بخط منقط، فإننا نستطيع أن نرمز إلى الطريقتين الإنسانيتين للاستجابة للمثير بالمخططين التاليين :

استجــابة غير كلامية: م س

استجابة عن طريق الكلام: م س ..... م/ س

والاختلاف بين هذين النمطين من الاستجابة واضح، إذ تحدث الاستجابة غير الكلامية دائما عند الشخص الذي يحدث عنده المثير، فالشخص الذي يتلقى المثير هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يستجيب. وتبعا لذلك، فإن الاستجابة مقصورة على الأفعال التي يمكن أن يقوم بها الشخص المتلقي للمثير. وفي مقابل هذا، فإن الاستجابة عن طريق الكلام ربما تحدث في شخص لا يتلقى المثير العملي، إذ إن الشخص الذي يتلقى المثير يمكن أن يحث شخصا آخر على القيام باستجابة، وهذا الشخص الآخر ربما يكون قادرا على القيام بأشياء ليست في استطاعة المتكلم، وتمثل الأسهم في مخططاتنا تتابع الحوادث في جسم شخص واحد، ومن ثمّ فإن الاستجابة غير الكلامية يمكن أن تحدث فقط في الجسم الذي استقبل المثير. ومن ناحية ثانية، ففي الاستجابة عن طريق الكلام هناك رباط ، مثله الخط المنقط ، ويتكون هذا الرباط من الموجات الصوتية في الهواء، فالاستجابة عن طريق الكلام يمكن أن تحدث في جسم أي شخص يسمع
الكلام (8).

وأخيرا يقرر بلومفيلد أن الشخص العادي لا يهتم إلا بالمثير العملي (م) والاستجابة العملية (س)، إذ على الرغم من أنه يستعمل الكلام، فإنه لا يعيره أي اهتمام، فقول كلمة "تفاحة" أو سماعها لا يشبع جوع الإنسان، وإنما يمثل بالإضافة إلى بقية الكلام وسيلة فحسب للحصول على المساعدة من الآخرين. ولكننا نحن طلاب اللغة نهتم على وجه الدقة بالحدث الكلامي (م/.........س/)، الذي هو عديم القيمة في ذاته، ولكنه وسيلة لغايات عظمى، فنميز بين اللغة موضوع دراستنا والحوادث الواقعية أو العملية، أي المثيرات والاستجابات. وربما يكون نطق الكلام أو الحدث الكلامي تافها ولا أهمية له، ولكن عندما يتبين لنا أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بأشياء مهمة، فإننا نقول إن له معنى برغم كل شيء، أي إنه يعني هذه الأشياء المهمة، ويتكون المعنى من الأشياء المهمة التي يرتبط بها نطق الكلام (ب) أعني الحوادث العملية (أ) و (جـ)، وهي الحوادث السابقة للكلام والتالية له. (9)

إذا كان بلومفيلد يدرس اللغة على هذا النحو، ويتناول الحدث الكلامي بوصفه سلوكا يخضع للملاحظة والتنبؤ والتفسير، فليس بدعا أن يرفض طريقة المذهب العقلي باعتباره يستند إلى مبادئ وأفكار غير علمية ولا تنتمي إلى مجال الحقائق اللغوية في رأيه.

على أن هذا التصور السلوكي لدراسة اللغة عند بلومفيلد يتركنا مع أسئلة كثيرة لا تجيب عنها النظرية السلوكية. فماذا نفعل بالأقوال التي لا تأتي استجابة لمثير خارجي أو داخلي؟ إن إيمان بلومفيلد بالنزعة العلمية التي اقتسمها مع الوضعيين المنطقيين دفعه إلى القول بأن تحديد معاني الكلمات تحديدا دقيقا يستلزم وصفا علميا للأشياء والحالات التي تدل عليها الكلمات أو تمثلها. وإذا كان هذا الأمر يسيرا في بعض الجوانب في العلوم الطبيعية، فماذا نحن فاعلون بالكلمات التي لا ترتبط بالواقع المادي. إن الكثرة الغالبة من كلمات اللغة لا تكون كلمات شيئية مثل باب وكرسي ، ولا تكون كلمات يمكن تحليلها في حدود فيزيائية مادية مثل جوع ورؤية وتفاحة في مثال بلومفيلد. إن اللغة تنطوي على كلمات كثيرة مجردة مثل شجاعة وحب وفضيلة وغيرها. وكلمات بنائية مثل "إما ... أو " و" واو العطف" وغيرها. ولا تقدم النظرية السلوكية شيئا لتحليل معاني هذه الكلمات أو كيفية تعلمها.

لقد طور أتباع بلومفيلد نظريته ومضوا بها إلى أبعد نتائجها، ومن أبرز هذه النتائج نجد "علم السلوك اللفظي" كما اقترحه سكنر في كتاب السلوك اللفظي. والسلوك اللغوي في رأي سكنر، شأنه في ذلك شأن أي سلوك آخر، يمكن تحليله تبعا لمفهوم ضبط المثير الذي يتضمن ثلاثة عوامل مشهورة في التقليد السلوكي هي المثير والاستجابة والتدعيم.

إن المشكلة التي انصب عليها كتاب سكنر السلوك اللفظي هي تقديم تحليل وظيفي functional analysis للسلوك اللفظي. والمراد بالسلوك اللفظي هو تحديد المتغيرات التي تحكم هذا السلوك، وتعيين كيفية تفاعلها بغية تحديد استجابة لفظية معينة. زد على ذلك أن المتغيرات الحاكمة يتعين وصفها كاملا في حدود أفكار من قبيل المثير stimulus والتدعيم reinforcement والحرمان deprivation، والتي اكتسبت معنى واضحا بصورة معقولة في التجربة على الحيوان. وإن شئت أن تضع ذلك بعبارة أخرى قل إن الهدف الذي كان سكنر يروم إليه من وراء كتابه هو تقديم طريقة للتنبؤ بالسلوك اللفظي والتحكم فيه عن طريق ملاحظة البيئة الطبيعية للمتكلم ومعالجتها (10).

ومن الواضح أن الإطار العام لتوجه سكنر هو التعامل مع البيئة المحيطة بالمتكلم، ولاحظ هنا أنه يركز على المتكلم، وبالتالي فإن البحث عن قواعد اللغة لا يقع من كتابه عند حجر الأساس . زد على ذلك أنه لا يرى فارقا جوهريا بين السلوك الإنساني والسلوك الحيواني. صحيح أن دراسة السلوك الإنساني موضوع صعب، "ولكن التقدم الحديث في تحليل السلوك يجيز لنا الدخول فيه بتفاؤل معين ... والعمليات والعلاقات الأساسية التي تعطي السلوك اللفظي سماته الخاصة مفهومه الآن فهما جيدا إلى حد ما، وكثير من الأعمال التجريبية وراء هذا التقدم عند الأجناس الأخرى. ولقد تبين أن النتائج متحررة بصورة مدهشة من تقييدات النوع. وكشف العلم الحديث أن المناهج يمكن مدها إلى السلوك الإنساني من غير تعديلات خطيرة".(11)

ويقوم التدعيم بدور أساسي في عملية التعلم، فالمتكلم يتلقى المثير، ثم يستجيب له، فإذا تدعمت الاستجابة، أدى ذلك إلى زيادة الاستجابات التالية. وإذا انقطع التدعيم أدي ذلك إلى نقصان

الاستجابات التالية. على سبيل المثال، إن الفأر الجائع في صندوق سكنر أو غرفة التجارب سيزيد من عدد مرات الضغط على الرافعة إذا كان ينتج عنها زيادة في كرات الطعام. وسوف يقل عدد مرات الضغط على الرافعة إذا كانت نتيجة الضغط هي الصدمات الكهربائية. وجملة القول في طريقة سكنر إنه ينظر إلى اللغة على أنها عادة اجتماعية يتعلمها الإنسان بالطريقة التي يتعلم بها العادات الاجتماعية الأخرى. وبالتالي فإن الاستناد إلى السلوك القابل للملاحظة والاعتماد على العوامل الخارجية وحدها كفيل بأن يفسر لنا اكتساب السلوك اللفظي.

ولكن تشومسكي رفض المبادئ الأساسية للسلوكية لأنها عاجزة عن أن تقدم لنا تفسيرا مقنعا لتعلم اللغة واستعمالاتها. فالاستجابات اللغوية لا تخضع كلية لسيطرة المؤثرات الخارجية، ذلك أننا نستعمل اللغة للتعبير عن الفكر في المقام الأول، والاستعمالات اللغوية لا حصر لها. والخطأ الذي وقعت فيه السلوكية هو الانبهار بنجاح التجارب التي أجريت على الحيوان وتوسيع مجالها بحيث تنطبق على الإنسان. والشيء الذي غاب عن أنصارها أن اللغة الإنسانية ليست نمطا من العادات يمكن أن يشترك فيه الإنسان والحيوان، وإنما هي خصيصة إنسانية فريدة.

ويرى تشومسكي أن الدراسة الدقيقة لكتاب سكنر المشار إليه تظهر أن الدعاوي السلوكية ليس لها نصيب من التسويغ والقبول. وتظهر بالإضافة إلى ذلك أن الاستبصارات التي تم التوصل إليها في معامل صاحب نظرية التعلم، وإن كانت حقيقية تماما، لا يمكن تطبيقها على السلوك الإنساني المعقد إلا بطريقة سطحية للغاية، وأن المحاولات النظرية لمناقشة السلوك اللغوي في هذه الحدود وحدها تسقط من الاعتبار عوامل ذات أهمية أساسية، والتي يمكن دراساتها، بلا شك، دراسة علمية مع أنه يتعذر في الوقت الحالي صياغة سمتها المحددة على وجه الدقة. ولما كان عمل سكنر هو المحاولة الأكثر شمولا لاستيعاب السلوك الإنساني المتضمن لملكات عقلية عالية داخل خطة سلوكية محكمة من النوع الذي جذب عددا من اللغويين والفلاسفة إلى جانب علماء النفس، فإن بيان إخفاق هذه المحاولة يصلح كنوع لقياس أهمية العوامل التي أسقطت من الحسبان، كما أن إخفاقها يكشف أيضا عن مدى ضآلة معرفتنا الفعلية عن الظاهرة اللغوية المعقدة. (12)

ويوضح تشومسكي أن استعمال سكنر لمصطلحات المثير والاستجابة والتدعيم وغيرها استعمال فضفاض إلى درجة أن هذه المصطلحات لا تضيف شيئا إلى تفسير اكتساب اللغة. فتعريف سكنر للسلوك اللفظي بأنه السلوك الذي يتدعم عن طريق الآخرين هو تعريف واسع تدخل فيه أشياء لا ترتبط بعملية اكتساب اللغة مثل تنظيم الطفل لحجرته. ولا تزيد المصطلحات السلوكية في رأي تشومسكي على أن تكون تقليدا سطحيا للمصطلحات العلمية في العلوم الطبيعية. "إن علم اللغة الحديث يشارك في الوهم – وأعتقد أن الكلمة دقيقة – القائل إن "العلوم السلوكية" الحديثة قد أنجزت في جانب أساسي ما تحولا من النظر speculation إلى العلم، وأن العمل السابق يمكن أن نتركه كاملا لدارسي الآثار. ومن الواضح أن أي شخص عاقل سوف يؤيد التحليل الدقيق والتجربة الحذرة، ولكنني أشعر بدرجة كبيرة أن العلوم السلوكية هي مجرد تقليد للملامح السطحية في العلوم الطبيعية، وأن جانبا كبيرا من سمتها العلمية قد أنجز بواسطة تضييق مادة الموضوع والتركيز على مسائل سطحية بعض الشيء. ويمكن تسويغ هذا التضييق لمركز البحث إذا أدى

إنجازات ذات أهمية فكرية حقيقية، ولكن في هذه الحالة أظن أنه من الصعب تماما إثبات أن تضييق المجال قد أدى إلى نتائج عميقة وذات أهمية".(13)

ولقد رأى ليونز أن هذا الهجوم شبيه تماما بما كتبه تشومسكي من مقالات وكتب سياسية متحديا بها علماء النفس والاجتماع وغيرهم من العلماء الذين تسعى الحكومات وراء نصائحهم وخبراتهم وهم في الحقيقة ليسوا بعلماء وإنما هم يحاكون يائسين المظاهر السطحية للعلوم فقط دون حقيقتها ذات المحتوى الفكري والعقلي. ويرى تشومسكي أن الإنسان يختلف عن الحيوان والآلة، ولابد من أن يؤخذ هذا الاختلاف بعين الاعتبار سواء في العلم أو الحكم أو السياسة. وهذا الرأي هو الذي يكمن خلف فلسفته اللغوية والسياسية ويوحد بينهما، وهو الذي يطبع فلسفته بطابع إنساني أو قل يجعلها فلسفة إنسانية (14).

3- أهداف النظرية اللغوية

إن المتأمل في كتاب تشومسكي البنى التركيبية، يجد أنه أراد أن يحقق من ورائه هدفين أساسيين هما: أولا، تقديم نموذج جديد للنحو. ثانيا، مناقشة طبيعة النظرية اللغوية وأهدافها.

ولقد تبين لنا أن بلومفيلد غض الطرف عن دراسة الجانب الدلالي في اللغة، لأن المعرفة الدقيقة للمعنى في رأيه تتطلب علما دقيقا بكل ما يحيط بالمجتمع الكلامي، وهذا العلم لم تبلغه المعرفة الإنسانية بعد. ومضى تلاميذ بلومفيلد وأتباعه في دراسة اللغة إلى أبعد مما ذهب إليه، ووضعوا أصول التحليل الفونولوجي والنحوي في قوالب صورية خالصة من غير إشارة إلى الجانب الدلالي، وبلغ هذا الأمر غايته في كتابات زيلج هاريس وخاصة كتاب مناهج في علم اللغة البنيوي سنة 1951.

كان الهدف الأساسي لعلم اللغة قبل أن ينشر تشومسكي كتاب البنى التركيبية سنة 1957 هو تصنيف عناصر اللغات البشرية، ولذلك قيل إن علم اللغة هو علم تصنيفي taxonomic. وفي علم اللغة التصنيفي يقوم عالم اللغة بجمع معطياته من لغة معينة، ثم يصنف هذه المعطيات إلى مستوياتها المختلفة، فيبدأ بالأصوات اللغوية، ثم ينتقل إلى الوحدات الصوتية، وبعد ذلك تأتي الكلمات، ثم الجمل وأخيرا أنواع الجمل.

وقدم علم اللغة التصنيفي عملية التحليل النحوي بوصفها عملية مماثلة لفهرسة المكتبة. فأجزاء المنطوقات عند عالم اللغة، المدونة بصورة ملائمة، تناظر مجموعة الكتابات والمطبوعات عند أمين المكتبة، وتناظر عناصر مجموعة أمين المكتبة وهي الكتب والمجلات والدوريات والرسائل والصحف وهلم جرا، الأصوات الكلامية phones عند عالم اللغة، وهي أصغر أجزاء من المنطوقات التي تمثل أصوات الكلام القابلة للتمييز في اللغة. وفي حالة تصنيف المكتبة وحالة النحو التصنيفي على حد سواء، يتقدم التصنيف عن طريق تكوين فئات تعنون بشكل ملائم وعلى مستوى أعلى بصورة متوالية. وفي التحليل النحوي يتم تمييز الأصوات الكلامية عند أدنى مستوى، ثم تجمع بعد ذلك في فئات من الفونيم (وحدة صوتية مميزة) (15) ،phoneme) ثم

تصنف الامتدادات الفونيمية في المنطوقات إلى فئات مورفيمية morphemic. (16) وبعد ذلك تصنف فئات الكلمة إلى فصائل نظمية أعلى: من اسم، وفعل، وحرف جر، وأداة، وظرف، إلخ، ومن أنواع متباينة من العبارة وشبه الجملة، وأخيرا من نوع أو آخر للجملة (مثل جملة بسيطة، مركبة، إخبارية، استفهامية، طلبية بالأمر والنهي). وهذه الطبقات من الفئات ليست مختلفة اختلافا أساسيا عن عملية التصنيف الطبقي للكتب والمجلات، إلخ، إلى خيال ولا خيال، وخاصة بالبالغين وخاصة بالصبية وغير ذلك، ثم فصائل فرعية من قبيل خيال علمي ومغامرة، وغير ذلك، وعلم، وتاريخ، وفن وهلم جرا، ثم إلى مجموعات ضيقة مثل الرياضيات والفيزياء، والكيمياء، إلخ... وبعد ذلك يمتد التصنيف حتى المكافئ الببليوغرافي للأصوات الكلامية، أي الطبعات المختلفة من الكتاب الواحد. ولكن على الرغم من اختلاف التعبيرات الاصطلاحية والفصائل في عملية التحليل النحوي وفهرسة المكتبة، فإن صورة التصنيف واحدة (17).

ويعتبر تشومسكي أن علم اللغة التصنيفي علم تجريبي نظرا لافتراضه أن النظرية اللغوية العامة تتألف فقط من مجموعة من الإجراءات لتحديد نحو لغة من عينة من المعطيات اللغوية (18). ويرى أن علم اللغة التصنيفي يتبنى وجهة النظر القائلة إن "البنية التركيبية syntactic structure يتم تحديدها على وجه الحصر عن طريق عمليات التقطيع (تجزئة الكلام) segmentations والتصنيف classification" (19).

ويمكن أن نلمس الجذور التاريخية للنحو التوليدي في التقليد البنيوي structuralist tradition في علم اللغة. إذ يقتسم التوليديون والبنيويون الفكرة القائلة إن نحو اللغة هو تقرير عن العلاقات المتبادلة النسقية القائمة بين العناصر اللغوية. وبهذه الصورة فإن النحو التوليدي وعلم اللغة البنيوي يوضعان معا في تقابل مع الطرق التي تأخذ بوجهة النظر التاريخية أو الإنسانية أو الاجتماعية أو الوظيفية في اللغة، وفي الحالة الأخيرة، على الأقل مع أولئك الذين ينظرون إلى التحليل الوظيفي على أنه يجعل التحليل البنيوي زائدا عن الحاجة. وبالفعل فإن التمييز بين القدرة competence والأداء performance عند تشومسكي هو بطريقة أو بأخرى إعادة تفسير للتمييز الكلاسيكي عند سوسير بين اللغة langue والكلام parole (20).

ويدين النحو التوليدي بدين كبير لصورة من علم اللغة البنيوي كانت شائعة في أمريكا وسميت باسم البنيوية بعد البلومفيلدية post-bloomfieldian structuralism، بالإضافة إلى دينه العظيم للنزعة العقلية في الفلسفة وبخاصة في القرن السابع عشر الذي يؤكد تشومسكي على أنه قرن العبقرية . وكان زيلج هاريس Zellig Harris واحدا من رواد البنيوية بعد البلومفيلدية وتتلمذ تشومسكي على يديه في جامعة بنسلفانيا، وتأثر بأفكاره تأثرا كبيرا وبخاصة في كتاباته الأولى مثل مقال "نظم التحليل النحوي". ومن بين الأفكار الأساسية التي ورثها تشومسكي عن هاريس وغيره من البنيويين الفكرة القائلة إن علم اللغة يماثل العلوم الطبيعية، وبالتالي فإن التحليل اللغوي يجب أن يقدم تقريرا علميا عن اللغة، وهذا التقرير العلمي يتطلب صياغة التحليل اللغوي في حدود صورية.

ورغم أن تشومسكي في كتاب البنى التركيبية اختلف مع أستاذه هاريس وأتباع بلومفيلد، فإنه ظل على إيمانه بأنه يمكن – بل ينبغي – دراسة فونولوجيا phonology (دراسة النظام الصوتي) أي لغة ونحوها بطريقة صورية خالصة دون الرجوع إلى النواحي الدلالية، لأنه كان يرى أن اللغة وسيلة للتعبير عن المعنى. ومن الممكن، بل ومن المرغوب فيه، وصف هذه الوسيلة ودراستها دون الاعتماد على الوظيفة التي تؤديها، والدلالة جزء من وظيفة اللغة (21).

ومهما يكن تأثر تشومسكي بأسلافه في المدرسة البنيوية بعد البلومفيلدية، وتشابه بعض أفكاره اللغوية مع أفكار هذه المدرسة، فإن تشومسكي قد شق لنفسه طريقا مستقلا، وأحدث كتابه البنى التركيبية اختلافا جوهريا بين نظريته والنظريات السابقة عليه والمعاصرة له، الأمر الذي دفع أنصاره وغيرهم من الباحثين في علم اللغة إلى القول بأنه أحدث "ثورة" في هذا العلم. ولكن ما المراد بالثورة في العلم؟ إذا رجعنا إلى توماس كون، وجدنا أن الذي يعنيه بالثورة العلمية هو سلسلة من الأحداث يحل فيها نموذج paradigm جديد كليا أو جزئيا، محل نموذج قديم. وتبدأ الثورة العلمية بتزايد الإحساس، داخل فئة محدودة من المجتمع العلمي، بأن أحد النماذج القائمة قد كف عن أداء دوره بصورة كافية (22).

وإذا شئنا أن نفهم المغزى الثوري لنموذج النحو التوليدي فهما حسنا، فلا بد من أن نقارنه بالنموذج البنيوي لندرك أوجه التعارض بينهما. ويتجلى الاختلاف الجذري بين النموذجين في محاولة تشومسكي لإعادة النظر في أهداف النظرية اللغوية، وترتب على ذلك اقتراح تصور جديد يوجه النظرية اللغوية. إن أهداف النموذج التوليدي ومناهجه تختلف عن أهداف النموذج البنيوي ومناهجه. ولقد حدد البنيويون هدفا متواضعا للنظرية اللغوية تمثل في الدراسة التصنيفية أو الوصفية للغة، والتي رأت أن مهمة علماء اللغة هي جمع مجموعة كبيرة من العينات المنطوقة وتصنيف مادتها. وينطلقون من النظام الصوتي ثم يأسسون التركيب شيئا فشيئا، ويتعاملون مع الجمل التي ينتجها المتكلمون الأصليون للغة، ومنهجهم في هذا العمل هو المنهج الاستقرائي. أما النموذج التوليدي قد رأى أن الهدف الملائم للنظرية اللغوية هو المعرفة التي يملكها المتكلمون الأصليون، والتي تمكنهم من إنتاج الجمل وفهمها. ويسمي تشومسكي هذه المعرفة باسم القدرة اللغوية linguistic competence، وكثيرا ما يستعمل مصطلح "القدرة" فقط. وذهب تشومسكي أيضا إلى أن الجمل النحوية (أي الجمل الصحيحة نحويا) grammatical في اللغة لا يمكن مطابقتها بأية عينة من المنطوقات التي يحصل عليها اللغوي في عمله الميداني(23). ولذلك رأى تشومسكي أن تركيز النموذج البنيوي على جمع المعطيات اللغوية وتصنيفها لا طائل تحته ولا غناء فيه.

ويميز تشومسكي بين القدرة و الأداء. واصطناع هذا التمييز يعد أمرا أساسيا بالنسبة للنظرية التوليدية. ويدل مصطلح القدرة على معرفة المتكلم غير الواعية بلغته، أما الأداء فإنه يشير إلى استعمال المتكلم لهذه المعرفة في عملية الكلام. وبالتالي فإن القدرة معرفة ضمنية أما الأداء فهو ممارسة فعلية. يقول تشومسكي في كتاب اللغة والعقل: "يشير مصطلح (القدرة) إلى مقدرة المتكلم - المستمع المثالي على ربط الأصوات والمعاني ربطا دقيقا وفقا لقواعد لغته" (24).

والقدرة هي معرفة اللغة التي يكتسبها المتكلم والمستمع وهي "نظام من القواعد أدمجه في نفسه، ويحدد العلاقة بين الصوت والمعنى بالنسبة لجمل كثيرة كثرة لا حد لها. وبطبيعة الحال فإن الشخص الذي يعرف لغة معرفة جيدة يملك معرفة ضئيلة أو غير واعية بالقواعد التي يستعملها باستمرار في الكلام أو الاستماع، والكتابة أو القراءة، أو الحوار الداخلي" (25). وتعبير تشومسكي "أدمجه في نفسه" يدل على أن القدرة معرفة مكتسبة. وذلك على خلاف المعرفة الفطرية التي يرى أن الطفل يولد وهو مزود بها. وسوف نوضح التمييز بينهما بعد حين.

والنحو التوليدي للغة معينة هو وصف عالم اللغة للقواعد التي يعرفها المتكلمون لهذه اللغة معرفة غير واعية، وبعبارة تشومسكي: "وصف المعرفة الضمنية أو الجوهرية، أو القدرة التي تشكل أساس الأداء الفعلي" (26). ويقول عن الأداء: "إن أداء المتكلم أو المستمع هو مسألة معقدة تتضمن عوامل كثيرة. وهناك عامل أساسي متضمن في أداء المتكلم - المستمع هو معرفته بالنحو التي تحدد علاقة جوهرية للصوت والمعنى بالنسبة لكل جملة. ونحن نشير إلى هذه المعرفة ، وفي أغلب الأحوال معرفة غير واعية ، على أنها قدرة المتكلم - المستمع. والقدرة بهذا المعنى يجب ألا تختلط بالأداء. فالأداء يعني ما يفعله المتكلم - المستمع بالفعل، ولا يتأسس على معرفته باللغة فحسب، وإنما يتأسس على عوامل أخرى كثيرة أيضا (27).

ويترتب على التمييز بين القدرة اللغوية والأداء الكلامي نتيجة مؤداها أن الأداء الكلامي يأتي بمثابة انعكاس مباشر للقدرة اللغوية. بيد أن هذه النتيجة لا تتحقق إلا في مجتمع لغوي مثالي. وإن شئت أن تضع ذلك بعبارة أخرى قل إن الأداء لا يكون انعكاسا مباشرا للقدرة إلا في الظروف المثالية، أما في الواقع الفعلي فلا يحدث ذلك. لأن المتكلم في الأداء الفعلي يخطئ لأسباب كثيرة منها: الانفعال والغضب والنسيان والإرهاق البدني، والغفلة، والشرود الذهني.

ويؤكد تشومسكي على هذه النقطة بقوله : "من الواضح أن الاستعمال الفعلي الملحوظ للغة - أي الأداء الفعلي - لا يعكس ببساطة العلاقات الحقيقية بين الصوت والمعنى والتي تأسست عن طريق نظام من القواعد اللغوية. فالأداء يتضمن عوامل كثيرة أيضا. فنحن لا نفسر ما يقال في حضورنا ببساطة عن طريق تطبيق المبادئ اللغوية التي تحدد الخصائص الصوتية والدلالية للمنطوق. فالاعتقادات التي تخرج عن نطاق اللغة والمتعلقة بالمتكلم والموقف تقوم بدور أساسي في كيفية إنتاج الكلام وتحديده وفهمه. زد على ذلك أن الأداء اللغوي تحكمه مبادئ البنية الإدراكية (على سبيل المثال قصور الذاكرة) والتي ليست - والكلام بصورة ملائمة - من جوانب اللغة " (28).

وتمييز تشومسكي بين القدرة و الأداء يشبه تمييز دي سوسير بين اللغة la langue والكلام la parole. ولكن هناك اختلافات بين طريقة تشومسكي وطريقة دي سوسير، ذلك أن منهج الأخير في معالجة اللغة كان يعتمد على تقسيم اللغة إلى قطع segments وفصائل categories. واستخدم عينات الكلام بوصفها المصدر المادي، وقسم مجرى الكلام إلى وحدات ذات معنى هي الفونيمات والعلامات. وبالتالي حاول التوصل إلى اللغة عن طريق فحص أمثلة "الكلام". أما

تشومسكي فيبدأ باللغة أولا ونظامها التحتي، ويعرف القدرة في حدود القواعد التي يتبعها المتكلم الأصلي في إنتاج الجمل وفهمها (29).

وأنت ترى إذن أن نقطة البداية في النموذج التوليدي ليست اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية، وإنما القدرة الإبداعية creativity عند أي مستعمل للغة، وهي قدرته على إنتاج وفهم عدد لانهائي من الجمل التي لم يسمعها ولم ينطق بها من قبل. ويرى تشومسكي أن النظرية اللغوية لابد من أن تعكس هذه القدرة، ويتعين على عالم اللغة أن يصوغ القواعد أو المبادئ التي تمكن المتكلم الأصلي من إنتاج هذا العدد اللامتناهي من الجمل وفهمه. ولذلك يصف النحو على أنه "جهاز من نوع ما لإنتاج الجمل في اللغة الخاضعة للتحليل".(30)

على أن استعمال تشومسكي لكلمات مثل "جهاز" و "إنتاج" في تعريفه للنحو قد أوقع كثيرا من القراء في خلط ولبس شديد، وذلك عندما ظنوا أن الرجل ينظر إلى قواعد اللغة وكأنها آلة إلكترونية أو ميكانيكية تدير المتكلم عندما ينطق بجملة من الجمل في لغة ما. والشيء الجدير بالإشارة أن تشومسكي استعمل هذين المصطلحين لأنه كان ينشد الدقة الرياضية التي حاول أن يضفيها على تصوره لقواعد اللغة. زد على ذلك أنه استعمل هذين المصطلحين بصورة تجريبية خالصة دون الإشارة إلى أية خصائص طبيعية لأي نموذج آلي حقيقي يمكن أن يتجسد فيه مصطلح مثل كلمة "جهاز".(31) ونحن نوافق ليونز على تعليله لاستعمال جهاز وإنتاج، ونضيف إليه أن الجو الفكري الذي بدأ فيه تشومسكي عمله الأكاديمي ترك في تفكيره اللغوي بالغ الأثر، وهذا الجو هو ملازمة المختبر الإلكتروني في معهد مساتشوستس الذي عمل فيه في وظيفة باحث في بداية الأمر، ثم عين فيه مدرسا عام 1955.

ولقد أعطى تشومسكي لحدس intuition المتكلم الأصلي دورا في تمييز أنواع الجمل وإصدار الأحكام عليها، مثل القول إن الجملة مقبولة أو غامضة. وعندما يقول أحد الوصفيين عن سلسلة معينة من الكلمات إنها جملة إنجليزية، ويجب بالتالي أن تعالجها القواعد الإنجليزية، فإنه يريد أن يقول بصورة عامة: " أعتقد أني صادفت قضايا من هذا النوع نطق بها بعض المتحدثين بالإنجليزية، وإن كان لدى أحدكم شك في هذا، فأنا على استعداد للبحث عن برهان وثائقي أدعم به ادعائي". أما عندما يقول أحد أتباع تشومسكي عن سلسلة معينة في اللغة الإنجليزية إنها سليمة نحويا، فإنه يعني بصورة عامة: "هذه الجملة تبدو لي سليمة باعتباري أحد الناطقين بالإنجليزية، وليس هناك في الواقع أي احتمال للجدل لأن حدسي هو مصدر السلطة على الأقل بالنسبة للهجتي الإنجليزية الخاصة التي أقوم بوصفها".(32)

4- النحو التوليدي: دلالة المصطلح

يستعمل تشومسكي مصطلح النحو grammar استعمالا واسعا يشمل التركيب syntax والفونولوجيا (دراسة النظام الصوتي) phonology وعلم الدلالة semantics. وأسلفنا الإشارة إلى أنه يعرف النحو على أنه جهاز من نوع معين لإنتاج الجمل في لغة معينة. وفي بعض الكتابات

يستخدم مصطلح النحو بشيء من الغموض، فمن ناحية يطلقه على النظرية التي يبنيها عالم اللغة ويقترحها باعتبارها وصفا لقدرة المتكلم، ومن ناحية أخرى يستخدمه للدلالة على هذه القدرة ذاتها. والاستعمال الأول أكثر ألفة من الثاني في كتابات تشومسكي وأتباعه.

أما مصطلح التوليد فقد استمد تشومسكي دلالته من دلالة المصطلح في الرياضيات، وأراد بذلك أن يقدم تحديدا صوريا دقيقا للقواعد النحوية. وكان هذا المصطلح قبل عام 1957 شائعا في كتب الرياضيات ولكنه بعد هذا العام أصبح أكثر شيوعا في كتب علم اللغة. ويمكن أن نوضح معنى المصطلح بمثال ، تأمل الصيغة الرياضية التالية :

5 س + ص – ع =

تجد أنها تنطوي على المتغيرات variables س، ص، ع، وهي هنا رموز لكميات غير محددة، وتحتوي أيضا على الثوابت constants وهي الرموز +، -. فإذا وضعنا قيما values بدلا من المتغيرات تولدت لدينا نتائج معينة. وإذا افترضنا مثلا أن:

س = 4 ، ص = 2، ع = 10

وطبقنا ذلك على الصيغة السابقة، كانت لدينا المعادلة التالية:

5 × 4 + 2 – 10 = 12

وكلما غيرنا القيم التي نضعها بدلا من المتغيرات نستطيع أن نولد نتائج جديدة. وبالمثل فإن القواعد النحوية تولد سلاسل من الكلمات التي تعد جملا نحوية صحيحة أو مقبولة، وبذلك يكون النحو التوليدي هو مجموعة من القواعد التي تولد عددا غير محدد من جمل اللغة وتربطها بالوصف النحوي الملائم.

5- نظرية تشومسكي عام 1957

بعد أن أوضحنا المراد بمصطلح النحو التوليدي نستطيع أن نقدم الآن بعض نماذج هذا النحو، والتي ظهرت في مؤلفات تشومسكي خلال تطور تفكيره اللغوي. ولعله من الأفضل أن نبدأ بالنموذج الذي قدمه في كتابه الأول البنى التركيبية 1957. ويتألف هذا النموذج من ثلاثة أجزاء هي :

1- قواعد بنية التعبير phrase structure rules(33)

2- القواعد التحويلية transformational rules

3- القواعد الصرفية الصوتية morphophonemic rules

ولقد وضع تشومسكي هذا النموذج بعد أن ناقش نموذج نحو الحالة المحدودة finite-state grammar. ويعتمد هذا النموذج الأخير على المبدأ القائل إن الجمل تولد عن طريق سلسلة من الاختيارات تبدأ من بداية الجملة حتى نهايتها. بعد اختيار العنصر الأول (أي الكلمة التي يمكن أن تبدأ بها الجملة، يأتي اختيار العنصر الثاني أو الكلمة الثانية مرتبطا بالاختيار الأول وهكذا حتى نصل إلى الكلمة الأخيرة في الجملة).

إذا أخذنا الجملة: هذا الطالب يحترم أستاذه، وجدنا أن توليدها بطريقة نحو الحالة المحدودة يتم بالطريقة التالية: اخترنا كلمة هذا من بين كلمات كثيرة يمكن أن تقع في صدر الجملة. وبعد ذلك جاء اختيار كلمة الطالب على أنها يجوز أن تقع بعد كلمة هذا، ثم كلمة يحترم وأخيرا كلمة أستاذه. ولكن ما الذي يحدث لو اخترنا كلمة "هذان" لنبدأ بها الجملة السابقة. في هذا الحالة سنجد أن الكلام انتقل من المفرد إلى المثنى، وبالتالي لابد من إجراء اختيارات أخرى تناسب التثنية فنقول: "هذان الطالبان يحترمان أستاذهما".

ولكن تشومسكي تخلى عن نموذج نحو الحالة المحدودة لأنه لا يلائم اللغة الطبيعية وإن كان يلائم اللغة الاصطناعية، وسر ذلك أن اللغات الطبيعية غير محدودة وتنتج عددا لا نهائيا من الجمل (34). وتوصل بعد ذلك إلى قواعد بنية العبارة، ورأى أنها أكثر ملائمة من نحو الحالة المحدودة مادامت تولد عددا لا حد له من الجمل. وتتألف قواعد بنية العبارة من قواعد إعادة الكتابة rewriting rules على النحو التالي:

1- الجملـــــــة التعبير الاسمي + التعبير الفعلي.

2- التعبير الاسمي أداة التعريف + الاسم.

3- التعبير الفعلي الفعل + التعبير الاسمى.

4- أداة التعريف الـ.

5- الاســــــم رجل، كرة، إلخ.

6- فعـــــــــل ضرب، أخذ، إلخ.

وبتطبيق القواعد السابقة على المثال المذكور نحصل على الشجرة التالية:

والشجرة هي إحدى التمثيلات الممكنة للوصف البنيوي للجملة وتحليلها إلى المكونات المباشرة، ويسمى هذا التمثيل أحيانا باسم علامة التعبير phrase marker. وكل نقطة تفريع node في الشجرة تمثل مكونا أو عنصرا . وقمة الشجرة تمثل المكون الأعلى (الجملة)، ونقاط التفريع النهائية هي الوحدات التركيبية البسيطة (المورفيمات، أي الوحدات الصرفية) (35).

واستنادا إلى هذه القواعد نستطيع أن نضرب أمثلة من اللغة العربية. إذا أخذنا الجملة:

محمد يقرأ الكتاب.

وجدنا أن تحليلها الشجري يأتي على النحو التالي:

الجملة

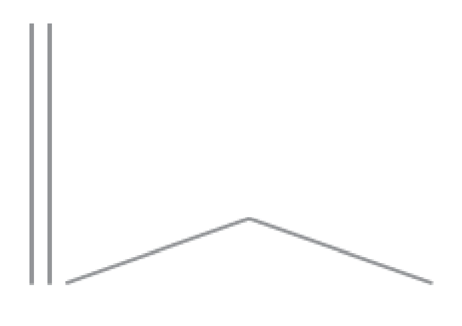
تعبير اسمي

تعبير فعلي

تعبير اسمي

اسم

فعل



أداة

اسم

محمد

يقرأ

الـ

كتاب

إن قواعد بنية العبارة أكثر قوة وفاعلية إذا قارناها بنموذج نحو الحالة المحددة. ولكن تشومسكي الذي ما انفك يُعدّل النماذج النحوية ويطورها، وجد أن هناك بعض الصعوبات تقف حجر عثرة أمام قواعد بنية العبارة مثل العلاقات الموجودة بين الجمل والتي هي عبارة عن إعادة صياغة كل جملة إلى أخرى مثل الجمل المبنية للمعلوم actives والجمل المبنية للمجهول passives، زد على ذلك أن قواعد بنية العبارة لا تستطيع أن تقدم وصفا لعمليات مثل القلب والاستبدال.

وفي محاولة لتجاوز هذه الصعوبات والوصول إلى نظام نحوي أكثر بساطة، أضاف تشومسكي نوعا آخر من القواعد أطلق عليه اسم القواعد التحويلية. وإذا أضفنا الجانب التحويلي إلى التوليدي، أدركنا السبب في تسمية نظرية تشومسكي اللغوية باسم النحو التوليدي التحويلي transformational – generative grammar . والاختلاف الأساسي بين قواعد بنية العبارة والقواعد التحويلية هو أن القواعد الأولى تعمل على عنصر واحد وقاعدة واحدة في كل مرة، فهي تتعامل مع العناصر أو الرموز المفردة مثل الاسم والفعل والحرف وأداة التعريف وهلم جرا، أما القواعد التحويلية فتعمل على سلاسل strings الرموز. والسلسلة مصطلح يدل على تتابع طولي لرموز أو عناصر مترابطة معا. وقد تتألف السلسلة من كلمة واحدة أو من عدة كلمات.

6- النظرية النموذجية

وما فتئ تشومسكي يطور نظريته النحوية السابقة حتى توصل إلى نموذج جديد في كتاب جوانب من نظرية التركيب aspects of theory of syntax 1965. ونموذج النحو المقدم في هذا الكتاب يشار إليه عادة بالنظرية النموذجية standard theory وتختلف النظرية النموذجية عن النظرية السابقة التي قدمها في كتاب البنى التركيبية في عدة جوانب أبرزها إضافة الجانب الدلالي. وتتألف النظرية النموذجية من ثلاثة مكونات هي (36):

المكون التركيبي syntactic component

المكون الدلالي semantic component

المكون الفونولوجي phonalogical component

وإذا قارنا بين المكونات في النظريتين، وجدنا أن المكون التركيبي في النظرية النموذجية أكثر تعقيدا من النظرية السابقة، ذلك أنه ينقسم إلى أساس يتضمن قواعد بنية العبارة والمعجم lexicon (قائمة بالمورفيمات والكلمات)، والمكون التحويلي transformational component ولا تزال القواعد الصوتية الصرفية موجودة في المكون الفونولوجي، وتتأثر أيضا بالمكون التركيبي، أما المكون الدلالي فهو عنصر جديد في النظرية النموذجية، ويتألف من قواعد تتعلق بالتفسير الدلالي لمعاني الجمل.

الاختلاف الأساسي إذن بين النظرية الأولى والنظرية الثانية يقع في جانب الدلالة. لقد نظر تشومسكي في إمكانية أن نأخذ في الحسبان فهم المتكلم الأصلي للمعاني الغامضة باعتباره إشارة إلى أن القواعد النحوية تقوم على اعتبارات دلالية. ولكنه اعترض على ذلك اعتراضا شديدا، وسوغ اعتراضه بعدم وجود علاقة بين قواعد النحو والدلالة. غير أنه اقتنع بعد ذلك بضرورة إدخال الجانب الدلالي في النظرية النحوية.

وعندما أدرك أتباع تشومسكي أن نظريته الأولى تفتقر إلى هذا الجانب الدلالي، اجتهدوا في طرح نظريات أخرى لسد هذا النقص في الفترة ما بين 1957و1965، وكان أبرزها النظرية الدلالية التي عرضها جيرولد كاتز وجيرى فودور في مقال بعنوان: "بنية النظرية الدلالية" 1963. وكان الهدف هو أن تقدم هذه النظرية تفسيرات دلالية للجمل المقبولة في اللغة، وأن تقدم أساسا للتمييز بين الجمل المترادفة والغامضة وغيرها (37).

وكانت الفكرة الأساسية الدافعة لهذه النظرية هي أن الاختلافات في التركيب لا تفسر بعض ملامح الجمل، وإنما الذي يفسرها هو معاني الكلمات في المعجم. فاللبس في الجملة the bill is large لا يرجع إلى التركيب، وإنما يرجع في المقام الأول إلى المعاني المعجمية لكلمة bill . وبالتالي رأى كاتز وفودور ضرورة إضافة الدلالة إلى التركيب، وأخذ تشومسكي هذا المكون الدلالي وأدمجه في النظرية النموذجية.

وإذا نظرنا إلى المكون التركيبي، وجدنا أن تشومسكي يقرر أنه بالنسبة لكل جملة لابد من أن يخصص هذا المكون بنية عميقة deep structure تحدد التفسير الدلالي للجملة، وبنية سطحية surface structure تحدد تفسيرها الصوتي. وتعمل التحويلات على البنية العميقة لتحولها إلى البنية السطحية. ويستعمل مصطلح البنية العميقة للإشارة إلى التمثيل العقلي المجرد الذي يكمن تحت المنطوق، وإن شئت قل إن البنية العميقة هي الصورة التحتية للجملة التي تحدد معناها. أما البنية السطحية فهي صورة الجملة التي تظهر بعد خضوع الجملة للتحويلات، والبنية السطحية تحدد الصورة المنطوقة أو المكتوبة للجملة.

نقول إن البنية العميقة تمثل الأساس للتفسير الدلالي للجملة وتحتوي على كل المعلومات الضرورية لفهم الجملة. فالجملة الغامضة مثل "زيارة الأقارب يمكن أن تكون شيئا مزعجا" (38). يوضح

غموضها بنيتها العميقة، ذلك أن المسند إليه إما أن يكون محولا من الجملة "أن يزورك الأقارب" أو الجملة "أن تزور الأقارب".

حاول أتباع تشومسكي تعديل نظرياته وتطويرها بإضافة بعض العناصر إليها أو تقديم بدائل لها. ومن أبرز صور التطوير النظرية التي عرفت باسم علم الدلالة التوليدي generative semantics ، ودافع عن هذه النظرية مجموعة من علماء اللغة أبرزهم: جورج لاكوف (1941-) وبول بوستال (1936-) وجون روس
(1938 -). وينظر علماء الدلالة التوليديون إلى المكون الدلالي للنحو على أنه الأساس التوليدي الذي تشتق منه البنية التركيبية. لقد أوضح تشومسكي أن النظرية البنيوية لم تفسر الجانب التركيبي في اللغة تفسيرا صحيحا. وما أشبه اليوم بالبارحة، فقد اعترض أنصار علم الدلالة التوليدي على نظرية تشومسكي بحجة أنها لا تفسر العلاقة الصحيحة بين علم الدلالة وعلم التركيب (39). ويرى علماء الدلالة التوليديون أن علم الدلالة، وليس علم التركيب، هو الذي يشكل المكون التوليدي للنظرية اللغوية، وأن النحو ينطلق من شرح معنى الجملة ثم يأخذ في توليد البنى التركيبية باستعمال القواعد التركيبية والمعجمية، ويصبح علم التركيب ببساطة مجموعة من القواعد التي تفيد في التعبير عن المعنى (40).

الخلاف الأساسي إذن بين علم الدلالة التوليدي ونظرية تشومسكي هو أن نظرية تشومسكي ذات أصول نحوية بينما علم الدلالة التوليدي له أصول دلالية. وهذا معناه أن نظرية تشومسكي تضع القدرة التوليدية للقواعد على المستوى النحوي، بينما يضع علم الدلالة التوليدي كل القدرة التوليدية للقواعد النحوية في القواعد الدلالية (41).

إن شيوخ البنيوية الذين هاجمهم تشومسكي في بداية الأمر ينظرون بفرح إلى هذه الثورة في الثورة، على حد تعبير سيرل، وما أشد سعادتهم وهم يرون خصومهم يختصمون فيما بينهم. ولكن البنيويين وغيرهم من التقليديين يخطئون أشد الخطأ لو اعتبروا أن هذه الخصومة تعزز موقفهم. ذلك أن النزاع يدور كلية داخل إطار النسق المفهومي الذي وضعه تشومسكي، وكائنا ما كان المنتصر، تبقى البنيوية القديمة هي الخاسرة (42). وينظر أحيانا إلى التعديلات التي تجري على النظرية التوليدية التحويلية على أنها تعبر عن مأزق يواجه ثبات النظرية أو عيب في أصولها. ولكن تشومسكي كثيرا ما يشجع أنصاره على هذا التطوير، ويعتبره ظاهرة تكشف عن حيوية العلم.

7- الأصول الفلسفية لنظرية تشومسكي اللغوية

إن الأفكار والنظريات التي طرحها تشومسكي تستند إلى أسس فلسفية عقلية،
ولا يضع تشومسكي تمييزا صارما بين الفلسفة والعلم، ويستشهد ببعض الفلاسفة الذين تعتمد أفكارهم على أصول علمية مثل ديكارت وهيوم، ويرى أن دراسة اللغة ترتبط ارتباطا وثيقا بدراسة الفكر إن لم تكن الدراستان دراسة واحدة. وبعد أن أثبت تشومسكي إخفاق المذهب

التجريبي والمذهب السلوكي اللذين ارتكز عليهما علم اللغة البنيوي، طفق يبحث عن مبادئ أخرى، ووجد ضالته في المذهب العقلي عند ديكارت وليبنتز ووليم فون همبولت وأصحاب منطق بور رويال، ومن نافلة القول أن نؤكد على أن هذه الأصول العقلية ترتد في التراث الغربي إلى أفلاطون على الأقل.

والأسئلة التي تواجهنا عند دراسة اللغة هي (43):

1- ماذا نعرف عندما نستطيع تكلم اللغة وفهمها؟

2- كيف تكتسب هذه المعرفة؟

3- كيف تستعمل؟

4- ما العمليات العضوية التي تدخل في تمثيل هذه المعرفة واكتسابها واستعمالها؟

إن الإجابة عن السؤال الأول تتطلب صياغة نظرية عن لغة تمكننا من وصف الكيفية التي تعين بها هذه اللغة التمثيلات العقلية المحددة لكل تعبير لغوي، أي صورته ومعناه، بالإضافة إلى صياغة نظرية عن النحو الكلي، صياغة نظرية عن المبادئ الثابتة التي تكوّن الملكة اللغوية الإنسانية. أما السؤال الثاني فهو حالة خاصة من مشكلة أفلاطون.

ويستهل تشومسكي كتاب معرفة اللغة بما سماه مشكلة أفلاطون ومؤداها كيف نصل إلى هذا القدر الكبير من المعرفة من أدلة محددة للغاية؟ والتي عبر عنها رسل بالسؤال التالي: كيف تأتى أن تكون الكائنات البشرية، رغم أن اتصالاتها بالعالم قصيرة وشخصية ومحددة، قادرة على أن تعرف هذا القدر الكبير الذي تعرفه فعلا؟ (44).

إن النفس عند أفلاطون كانت موجودة مع الله سبحانه وتعالى قبل أن تحل بالبدن، وعلى هذا التصور أقام نظريته في المعرفة التي تكشف عن بعض جوانبها العبارة القائلة: المعرفة تذكر والجهل نسيان. وبرهن سقراط على ذلك في محاورة مينون عندما أثبت أن مملوكا شابا استطاع أن يعرف مبادئ الحساب دون تدريب سابق عليها. وكان السؤال: كيف استطاع هذا الشاب أن يعرف ذلك؟ والجواب عند أفلاطون: أن هذه المعرفة كانت توجد بالقوة في ذهنه، وكل ما فعله سقراط هو أنه أيقظها. ولكن كيف نفسر إجابة أفلاطون تفسيرا عصريا؟ يرى تشومسكي أن بعض مظاهر معرفتنا وفهمنا خصائص فطرية، أي إنها جزء من إعدادنا الإحيائي المحدد بالوراثة (45). وهذا التصور بعيد عن الافتراضات التجريبية التي سيطرت على الفكر الغربي. والسؤال الرابع سؤال مستقبلي ولذلك سنغض الطرف عنه.

أما السؤال الثالث فينقسم إلى جانبين : جانب الإدراك وجانب الإنتاج. ويتعلق الإدراك بالكيفية التي نفسر بها ما نسمعه أو ما نقرأه، وسوف نغض النظر أيضا عن هذا الجانب، ويرتبط الإنتاج بما

نقوله وبالسبب الذي يجعلنا نقول ما نقوله . ويسمي تشومسكي هذا الجانب باسم مشكلة ديكارت. وتتمثل هذه المشكلة في فكرة الإبداعية التي تعد ظاهرة فريدة في اللغة البشرية.

ولقد ظهرت فكرة الإبداعية عند تشومسكي أول ما ظهرت في مقالة "القضايا الحالية في النظرية اللغوية" 1964: "إن الحقيقة الأساسية التي لابد من أن تنصب عليها أية نظرية لغوية مهمة هي هذه : يستطيع المتكلم الناضج أن ينتج جملة جديدة في لغته في المناسبة الملائمة، ويستطيع المتكلمون الآخرون فهمها مباشرة، مع أنها تكون جديدة بصورة متساوية بالنسبة لهم. والجانب الأعظم من خبرتنا اللغوية كمتكلمين ومستمعين، يكون مع الجمل الجديدة. وحالما نتمكن من اللغة، فإن فئة الجمل التي يمكن أن نعمل معها بطلاقة ومن غير صعوبة أو تردد تكون فئة ضخمة حتى بالنسبة لجميع أغراضنا العملية (وجميع أغراضنا النظرية)، ونستطيع أن نعتبرها لا متناهية... ومن الواضح أن أية نظرية في اللغة تتجاهل هذا الجانب الإبداعي في اللغة تكون ذات اهتمام هامشي فحسب(46).

وفي مواضع نادرة يماثل تشومسكي الإبداعية اللغوية بالإبداعية الجمالية كما هو الحال في كتاب علم اللغة الديكارتي: "يستمر الاهتمام بالجانب الإبداعي في استعمال اللغة خلال المرحلة الرومانسية... وإنها لخطوة قصيرة لربط الجانب الإبداعي في استعمال اللغة بالإبداعية الجمالية الحقيقية... وتشتق الخاصية الشعرية للغة العادية من استقلالها عن المثير المباشر... وتحررها من الأغراض العملية . وهذه السمات - بالإضافة إلى
لا نهائية اللغة بوصفها وسيلة للتعبير الذاتي الحر - هي التي أكد عليها ديكارت وأتباعه تأكيدا أساسيا" (47).

وليس المراد بالإبداع هنا الإبداع الجمالي أو الفني كما يتجلى في استعمال النوابغ من الكتّاب والأدباء، وإنما الإبداع الذي هو سمة للاستعمال اللغوي لدى الشخص العادي في الحياة اليومية، "أي قدرة كل الأشخاص الأسوياء على إنتاج كلام ملائم للموقف مع أنه قد يكون جديدا تماما، وفهمه عندما ينطقه الآخرون كذلك" (48).فالمتكلم الأصلي للغة يملك هذه القدرة على إنتاج عدد لا حصر له من الجمل الجديدة وفهمها ولم يسبق له أن سمعها أو تكلم بها. ويتواصل أبناء اللغة الواحدة أو الجماعة اللغوية المتجانسة تواصلا صحيحا من خلال هذه القدرة اللغوية.

وهذه السمة الإبداعية للغة البشرية ظهرت في إطار فلسفة العقل وبخاصة مشكلة العقول الأخرى. ولقد أسهم ديكارت في العلوم الطبيعية في أيامه بنظرية آلية في الكون تقول إن كل ما يحدث في الكون المحيط بنا يمكن تفسيره عن طريق التصورات الآلية، أي في إطار التفاعل بين الأجسام بصورة مباشرة . وحاول بواسطة هذه التصورات الآلية أن يفسر كل شيء ابتداء من حركة الأجسام السماوية وانتهاء بسلوك الحيوانات والجانب الأعظم من السلوك الإنساني. ولكنه وجد بعض الاستثناءات التي تقع خارج فكرة الآلية، وكان أبرزها على الإطلاق هو ما سماه تشومسكي باسم الجانب الإبداعي في استعمال اللغة creative aspect of language.

ويدرك الإنسان عن طريق التأمل أن له عقلا يختلف في خصائصه عن بقية الأجسام في العالم المادي، ولكن المشكلة هي : هل توجد عقول أخرى مثل عقولنا أم لا؟ رأى الديكارتيون أن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب منا أن نقوم ببرنامج تجريبي نرى من خلاله ما إذا كانت الكائنات الأخرى تتحلى بالخصائص المميزة للسلوك الإنساني أم لا. وكان المظهر الإبداعي الخلاق في استعمال اللغة أبرز أمثلة السلوك الإنساني(49) وهو - على حد تعبير تشومسكي - أفضل دليل على وجود العقول الأخرى (50).

ولقد وضع ديكارت بعض الملاحظات عن اللغة، اعتمد عليها تشومسكي في بناء نظريته اللغوية. يقول ديكارت : " إذا وجدت آلات لها أعضاء وصورة قرد أو صورة أي حيوان آخر غير ناطق، فإنه لن تكون لنا أية وسيلة لنعرف أنها ليست من نفس طبيعة هذه الحيوانات في كل شيء، في حين أنه لو أن منها ما له شبه بأجسامنا وكان يقلد من أعمالنا ما يمكن تقليده خلقيا، لكان لنا دائما طريقتان جد وثيقتين لمعرفة أنها ليست من أجل هذا بشرا على الحقيقة. أولى هاتين الوسيلتين هي أن هذه الآلات لن تقدر مطلقا على أن تستعمل الكلمات أو أية إشارات أخرى تؤلفها كما نفعل نحن لنصرح للآخرين بأفكارنا، ويمكن أن نتصور خير تصور أن آلة تصنع على هيئة مخصوصة بحيث تنطق بكلمات بل وأن تنطق ببعضها بمناسبة أعمال بدنية تسبب تغييرا في أعضائها، كأن تلمس في بعض المواضع فتسأل عما يراد أن يقال لها، وتلمس في موضع آخر فتصيح بأن ذلك يوجعها وما شابه ذلك، ولكن لا يمكن أن نتصور أنها تنوع تأليف الألفاظ لتجيب أجوبة مطابقة لكل ما يقال في حضرتها كما يستطيع أن يفعل أغبى الناس. وأما الثانية فهي أنه مع أنها تعمل أشياء كثيرة مثلما يعمل أي واحد منا بل قد تعمل خيرا مما يعمل، فإنها لابد أن تفشل في أعمال أخرى، منها ما يتبين أنها لا تعمل عن علم، ولكن بواسطة وضع أعضائها، وعلى حين أن العقل آلة عامة يمكن استخدامها في كل أنواع الطوارئ، فإن هذه الأعضاء في حاجة إلى وضع خاص لكل عمل على حدة... وبنفس هاتين الوسيلتين يستطيع المرء أن يعرف الفرق بين الإنسان والحيوان، لأنه مما يستحق الذكر أنه ليس من الناس الأغبياء والبلداء، حتى دون استثناء البلهاء منهم، من لا يقدرون على تأليف كلمات مختلفة، وأن يركبوا منها كلاما به يجعلون أفكارهم مفهومة، وعلى العكس فليس من حيوان آخر مهما كان كاملا ومهما نشأ نشأة سعيدة يستطيع أن يفعل ذلك... (ومن ثمّ) فإن معرفة الكلام لا تحتاج إلا إلى شيء من العقل جد قليل" (51).

وعلى هذا النحو أثبت ديكارت أن الإنسان يختلف عن بقية الكائنات والأشياء في العالم المادي، وأن الدليل الوحيد على أن كائنا آخر أو جسما آخر يملك عقلا مثل عقولنا هو قدرته على استعمال اللغة استعمالا إبداعيا، والنتيجة الطبيعية لذلك هي أن تكون اللغة خصيصة إنسانية فريدة تميز الإنسان من بقية الكائنات.

ويرى تشومسكي أن فكرة الجانب الإبداعي في استعمال اللغة تتضمن اللانهائية boundedness ، والجدة novelty ، والتحرر من تحكم المثير freedom from stimulus control، والاتساق والملاءمة للمواقف coherence and appropriateness to situations(52). والاستعمال العادي للغة ابتكاري innovative ،

بمعنى أن كثيرا مما نقوله أثناء الاستعمال العادي للغة يكون جديدا تمام الجدة، وليس تكرارا لأي شيء سمعناه من قبل، ولا حتى مماثلا في النمط - بأي معنى مفيد لكلمتي "مماثل" و "نمط" - للجمل أو الحديث الذي سمعناه في الماضي. وهذا الاستعمال لامتناهي بمعنى أن عدد الجمل التي يمكن للمرء أن يفهمها في لغته الأصلية هو عدد لا حد له ولا نهاية. وهذه حقيقة بديهية ولكنها مهمة، ولطالما أهملت في الفترة التي كتبت فيها السيطرة والغلبة للاتجاه السلوكي في علم اللغة (53).

إن التفسير التجريبي السلوكي لتعلم اللغة واستعمالها يفسر جدة الاستعمال عن طريق التمثيل analogy. ومؤدى هذه الفكرة أن الجمل الجديدة تنشأ من مواد قديمة سبق أن تعلمها الإنسان بمقتضى الاستبدال التمثيلي. فإذا تعلم الطفل عن طريق الإشراط الإجرائي كلمات مثل "ملعقة" و"كتاب" ثم تعلم تعبيرات من قبيل "ناولني الملعقة"، فإنه يستطيع أن ينطق بتعبير جديد مثل "ناولني الكتاب". وهذا معناه أن الإنسان يتعلم نمطا لغويا ويقيس عليه. ولنفترض أننا فهمنا جملا جديدة على أساس تشابهها مع جمل سمعناها وفهمناها من قبل . ولكن هذا جزء من المشكلة، وليس جزءا من الحل (54).

إن جمل اللغة وأنماطها لا حد لها وبالتالي فإن فكرة التمثيل رغم أنها صائبة، فإنها
لا تفسر بمفردها الإبداع اللغوي تفسيرا كافيا. زد على ذلك أن الاستعمال اللغوي العادي يتسم بأنه متحرر من تحكم المثيرات الداخلية والخارجية (55). وبسبب هذا التحرر ، يمكن أن تصلح اللغة وسيلة للتعبير عن الأفكار والمشاعر الذاتية، ويشترك في ذلك الإنسان الموهوب والشخص العادي. وتأتي الملاحظة الأخيرة لتؤكد أن الاستعمال العادي للغة متماسك وملائم للموقف الذي يستخدم فيه (56). ولكن ألا يمكن أن تقتسم بعض الكائنات الأخرى هذه القدرة الإبداعية للغة مع الإنسان؟

هناك اختلاف بين التجريبيين والعقليين في هذا الجانب. فالتجريبيون يرون أن هذه القدرة لا تميز الإنسان من الحيوان تمييزا جوهريا، ويستندون إلى تجارب العلم التي تجري على الشمبانزي، أما تشومسكي فيتابع الفلاسفة العقليين في توكيدهم على أن هذه القدرة الإبداعية خاصية تميز الإنسان من سائر خلق الله.

ويؤكد التجريبيون على أن الشمبانزي قد أظهرت قدرة، وإن كانت محدودة، على تركيب وحدات رمزية جديدة تماثل الجمل. وعندما فشلت المحاولات الأولى لتعليم الشمبانزي اللغة الإنسانية، ظن العلماء أن السبب في ذلك ربما يعود إلى جهاز النطق لدى الحيوان، وتغلبوا على ذلك عن طريق اللجوء إلى حيل أخرى. فلجأ ديفيد بريماك إلى قطع من البلاستيك كرموز تحل محل الكلمات مما ساعد الشمبانزي سارة على الكتابة على اللوحة الممغنطة، واستطاعت أن تتعلم ما يزيد على مائة علامة وأن تؤلف منها ما يشبه الجمل.

وجاءت القردة واشو التي تعلمت أكثر من مائة علامة من علامات لغة الصم والبكم أو ما يسمى بلغة الإشارة الأمريكية، واستطاعت أن تستخدم هذه الرموز بتلقائية، كما استطاعت تفسيرها عندما

تصدر عن سواها، ومن المدهش أنها استطاعت أيضا أن تكوّن سلسلة متعاقبة من هذه الرموز التي لم تصادفها. ومفاد هذا أن واشو قد أظهرت قدرة على بناء تراكيب جديدة، أو قل أظهرت جانبا من القدرة الإبداعية (57). فهل تمثل هذه المحاولات تفنيدا لرأي تشومسكي؟ يرد على ذلك من خلال التمييز بين اللغة البشرية وأنظمة العلامات الأخرى مثل الشفرة الإشارية أو رقص النحل ومناداة القردة، ويرى أن الخاصية الأولى في اللغة البشرية تدور حول لا نهائية التعبيرات المتميزة في وظيفتها، أما أنظمة العلامات الأخرى فهي محدودة للغاية.

إن القدرة الإبداعية أو الملكة اللغوية تعطي الإنسان قدرا عظيما من المزايا. ومن غير المحتمل أبدا أن يكون لدى بعض الكائنات الأخرى هذه الملكة نفسها، لكنها لم تفكر أبدا في استعمالها إلا بعد أن دربها الإنسان. واحتمال وجود هذه الحالة يشبه احتمال اكتشاف فصيلة من الطيور في جزيرة نائية في مقدورها أن تطير بشكل طبيعي ولكنها لم تفكر في الطيران إلا بعد أن دربها الإنسان. ورغم أن هذه الحالة ليست مستحيلة منطقيا، فإنه لو وجدت لكانت معجزة في عالم الأحياء (58).

ولعل الذي يجعل أفكار تشومسكي هنا أكثر قبولا من أفكار خصومه من التجريبيين أن اللغة الإنسانية التي تكتسب في أسوأ الظروف الاجتماعية، وفي أقل درجات الذكاء، تظل فوق قدرة الكائنات الأخرى وتفوق قدرة أي قرد مهما أوتي من ذكاء. وهي في ذلك تشبه قدرة العصافير على الطيران التي يستحيل أن تكون في مقدور البشر.

نحن نستعمل اللغة بطرائق شتى ولأغراض متباينة، ونملك القدرة على نطق الجمل وفهمها في لغتنا، لأننا نملك معرفة ضمنية tacit أو غير واعية unconscious بقواعد لغتنا. ويرى تشومسكي أننا عندما ننتج جملة في لغتنا أو نفهمها، فإننا نستعمل قواعد لغتنا في إنتاج الجملة أو فهمها، ويحدث ذلك بطبيعة الحال من غير أن ندرك أننا نفعل على هذا النحو (59). وأوضحنا أن مهمة النحو التوليدي للغة معينة هي وصف عالم اللغة للقواعد التي يعرفها المتكلمون لهذه اللغة معرفة ضمنية. ولكن الأطفال لا يولدون وهم يعرفون قواعد لغتهم، فكيف يتوصلون إلى معرفة هذه القواعد؟ وكيف يصل الأطفال إلى هذا الاستعمال الإبداعي الذي يمكنهم من إنتاج جمل صحيحة لم يسمعوها من قبل؟

إن النظرية التجريبية السلوكية في تعلم اللغة تؤكد على أفكار من قبيل المحاكاة والخبرة والتصحيح والقياس وغيرها. فالطفل يستمع إلى لغته من الوالدين والأقربين ويحاكيها، وإذا أخطأ تصحح له الأخطاء، وبذلك يتعلم قواعد اللغة. ولكن تشومسكي يرى أن معرفتنا اللغوية غير الواعية تتجاوز ما نسمعه ونحن أطفال على ركبة أمهاتنا. إذن هنالك فجوة بين الخبرة اللغوية والمعرفة اللغوية المكتسبة، وهذه الفجوة تسدها المعرفة اللغوية الفطرية innate linguistic knowledge التي يولد بها الأطفال (60). ويتعذر على النظرية التجريبية أن تسد الفجوة بين الحصيلة اللغوية الضئيلة التي تعلمها الطفل في مرحلة مبكرة وبين قدرته على بناء القواعد استنادا إلى هذه الحصيلة. ولذلك افترض تشومسكي أساسا فطريا لتعلم اللغة. وهنا يأتي موضع التمييز الذي أسلفنا

الإشارة إليه بين المعرفة اللغوية الفطرية والمعرفة غير الواعية بالقواعد اللغوية . فالمعرفة الأولى هي التي تساعدنا على تعلم الثانية؛ الأولى تدخل في باب المواهب والثانية تدخل في باب المكاسب.

ولكن يجوز للمرء أن يتساءل : إن القواعد اللغوية التي نعرفها معرفة ضمنية لا واعية هي قواعد لغات محددة، فهل المعرفة الفطرية التي يولد الطفل مزودا بها تخص لغة بعينها؟ الجواب عند تشومسكي: أن الأطفال يولدون مزودين بمعرفة حول اللغة البشرية بصفة عامة، وهو ما يطلق عليه اسم الكليات اللغوية linguistic universals. وعلى الرغم من أن اللغات تختلف فيما بينها اختلافات ظاهريا، فإن القواعد التحتية لجميع اللغات واحدة. يقول: إن الطفل "يولد مزودا بمعرفة تامة بالنحو الكلي" universal(61). وهكذا يتعين على عالم اللغة أن يقوم بمهمتين: الأولى هي وصف قدرة المتكلم وحصيلة هذا الوصف هو النحو الخاص بكل لغة. والثانية هي وصف المعرفة اللغوية الفطرية لدى المتكلم، أي وصف المبادئ المشتركة في جميع اللغات التي تشكل ما يسمى باسم النحو الكلي أو العالمي.

8- خاتمة

كان تشومسكي قد تساءل في مستهل كتاب اللغة والعقل: ما الإسهام الذي يمكن أن تقدمه دراسة اللغة لفهم الطبيعة البشرية؟. وحاول الإجابة عن هذا السؤال من خلال دراساته اللغوية والفلسفية، وارتكزت هذه الدراسات على مجموعة من الأفكار ارتبطت بفكرة أساسية هي فكرة الإبداعية اللغوية. ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن هذه الفكرة هي أكثر الأفكار تأثيرا في فلسفة اللغة عند تشومسكي؛ إذ استخدمها باعتبارها حجة لإثبات أن النوع البشري يختلف اختلافا جوهريا عن أي شيء آخر في العالم المادي. زد على ذلك أن فكرة الإبداعية هي التي كشفت عن نقائص النظرية التجريبية في دراسة اللغة وتعلمها، وهي أيضا الفكرة التي اقتضى تفسيرها أن يسلم تشومسكي بمفاهيم أخرى في نزعته العقلية مثل فرض الفطرية ومفهوم الكليات اللغوية أو النحو الكلي.

ولو لم يكن لتشومسكي سوى إسهامه في علم اللغة، لكان هذا وحده ما يكفي لتخليد اسمه كواحد من أبرز علماء اللغة، ولكنه أسس نظرياته اللغوية على مفاهيم فلسفية ونفسية الأمر الذي أضفى عليها طابعا خاصا.

وأعتقد أن تشومسكي كان على صواب في أن فهم الطبيعة البشرية عن طريق دراسة اللغة يتطلب مد جسور الصلة مع عدة فروع معرفية في طليعتها الفلسفة وعلم النفس، وبذلك أسهم فيما يسمى بالعلم الإدراكي. وها هو إير يؤكد على هذه الفكرة : "إن الرجل الذي فعل الشيء الكثير، إن لم يكن لتطوير علم صحيح وشامل للغة، فعلى الأقل لتزويد علم اللغة بأساس فلسفي هو تشومسكي" (62).

ومن المحاسن التي تنسب إلى نظرية تشومسكي في النحو التوليدي أنها نظرت إلى اللغة باعتبارها "ملكة لغوية" تميز النوع البشري. كان الهدف الأساسي عند علماء اللغة السابقين على تشومسكي هو وصف اللغة ودراستها دراسة علمية، ولكنه رأى أن علم اللغة يتعين عليه تحديد الخصائص

الأساسية للغة البشرية مادامت اللغة ملكة من ملكات العقل الذي يميز الإنسان دون سائر المخلوقات.

ومن المزايا التي يمتاز بها أيضا النحو التوليدي أنه تجاوز مهمة التصنيف والوصف، كما هو الحال عند دي سوسير وبلومفيلد، إلى مهمة دفعت علم اللغة إلى آفاق أرحب وهي "التفسير". وفي هذا السياق نستطيع أن نعقد مقارنة بين تصور فلسفة اللغة المؤسس على النحو التوليدي والتصور الذي قدمته الوضعية المنطقية وفلسفة اللغة العادية. إذا نظرنا إلى فلسفة اللغة العادية، وجدنا أن استلهامها لأفكار فتجنشتين المتأخر جعلها تنصرف عن "التفسير" باعتباره مهمة فلسفية. يقول فتجنشتين في بحوث فلسفية: "يجب ألا يوجد شيء افتراضي في بحوثنا، ويجب أن نتخلص من كل "تفسير" ويجب أن يحل محله الوصف وحده. ويحصل هذا الوصف على ضوئه ، أو أثره، من المشكلات الفلسفية، وهذه المشكلات ليست مشكلات تجريبية بطبيعة الحال، وإنما يتم حلها بالأحرى عن طريق النظر إلى طرائق عمل لغتنا" (63).

اجتنب فلاسفة اللغة العادية محاولة التنظير حول بنية اللغة الطبيعية، وانصبت عنايتهم على وصف الاستعمالات اللغوية، ومن الطبيعي أن تأتي النتيجة عبارة عن حقائق جزئية كثيرة تعوزها المبادئ التي تضمها في عقد نظري واحد يملك قدرة تفسيرية. والبحث عن هذه المبادئ أو وضع نظرية لتفسير البنى اللغوية التحتية هو الشغل الشاغل لأنصار النظرية التوليدية، ولكن الشيء الذي تشترك فيه النظرية التوليدية مع فلسفة اللغة العادية هو ضرورة تركيز التحليل اللغوي على اللغة الطبيعية.

وهنا يأتي اختلاف النظرية التوليدية مع الوضعية المنطقية التي نظر أنصارها في اللغة الطبيعية ووجدوا أن هذه اللغة تنطوي على نقائص وعيوب خطيرة، واقترحوا بدلا من ذلك بناء لغة منطقية مثالية. ومع ذلك فإن النظرية التوليدية تتفق مع الوضعية المنطقية في البحث عن نظرية صورية للغة.

وعلى هذا النحو نجد أن تصور فلسفة اللغة القائم على النظرية التوليدية يتمتع بالمزايا التي يتمتع بها تصور الوضعية المنطقية وفلسفة اللغة سواء بسواء. ولا يتعرض للنقائص التي يعاني منها تصور هاتين المدرستين . فمن ناحية التمتع بالمزايا، نجد أن مزايا الصياغة والنظرية ترتبط بمزايا الاهتمام الواقعي باللغات الطبيعية والوصف المدقق للبنية اللغوية. وارتباط المزايا على هذا النحو يؤدي إلى اجتناب النقائص، لأن التصور التوليدي بهذا الوضع يتفادى تجاهل اللغة الطبيعية واللجوء إلى لغة اصطناعية من ناحية، ويجتنب قصر التحليل اللغوي على الأوصاف غير الصورية للاستعمال التي لا تكشف عن المبادئ التفسيرية للصورة اللغوية من ناحية أخرى(64).

ولكننا مهما اعترفنا بقيمة النظرية التوليدية، فإننا لا نستطيع أن نغض الطرف عن الانتقادات التي توجه إليها. فهناك من يرى أن ظهور هذه النظرية " كان تطورا مشؤوما في علم اللغة. فقد شغلت اهتمام الكثيرن وأنتجت قدرا هائلا من العقائد. ومن الطبيعي أن يشعر الناس أن هذا العمل لا

يمكن أن يذهب هباء بالتأكيد، لكنهم شعروا دون شك بالشعور نفسه حول التنجيم والسيمياء عندما كانت هذه العلوم في أوج ازدهارها، ومع ذلك نقر اليوم بأنها كانت على خطأ، أو لم يبق هنالك شيء يمكن انتشاله من الحطام"(65).

وواضح أن هذا النقد ينطوي على قدر كبير من الإسراف، صحيح أن النظرية التوليدية لا تخلو من نقائص، ولكنها ليست كلها وهما زائفا. ويمكن أن نكشف عن بعض نقائص هذه النظرية من خلال مناقشة قضيتين أساسيتين فيها:

1- يملك المتكلمون معرفة ضمنية غير واعية بقواعد لغتهم.

2- يملك المتكلمون معرفة فطرية بالكليات اللغوية التي تمكنهم من تعلم لغتهم.

إن الفهم الدقيق للقضية الأولى وتقييمها يستلزم الإشارة إلى التمييز بين نوعين من المعرفة: معرفة كيف knowing how ومعرفة أن knowing that. ويرجع الفضل في اصطناع هذا التمييز إلى الفيلسوف الإنجليزي جلبرت رايل Gilbert Ryle (1900- 1976) في كتاب مفهوم العقل. ومعرفة أن تعني معرفة أن شيئا ما هو الواقع أو أن قضية معينة صادقة، أما معرفة كيف فهي معرفة كيف يفعل المرء شيئا ما (66). يمارس الإنسان في حياته فاعليات متنوعة، وبعض هذه الفاعليات يعرف المرء كيف يؤديها من غير أن يوجد شرط ضروري ولا كافٍ بأن يعرف أي شيء عنها. فمعرفتنا بالمشي أو الجري لا تعتمد على معرفتنا بفسيولوجيا المشي أو الجري. ومن الصحيح بصورة متساوية أن المعرفة بنشاط معين لا تكون كافية لمعرفة كيفية أداء هذا النشاط. فالشخص القعيد ربما يعرف كل ما يمكن معرفته حول التزحلق من غير أن يعرف كيف يتزحلق. ولكن هناك فاعليات إنسانية أخرى تتضمن القواعد التي يعرف المرء كيف يؤديها إذا وفقط إذا عرف القواعد التي تحكمها. ويعرف المرء قواعد هذه الفاعليات إذا وفقط إذا كان قادرا على أن يقول أو يبين لشخص ما ما عساها أن تكون القواعد (67). ويمثل الشطرنج نموذجا لهذا النوع من الفاعليات.

والآن ماذا عن معرفة كيفية تكلم اللغة؟ هل تشبه معرفة كيفية الجري أم كيفية لعب الشطرنج؟ الجواب عند تشومسكي: أنها تشبه لعب الشطرنج شريطة أن المتكلم
لا يستطيع أن يخبر أو يبين لأي شخص آخر ما عساها أن تكون القواعد اللغوية، لأن معرفته بهذه القواعد غير واعية. ولكن جواب جلبرت هارمان(*) Gilbert Harman عن السؤال السابق يختلف عن جواب تشومسكي، إذ يرى أنها تشبه المشي كثيرا. ويقول : "إن استعمال تشومسكي لتعبير القدرة الضمنية يدل على خلط بين نوعين من معرفة اللغة. القدرة معرفة بمعنى أنها معرفة كيفية فعل شيء ما، إنها مقدرة، وليست نوع المعرفة التي يمكن وصفها وصفا ملائما على أنها "ضمنية". المعرفة الضمنية لابد من أن تكون معرفة أن شيئا ما هو الواقع ... [وبالتالي فإن تشومسكي] يخلط معرفة كيف بمعرفة أن".(68)

وكان رد تشومسكي على هارمان محيرا: "لا يبدو لي من الصواب أن مفاهيم "معرفة كيف" و"معرفة أن" تؤلف فئات مستنفدة لتحليل المعرفة". (69) ومصدر الحيرة في هذا الرد أنه لم يوضح لنا أين نُدخل "المعرفة الضمنية" ضمن تصوراتنا العادية للمعرفة.

ولعل أكثر الدعاوي إثارة للجدل في النظرية التوليدية دعوى الفطرية القائلة إن الطفل يولد مزودا بمعرفة لغوية فطرية. صحيح أن البشر والحيوانات الأخرى تولد مزودة بأنواع معينة من المعرفة. يولد الأطفال وهم يعرفون كيف يرضعون، وتولد الكلاب وتعرف كيف تنبح، وتخرج الأسماك إلى الوجود وتعرف كيف تعوم. ولكن هل نولد ولدينا القدرة على تكلم اللغة أم تعلمها؟ الواقع أننا نولد مزودين بقدرة على التعلم أحرى من التكلم.

ولكن تشومسكي عندما يقول بفرض الفطرية فإنه يعني به أن الطفل يولد مزودا بمعرفة أن حقائق معينة عن اللغة الإنسانية هي الواقع. على سبيل المثال يولد الطفل مزودا بمعرفة أن القواعد في جميع اللغات تتضمن قواعد تحويلية. وتبعا لذلك عندما يواجه الطفل بمشكلة بناء نحو في لغة على أساس معطيات لغوية أو أساسية، فسوف يبني نحوا يعمل وفقا لمعرفته الفطرية بصورة جميع اللغات البشرية. وإذا كان تشومسكي على صواب، فإن أي نحو يبنيه سوف يتضمن قواعد تحويلية. إن الدليل الذي يعتمد عليه في القول بفرض الفطرية هو التفاوت بين قواعد النحو التي يتعلمها الطفل والمعلومات التي تكون متاحة لبناء هذه القواعد. ويرى تشومسكي أن المعلومات لا تحدد القواعد. (70) ويتعذر على الطفل أن يبني نحوا كافيا للغته عن طريق التمثيل، الذي أسلفنا الإشارة إليه. ومادامت المعلومات المتاحة للطفل في الخبرة لا تكفي لبناء النحو، فإن تشومسكي قد بحث عن مصدر آخر غير الخبرة أو التجربة، ووجد ضالته في فكرة الفطرية.

على أن الشيء المحير هو زعم تشومسكي بأن الأطفال الذين لا يتكلمون اللغة لديهم معرفة فطرية بالقواعد التي تحدد صورة أية لغة طبيعية. ولكن هذه النقطة تواجه اعتراضا مماثلا للاعتراض الذي ذكرناه ضد قناعة تشومسكي بأننا نملك معرفة غير واعية بالقواعد اللغوية، وفي نقد المعرفة غير الواعية اعتبرنا أن الشرط الضروري لمعرفة المرء أنه يستطيع أن يخبرنا أو يبين لنا ما عساها أن تكون القواعد . ونحن نشك شكا جادا في أن دارس المنطق يعرف قواعد الاستدلال أو يكون قادرا على تطبيقها إذا لم يكن قادرا على أن يخبرنا ما عساها أن تكون هذه القواعد. ومن الواضح أن الطفل الذي لا يتكلم لغة لا يستطيع أن يخبرنا بما عساها أن تكون صورة اللغات، وبالتالي لا يمكن القول إنه يملك هذه المعرفة الفطرية أو غير الفطرية. (71)

ومهما يكن من أمر الجدل حول النحو التوليدي وركائزه الفلسفية، فإن تشومسكي
لا يزال يدافع عن المبادئ الأساسية في نظريته اللغوية وهي أن النحو نظرية تفسيرية أحرى من أن يكون نظرية وصفية، وأن دراسة النحو هي دراسة القدرة أحرى من دراسة الأداء؛ وأن اللغة خصيصة إنسانية فريدة، وأنها وسيلة للتعبير عن الأفكار وليست مجرد نظام من العلامات يتساوى مع أنظمة سيميوطيقية أخرى. ولا يزال السؤال: "ما اللغة؟" يشغل بال تشومسكي حتى أنه جعله عنوانا للفصل الأول من كتابه الأخير: من أي نوع من المخلوقات نكون؟ 2016.

هوامش الفصل الثالث

1- كتب تشومسكي قبل هذا الكتاب كتابا آخر بعنوان البنية المنطقية للنظرية اللغوية The Logical Structure of Linguistic Theory. ولكن دار نشر معهد مساتشوستس التكنولوجي رفضت نشره بحجة أنه يعالج موضوعات بعيدة عن اهتمامات علماء اللغة آنذاك. ونشر هذا الكتاب في عام 1975، ويؤكد فيه تشومسكي على علاقة علم اللغة بالمنطق الرياضي، وليس من شك في أن اهتمامه البالغ بدراسة المنطق والرياضيات كان في طليعة الأسباب التي دفعته إلى ابتكار فكرة التوليد في النحو.

2- Lyons, J., Semantics, Vol. 1, London. New York; Cambridge University Press, 1979, pp. 125-126.

3- Bloomfield, l., “Language or Ideas”? in J. J. Katz (ed.) The Philosophy of Linguistics, Oxford University Press, 1985, p. 20.

4- Bloomfield, L., Language, Lodon: George Allen & Unwin LTD, 1935, p. 22.

5- Ibid., p.23.

6- Ibid., p. 23.

7- Ibid., p. 26.

8- Ibid., p. 26.

9- Ibid., pp. 26-27.

10- Chomsky, Noam, “A Review of B. F. Skinner’s Verbal Behavior”, in J. A. Fodor and J. J. Katz (eds.) The Structure of Language: Readings in the Philosophy of Language, Englewood Cliffs, N. J. : Prentice – Hall, 1964, p. 547.

11- Skinner, B. F., Verbal Behavior, New York: Appleton- Century- Crofts, Inc., 1957, p. 3.

12- Chomsky, Noam, “A Review of B. F. Skinner’s Vrbal Behavior”, p. 549.

13- Chomsky, Noam, Language and Mind, Enlarged Edition, New York: Harcourt Brace Jovanovich, Inc., 1972, p. xi.

14- جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة وتعليق د. حلمي خليل، الطبعة الأولى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1985، ص 37.

15 - الفونيم هو أصغر وحدة صوتية ليس لها معنى في ذاتها، وتضاف إلى غيرها فتتألف الكلمة وهذا يعني أن الكلمة تتألف من أكثر من فونيم مثال "رحل" التي تتألف من ست فونيمات /ر/+/ت/+/ح/+/ت/+/ل/+/ت/. والتاء هنا رمز للفتحة.

16- المورفيم morpheme هو أصغر وحدة ذات معنى في اللغة. والمورفيمات الحرة free هي كلمات مستقلة، على حين أن المورفيمات المقيدة bound هي أجزاء من كلمات، على سبيل المثال كلمة walked تتألف من مورفيمين (-walk), (ed) النهاية التي تدل على زمن الماضي.

- Bornstein, Diane, An Introduction to Transformational Grammar, Winthrop Publishers, Inc., 1977, 238.

17- Katz, J. J., “Logic and Language: An Examination of Recent Criticisms of Intensionalism”, in Gunderson, K., (ed.). Minnesota Studes in Philosophy of Science, Vol. VII, Language, Mind, and Knowledge, Minneapolis: University of Minnesota Press, 1975, p.

18- Chomsky, Noam, Aspects of the Theory of Syntax, Cambridge: MIT Press, 1965, p. 52.

19- Ibid., pp. 88.

20- Newmeyer, Frederick J., “Generative Grammar”, in Bright, William, Editor in Chief, International Encyclopedia of Linguistics, Vol. 1, New York, Oxford: Oxford University Press, 1992, p. 46.

21- جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة د. حلمي خليل، ص 72.

22- توماس كون، بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، العدد 168، الكويت، 1992، ص 143.

23- Chomsky, Noam, Syntactic Structures, the Hague, Mouton, 1957, p. 15.

24- Chomsky, Noam, Language and Mind, p. 116.

25- Chomsky, Noam, and Hall, M., The Sound Pattern of English, New York : Harper and Row, 1968, p. 3.

26- Chomsky, Noam, Aspects of the Theory of Syntax, p. 140.

27- Chomsky, Noam, and Halle, M., Op. Cit., p. 3.

28- Chomsky, Noam, Language and Mind, pp. 115-116.

29- Bornstein, Diane, An Introduction to Transformational Grammar, Winthrop Publishers, Inc., 1977, p. 19.

30- Chomsky, Noam, Syntactic Structures, p. 11.

31- جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة د. حلمي خليل، ص 83.

32- جفري سامسون، مدارس اللسانيات: التسابق والتطور، ترجمة د. محمد زياد كبه، جامعة الملك سعود، الرياض، 1997، ص 158.

33- أفضل ترجمة phrase بالتعبير بدلا من (التعبيرة) كما هو الحال في معجم مصطلحات علم اللغة الحديث، وضع نخبة من اللغويين العرب، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، بيروت، 1983، ص 69؛ أو ترجمتها بـ (المركب) مثلما فعل د. حلمي خليل في ترجمته لكتاب جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ص 113، وذلك لأن phrase في التحليل النحوي الذي سنعرض له هي وحدة لغوية دون الجملة وفوق الكلمة.

34- Chomsky, Noam, Syntactic Structures, pp. 25.

35- Ambrose- Grillet, Glossary of Transformational Grammar. Rowley, Massachusetts: Newbury House Publishers, 1978, p. 87.

36- Chomsky, Noam, Aspect of the Theory of Syntax, p. 16.

37- Katz, J. J., and J. A. Fodor “The Sturcutre of A Semantic Theory”, in Fodor. J. A., and J. J. Katz (eds.) The Structure of Language, p. 496.

38- جودث جرين، علم اللغة النفسي: تشومسكي وعلم النفس، ترجمة وتعليق د. مصطفى التوني، ص 102.

39- Malmkjaer, Kirsten, Anderson, James M., (eds.) The Linguistics Encyclopedia, London and New York: Routledge, 1977, Art “Generative Semantics” pp. 170-175, and See Also Trask, R. L., A Dictionary of Grammatical Terms in Linguistics, London and New York: Routledge, 199, pp. 117-118.

40- جون سيرل "تشومسكي والثورة اللغوية" الفكر العربي، العددان 8، 9 يناير، مارس 1979، من دون ذكر مترجم، ص 130.

41- جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة د. حلمي خليل، ص 182.

42- جون سيرل، "تشومسكي والثورة اللغوية"، ص 135.

43- نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، ترجمة د. حمزة بن قبلان المزيني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1990، ص 117.

44- نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية، طبيعتها وأصولها واستخدامها، ترجمة د. محمد فتيح، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة 1993، ص 43.

45- نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، ترجمة د. حمزة بن قبلان المزيني، ص 16.

46- Chomsky, Noam, “Current Issues in Linguistic Theory”, pp. 50-51.

47- Chomsky, Noam, Cartesian Linguistics, New York: Harper & row, 1966, pp. 16-17.

48- Chomsky, Noam, Rules and Representation, New York: Columbia University Press, 1980, pp. 76-77.

49- نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، ترجمة د. حمزة بن قبلان المزيني، 121.

50- Chomsky, Noam, "Chomsky, Noam". Guttenplan, Samuel, (ed.), A Companion to the Philosophy of Mind, Blackwell Ublishers, 1998, p. 167.

51- رينيه ديكارت، مقال عن المنهج، ترجمة محمود محمد الخضيري، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1985، ص 259-261.

52- Chomsky, Noam, "A Note on the Creative Aspect of Language", The Philosophical Review, Vol. Xci, No. 3, July, 1982, p. 424.

53- Chomsky, Noam, Language and Mind, pp. 11-12.

54- Davis, Steven, Philosophy and Language, Indianapolis: the Bobbs- Merrill, 1976, p. 60.

55- Chomsky, Noam, "Recent Contributions to the Theory of Innate Ideas", Synthese, 17, 1967, p. 4.

56- Chomsky, Noam, Language and Mind, p. 12.

57- جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة وتعليق د. حلمي خليل، ص 255.

58- نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، ترجمة د. حمزة بن قبلان المزيني، ص 45. وانظر أيضا: نعوم تشومسكي "اللغة البشرية وأنظمة سيميوطيقية أخرى" ترجمة كاطع نعمه الحلفي في أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة: مدخل إلى السيميوطيقا، إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، دار إلياس العصرية، القاهرة، 1986، ص 208-209.

59- Chomsky, Noam, Aspect of a Theory of Syntax, p. 4.

60- Ibid., p. 27.

61- Chomsky, Noam, "Linguistics and Pilosophy" in Hook, Sidney (ed.), Language and Philosophy, New York: New York University Press, 1969, p. 88.

62- Ayer, A. J., Philosophy in the Twentieth Century, London: Weidenfeld and Nicolson, 1982, p. 239.

63- Wittgenstein, L., Philosophical Investigations, translated by G. E. M. Anscombe, Oxford: Basil Blackwell, 1963, part 1, Sec. 109, p. 47

64- Katz, J. J., The Underlying Reality of Language and its Philosophical Import, New York, Evanston: Harper & Row, 1971, pp. 184-185.

65- جفري سامسون، مدارس اللسانيات: التسابق والتطور، ترجمة د. محمد زياد كبه، جامعة الملك سعود، الرياض، 1997، ص 171.

66- Ryle, Gilbert, The Concept of Mind, London: Penguin Books, 1970, p. 28 ff.

67- Davis, Steven, Philosophy and Language, p. 75.

* جلبرت هارمان أستاذ الفلسفة في جامعة برنستون، وله إسهامات متميزة في فلسفة العقل والإبستمولوجيا والأخلاق. ومن أبرز مؤلفاته: "الفكر" 1973 و"طبيعة المذهب الأخلاقي" 1977، و"تغير في وجهة النظر: مبادئ الاستدلال" 1986، و"النزعة الشكية وتعريف المعرفة"1990، و"الاستدلال والمعنى والعقل"1999.

68- Harman, Gilbert, "Psychological Aspect of the Theory of Syntax", Journal of Philosophy, 1967, pp. 81-82.

69- Chomsky, Noam, "Linguistics and Phiolosphy", p. 87.

70- Davis, Steven, Philosophy and Language, p. 81.

71- Ibid., p. 82.

******

Sentence

VP

NP

NP

Verb

N

T

N

T

Ball

the

hit

man

the

الفصل الرابع

نظريات المعنى

1- ما المعنى؟

2- نظرية الأفكار

3- نظرية التحقق

4- نظرية الاستعمال في المعنى

نظريات المعنى

1- ما المعنى؟

تجيء مشكلة المعنى بصفة عامة في موضع الصدارة من المشكلات التي واجهت العقل الإنساني، إذ إن السؤال: "ما معنى كذا؟" مطروح على الإنسان منذ القدم، أي منذ أن بدأ يتواصل مع غيره من الناس وحاول إدراك العالم الخارجي من حوله . ولعل الظاهرة الكلامية في مجتمع لغوي معين من أكثر الظواهر إثارة لمشكلة المعنى، وذلك لأن هناك علاقة حميمة بين المعنى والكلام أو اللغة عموما، فليس ثمة لغة من دون معنى. ومن بين التعريفات الدقيقة للغة نجد تعريف ابن جني (المتوفى 391هـ) الذي يقول فيه: " أما حدها (أي اللغة) فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" (1).وتأتي دقة هذا التعريف من إبرازه لثلاثة ملامح من أهم ملامح اللغة. الملمح الأول أن اللغة ظاهرة صوتية، والثاني أنها ظاهرة اجتماعية، والثالث أنها أداة للتعبير أو التوصيل. وتوصيل المعنى هو الهدف الأساسي من وراء اللغة، فنحن نتحدث لكي نعبر عن معنى أفكارنا ونستمع إلى غيرنا بغية اكتشاف المعنى الذي يهدفون إليه من وراء كلامهم. ومن ثمّ يجوز لنا القول بأن اللغة صوت يعبر عن معنى.

وإذا كان السؤال عن المعنى من أقدم الأسئلة المطروحة على الفكر البشري كما ألمحنا، فلا عجب أن يقع هذا السؤال من الفلسفة في صميم صميمها؛ إذ تمثل الإجابة عنه المحور الذي يرتكز عليه البحث الفلسفي طوال تاريخه ليس هذا وحسب، بل هو مجال يجذب إليه المشتغلين بحقول معرفية أخرى مثل علم اللغة الذي يشغل المعنى فرعا كاملا من فروعه ألا وهو علم الدلالة ، كما يتناول المعنى مجالات علم النفس والانثروبولوجيا والأدب أيضا.

وليس أدل على كون المعنى يمثل قطب الرحى من الفلسفة من أننا لو نظرنا إلى قصة الفلسفة في القرن العشرين، ودع عنك الفلسفة في عصورها القديمة والوسيطة والحديثة، لوجدنا أنها قصة

لفكرة المعنى على حد تعبير جلبرت رايل (1900-1976) (2).وإن شئت قل بعبارة أخرى إنه يمكن وصف الانشغال التام بنظرية المعنى على أنه مرض المهنة لفلسفة القرن العشرين الأنجلو سكسونية والنمساوية (3).

ولكن على الرغم من توكيدنا على أن نظرية المعنى تقع من البناء الفكري عند كثير من الفلاسفة المعاصرين عند حجر الأساس، فإننا لا نغلو في تقدير ذلك مثلما فعل دميت M.Dummett عندما قال : " يتعين على الفلسفة - كوظيفة أولى لها إن لم تكن الوظيفة الوحيدة - تحليل المعاني. فنظرية المعنى... هي أساس الفلسفة برمتها وليست نظرية المعرفة كما أضلنا ديكارت" (4). وإذا كان ديكارت قد جانب الصواب في التوحيد بين نظرية المعرفة والفلسفة، فإن دميت قد وقع في خطأ مماثل بتوحيده بين الفلسفة ونظرية المعنى.

على أن الاهتمام المحوري بالمعنى في الفلسفة المعاصرة لم يشغل التيارات التحليلية فحسب، بل شغل الاتجاهات غير التحليلية أيضا مثل الفينومينولوجيا والبراجماتية والبنيوية ومدرسة التأويل. وإذا كان السبب الأساسي للاهتمام بالمعنى في الفلسفات غير التحليلية يرتكز على اقتناع بأن المعنى والخبرة مرتبطان كأشد ما يكون الارتباط، وأن المعنى يتخلل الخبرة، فإن فلاسفة التحليل قد اهتموا إلى حد بعيد بالمعنى اللغوي، أي المعنى كما يتم التعبير عنه في اللغة. ولقد أظهر الفلاسفة التحليليون اهتماما بارزا بالعلاقة بين المعنى والأنواع المتباينة من الظواهر القصدية مثل الاعتقاد، والمواقف القضوية الأخرى والإدراك الحسي(5).

و إذا ضيقت مجال الكلام عن المعنى في الفلسفة بحيث يقتصر على فلسفة اللغة، وجدت أنها تدرس عدة موضوعات يأتي المعنى في موضع الصدارة منها، أو قل إن مشكلة المعنى تمثل قطب الرحى بالنسبة لفلسفة اللغة، لأن فيلسوف اللغة لا يستطيع أن يتناول الموضوعات التي تشكل مجال بحثه تناولا دقيقا، إلا إذا عمد أولا إلى تحديد موقفه من المعنى. ومن ثمّ لا سبيل أمامه سوى أن يطرح على نفسه مجموعة من الأسئلة من قبيل: ما علاقة المعنى بتعلم اللغة؟ وما علاقة المعنى بالإشارة؟ وما علاقة المعنى بالصدق؟ وما علاقة المعنى بالتواصل؟ وما علاقة المعنى بالفهم؟ وما علاقة المعنى بالترجمة؟ وعلى أساس اختلاف الإجابات عن مثل هذه الأسئلة تختلف نظريات المعنى. ولكن يبقى السؤال المحير : ما المعنى؟

ولعل مصدر الحيرة التي تنتابنا إزاء فكرة المعنى هو أن المعنى كلمة رواغة، لا يكاد الإنسان يمسك بطرف من أطرافها حتى تفلت منه، وسر ذلك أنها كثيرة الأطراف. وإذا كان التعريف الجامع المانع يدنو من المحال اللهم إلا في المعاني الرياضية وما لف لفها، فهو أشد استحالة في تحديدنا لمعنى "المعنى".

وإلى جانب الغموض الذي يكتنف كلمة المعنى ذاتها، فإن هناك عوامل أخرى تحول بيننا وبين الإدراك الدقيق لها، من بينها أن موضوع المعنى قد تناوله عدد من النظريات والآراء الدقيقة وغير الدقيقة على السواء، واستخدمت في دراسته مجموعة ضخمة من المصطلحات المتضاربة

والمتداخلة حتى أن المعنى كاد يفقد أهميته وصلاحيته للدراسة. ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين إلى غض النظر عن مشكلة المعنى واستبعادها من مجال البحث. وخير شاهد على اضطراب المصطلحات وتداخل المفاهيم في موضوع المعنى هو أن أوجدن وريتشارد في كتابهما معنى المعنى قد جمعا ما لا يقل عن ستة عشر تعريفا للمعنى، أو قل اثنين وعشرين تعريفا، إذا أخذنا في الحسبان ما أورداه من تقسيمات جزئية(6).

ويشير كاتز - وهو من أبرز فلاسفة اللغة المعاصرين الذين اهتموا بمشكلة المعنى اهتماما جادا - إلى وجود اتفاق عام على أن السؤال الأساسي في علم الدلالة هو: ما المعنى؟ ولكن هذا الاتفاق سرعان ما يتلاشى بعد ذلك وتظهر الخلافات اللامتناهية حول نوع الشيء الذي يكون معنى. وهناك خلاف على مسائل من كل نوع بما في ذلك المسألة الأساسية التي تتعلق بالتساؤل : هل يمكن أن نفيد من مفهوم المعنى أو نصنع به شيئا، أم هل سنكون في وضع أفضل لو نحيناه جانبا ومضينا في سبيلنا من دونه؟ فالذين ينظرون إلى المعنى باعتباره فكرة عديمة القيمة يتنازعون حول الطريقة التي يمكن بها استبعاده، على حين أن أولئك الذين يعتبرون المعنى مفهوما أساسيا لا غنى عنه على الإطلاق يتنازعون حول الطريقة التي يمكن بها توضيحه توضيحا ملائما (7).

وإذا كانت مشكلة المعنى ذات أطراف كثيرة ومتفرقة، وتناولتها مجالات معرفية متعددة، فلا عجب أن يكون لها من التعريفات بقدر المحاولات التي سعت إلى تحديدها، وكل تعريف من هذه التعريفات يجسد نظرية لها أنصارها وخصومها، وسوف نشير إلى بعض نظريات المعنى في فلسفة اللغة، ونغض النظر عن المجالات المعرفية الأخرى التي عالجت المعنى.

يجمع ألستون (8) نظريات المعنى في ثلاث نظريات هي: النظرية الإشارية referential theory ونظرية الأفكار ideational theory والنظرية السلوكية behavioral theory . وتذهب النظرية الإشارية إلى أن معنى التعبير هو ما يشير إليه، وترى نظرية الأفكار أن معنى التعبير هو الأفكار التي ترتبط به أو تناظره في ذهن المتكلم والمستمع، أما النظرية السلوكية فتزعم أن معنى التعبير هو المثير الذي يستدعي نطقه أو الاستجابة التي يستدعيها التعبير بدوره، ثم تتنوع المواقف داخل كل نظرية من هذه النظريات.

وهناك تصنيف آخر لنظريات المعنى يحصيها في خمس نظريات هي :

1- نظرية أفلاطون القائلة إن المعاني هي النماذج الخالدة أو المثل.

2- نظرية لوك التي مؤداها أن المعاني هي الأفكار التي تدل عليها الكلمات.

3- النظرية القائلة إن المعاني هي الأشياء التي نجدها في العالم، أو إن معنى الاسم هو مسماه.

4- نظرية فتجنشتين القائلة إن معنى الكلمة هو مجموعة استعمالات الناس لها في اللغة العادية.

5- النظرية السلوكية التي مفادها أن المعاني هي المثيرات التي تستدعي استجابات لفظية.

ولعلنا نلاحظ تشابها ما بين التصنيفين السابقين، وإن كان التصنيف الثاني يوحي بأن إحصاء نظريات المعنى قد يستلزم الحديث عن نظرية المعنى عند كل فيلسوف على حدة، وهذا أمر غير معقول (9).زد على ذلك أن التصنيفين السابقين قد أغفلا نظريات مهمة في المعنى مثل نظرية التحقق عند الوضعية المنطقية التي تذهب إلى أن معنى العبارة هو منهج النحقق منها سواء كان تحققا فعليا أو تحققا ممكنا، والنظرية البراجماتية في المعنى التي تقول، فيما يرى بيرس: إن معنى اللفظ أو العبارة هو الذي يوجه الإنسان أو يرشده إلى نوع من السلوك أو الفعل، أو قل هو مجموع النتائج العملية المترتبة على صدق اللفظ أو العبارة. يقول بيرس فيما أصبح يعرف بقاعدة بيرس أو القاعدة البراجماتية: "إذا شئنا أن نكتشف معنى تصور عقلي، فلابد من أن نتأمل النتائج العملية التي يجوز لنا أن نتصور أنها تنتج بالضرورة من صدق هذا التصور العقلي" (10).

2- نظرية الأفكار

تقول نظرية الأفكار في المعنى: إن الكلمة تكون علامة أو رمزا لفكرة في العقل، وإن هذه الفكرة هي معنى الكلمة. وهذا يعني أن معنى الكلمة هو الفكرة التي تصحب الكلمة في عقل المتكلم، والتي تستدعيها الكلمة ذاتها في عقل المستمع لكي يتم التواصل
بين الأشخاص.

ويقدم جون لوك التقرير الكلاسيكي عن نظرية الأفكار في كتاب مقال في الفهم الإنساني حيث يقول : "إن استعمال الكلمات، إذن، يجب أن يكون رموزا حسية للأفكار، والأفكار التي تمثلها هي مغزاها المباشر والخاص" (11). والأساس الذي تقوم عليه هذه النظرية ينظر إلى اللغة بوصفها نوعا من الأشياء التي يصنعها الإنسان، وتتحدد طبيعتها عن طريق الوظيفة التي تؤديها، ووظيفة اللغة هي التوصيل، أي توصيل الفكر أو تسجيل أفكارنا الخاصة. ونظرا لأن الفكر يتألف من سلاسل متتابعة من الأفكار في الوعي، والأفكار أمور خاصة وسرية وذاتية وليست عامة وعلنية ومشتركة، ترانا في حاجة إلى نسق من الأصوات والعلامات المتاحة بين الذوات، والتي ترتبط بالأفكار بحيث إذا استعملها إنسان استعمالا ملائما، فسوف يستدعي هذا الاستعمال أفكارا مناسبة في عقل إنسان آخر، ومن هنا يحدث التواصل.

وأنت ترى إذن أنه من دون توصيل الفكر لا يمكن أن يوجد مجتمع، ومن دون مجتمع تفقد الكائنات البشرية الراحة والمصلحة على حد تعبير لوك . وتسهم اللغة في رخاء المجتمع وأمنه عن طريق جعل الاتصال ممكنا.

وعلى هذا النحو تقوم نظرية الأفكار عند لوك على مجموعة من الافتراضات هي:

1- تتحدد طبيعة اللغة عن طريق وظيفتها.

2- وظيفة اللغة هي التوصيل.

3- ما يراد اللغة أن توصله هو الفكر.

4- مكونات الفكر هي الأفكار.

5- تعني الكلمات أو تدل على الأفكار.

ولكي تنجح نظرية الأفكار في تفسير معاني الكلمات أو التعبيرات، لا بد من توافر مجموعة من الشروط :

1- يجب أن تكون الفكرة حاضرة في عقل المتكلم.

2- يجب أن يحدث المتكلم تعبيرا لكي يجعل من يستمع إليه يدرك أن الفكرة موضوع البحث حاضرة في عقله في ذلك الوقت.

3- بقدر ما يكون التواصل ناجحا، يجب أن يستدعي التعبير الفكرة ذاتها في عقل المستمع (12).

وتتمتع نظرية الأفكار ببعض المزايا:

1- سهولة النظرية وبساطتها إذا قورنت بالنظريات الأخرى في المعنى.

2- تتجاوز الصعوبات التي واجهت النظرية الإشارية في المعنى. والنظرية الإشارية تقرر أن معنى الكلمة هو ما تشير إليه، فمعنى القلم هو القلم ومعنى كلمة كتاب هو الكتاب، ونحو ذلك. ولكن هناك كلمات ذات معنى وليس لها إشارة أو
ما صدق مثل التقوى والعدالة والشجاعة والحب وهلم جرا. وهنا لا تجد النظرية الإشارية شيئا تقدمه لتفسير معنى مثل هذه الكلمات. ولكن نظرية الأفكار تزيل هذه الصعوبة بقولها إن معنى الكلمة يتخذ أساسه من الفكرة الحاضرة في عقل المتكلم والمستمع، ولا يعول كثيرا على الماصدق .

نقد نظرية الأفكار

هناك صعوبات كثيرة تعترض سبيل نظرية الأفكار، ولكن إحداها التي تجيء من سواها في الطليعة هي أن معنى الفكرة الذي يصاحب الكلمة وينشأ في عقل من يستخدمها هو نفسه معنى غامض غير محدد. فماذا عساها أن تكون الأفكار؟ هل هي الأفكار المجردة؟ أم هي الحادثات والحالات العقلية؟ أم هي الصور الذهنية كما يقول لوك أحيانا؟ أم أن الفكرة كائن عقلي؟ إذا قلنا إن معنى الكلمة هو الفكرة المجردة، وجدنا أن الفكرة المجردة هي ذاتها غير محددة (13). هل نقول إن معنى كلمة "كلب" هو فكرة مجردة عن الكلب؟ إن تصور الكلب المجرد تصور مستحيل، لأننا

لا نستطيع القول إن معنى الكلب هو الكلب المجرد من كل صفاته أو الفكرة المجردة عن الكلب، بمعنى أن الكلب
لا هو أبيض ولا أسود ولا أي لون، ونحو ذلك. وهذا يعني أن الفكرة المجردة عن الكلب فكرة محالة.

وإذا اعتبرنا أن معنى الكلمة هو الحادثة العقلية التي تصاحب استخدامها، فإن ذلك
لا ينجو أيضا من النقد على أساس أن كون الأفكار حوادث عقلية يتنافى مع القول بإمكان توصيل الأفكار إلى الآخرين. فالأفكار ليست في الواقع حادثات عقلية على الإطلاق، لأنها لو كانت كذلك، لما استطاع عدد من الناس أن يشاركوا في تلك الأفكار، أي تنتفي المشاركة الفكرية في هذه الحالة. وهذا يعني أنه إذا كان أصحاب نظرية الأفكار يقولون إن افتراض الأفكار يوضح لنا كيفية التواصل بين الناس، فإن نقاد هذه النظرية يرفضون النظر إلى الأفكار بوصفها حادثات عقلية، إذ لو كانت كذلك، لعجزت عن تفسير الاتصال.

هل نقول: إن معنى الكلمة هو الصورة الذهنية؟ الجواب: لا، لماذا (14)؟ لأن هناك كلمات ذات معنى وليس لها صور ذهنية مثل الأنا أو النفس أو الروح. ولفظ الجلالة "الله" له كل المعنى، ومع ذلك لا تقابله صورة ذهنية "كل ما يخطر ببالك، فالله خلاف ذلك".

هل نقول: إن معنى الكلمة كائن عقلي؟ لو قلنا إن معنى الكلمة هو الفكرة، والفكرة كائن عقلي، فإن الأفكار تواجهها صعوبة التشخيص individuation . يعترض كواين على الأفكار بوصفها تمثل كائنات عقلية ويقول إنها تفتقر إلى معايير واضحة للهوية criteria of identity ومعيار الهوية بالنسبة لكائن معين هو المعيار الذي عن طريقه يمكن تشخيص هذا الكائن وتحديده وتمييزه وفصله عن بقية الكائنات الأخرى، فنعرف أين يبدأ هذا الكائن وأين ينتهي . وابتكر كواين شعارا يلخص وجهة نظره يقول: "لا كائن من دون هوية" no entity without identity . ويتساءل: "ما هو المغزى الذي يمكن أن يوجد في الحديث عن كائنات لا يمكن أن يقال بصورة ذات معنى إن الواحد منها يتطابق مع ذاته ويتميز من الآخر؟" (15).

3- نظرية التحقق

ولقد أثرت رسالة فتجنشتين تأثيرا عظيما في جماعة فينا (16). إذ كانت الرسالة أحد الكتب التي تدارسها أعضاء الجماعة فيما بينهم، وشكلت مناقشات جماعة فينا الإطار العام لحركة الوضعية المنطقية، التي سميت بأسماء أخرى مثل التجريبية المنطقية والتجريبية العلمية والفلسفة الوضعية الجديدة. وضمت الوضعية المنطقية عدة أسماء من أبرزها شليك، مؤسس جماعة فينا وفايزمان (الذي أخذ في فلسفته المتأخرة بموقف قريب من فتجنشتين المتأخر ومدرسة أكسفورد) وكارناب وفايجل وكرافت وجودل وكاوفمان واير وغيرهم.

وجرى الاتفاق بين هؤلاء الفلاسفة على عدة مبادئ شكلت لب حركتهم الفلسفية وهي:

1- الفلسفة تحليلية.

2- الفلسفة علمية.

3- القضايا إما تحليلية أو تركيبية.

4- معنى الجملة هو منهج التحقق منها (مبدأ التحقق).

5- الميتافيزيقا لغو.

وسوف نقصر حديثنا الآن على المبدأين الثالث والرابع لأنهما يشكلان نظرية المعنى في هذه الفلسفة.ويمكن فهم هذين المبدأين فهما دقيقا من خلال تصور هؤلاء الفلاسفة لوظيفة اللغة وكيفية عملها، إذ ميزوا بين وظيفتين أساسيتين. إحداهما هي الوظيفة المعرفية cognitive أو الإخبارية informative وهي التي تستخدم فيها اللغة للإشارة إلى وقائع وأشياء موجودة في العالم، ولا تزيد مهمة اللغة بذلك على أن تجيء تصويرا لتلك الوقائع والأشياء. أما الأخرى فهي الوظيفة غير المعرفية non- cognitive والانفعالية emotive ومؤداها أن المرء قد يستخدم اللغة للتعبير عن انفعالات ومشاعر تجول في خاطره وتضطرب بها نفسه كما هو الحال مع الشاعر مثلا. ويدخل في نطاق هذه الوظيفة غير المعرفية استعمالات معينة للغة تشغل بال الفيلسوف الذي يعالج مسائل الميتافيزيقا والأخلاق والجمال. ولو اكتفى فلاسفة الوضعية المنطقية بالتمييز بين هاتين الوظيفتين ما كان هناك صراع واصطراع، ولكنهم أصروا على أن العبارات التي تندرج في إطار الوظيفة المعرفية أي العبارات التجريبية، هي وحدها ذوات المعنى، بالإضافة إلى قضايا تحصيل الحاصل، أما العبارات التي تقع في نطاق الوظيفة غير المعرفية مثل عبارات الميتافيزيقا والأخلاق والجمال فهي عبارات خالية من المعنى على أساس أننا لا نجد لها من وقائع العالم ما يجعلها صادقة أو كاذبة. وعلى هذا النحو تحددت مهمة العبارة ذات المعنى في وصف حالة من حالات الواقع، ثم يأتي الحكم على هذه العبارة بالصدق أو بالكذب بناء على قابليتها للتحقق.

ولا تخرج العبارة التي يمكن وصفها بالصدق أو بالكذب عن أحد نوعين فهي إما تحليلية أو تركيبية. العبارة التحليلية هي التي لا تخبرنا بخبر جديد عن الموضوع الذي نتحدث عنه، وإنما تحلل ذلك الموضوع إلى عناصره. فإذا قلنا مثلا "الأرملة امرأة مات زوجها"، فنحن لا نقول شيئا جديدا يضاف إلى تعريف الأرملة. إذ لو طلب منا شخص ما أن نحدد له معنى الأرملة أولا قبل أن نقول عنها ما نقوله، لاستحال علينا توضيح معناها دون أن نذكر هذه الصفة عنها، أي إنها امرأة مات زوجها. وهكذا لم يخبر قولنا بخبر جديد، وإنما هو تحصيل حاصل أو عبارة تحليلية . أما العبارة التركيبية فهي التي تخبرنا بخبر جديد عن الواقع، إذا شئنا أن نتثبت من صدقه أو كذبه تعين علينا أن نقارن بين واقع الأشياء وما تزعمه العبارة. فإذا قلنا " الحجرة مظلمة"، فلسنا نقول بذلك معنى كلمة الحجرة، وإنما نضيف إلى معناها خبرا هو أنها مظلمة. ولكن هب أن شخصا طلب منا أن نحدد له معنى كلمة الحجرة قبل أن نقول له عنها ما نقول، عندئذٍ نستطيع أن نشرح له معناها دون أن يكون قولنا إنها مظلمة جزءا من معناها. ومن ثمّ فقولنا عنها إنها مظلمة هو خبر

جديد يتطلب تصديقه أو تكذيبه مراجعة الواقع. العبارة التحليلية إذن عبارة تكرارية، تحصيل حاصل، يقينية، محك الصدق فيها هو اتساق صدرها مع عجزها، والعبارة التركيبية تجريبية، احتمالية، مقياس الصدق فيها تجربة الحواس، والعبارات من هذين النوعين هي وحدها العبارات ذوات المعنى.

ويستند هؤلاء الفلاسفة في التفرقة بين ما له معنى من العبارات وما لا معنى له على مبدأ التحقق verification principle، يقول شليك :" كلما نسأل عن جملة "ماذا تعني؟" فإننا نتوقع درسا فيما يتعلق بالظروف التي تستعمل الجملة فيها، ونود أن نصف الشروط التي سوف تشكل الجملة بمقتضاها قضية (صادقة) والشروط التي تجعلها (كاذبة). ومعنى القضية هو منهج تحققها" (17).

ويقول فايزمان: "لكي يحصل المرء على فكرة عن معنى القضية، فمن الضروري أن يكون واضحا بشأن الإجراء الذي يؤدي إلى تحديد صدقها. وإذا لم يعرف المرء هذا الإجراء، فلا يمكن له أن يفهم القضية أيضا... إن معنى القضية هو منهج تحققها (18).

نقد نظرية التحقق

قامت ضد مبدأ التحقق عدة اعتراضات من بينها الاعتراض الذي ينصب على منطوق المبدأ نفسه، ومؤداه أن عبارة المبدأ ليست عبارة علمية يمكن التحقق منها، وبالتالي يمكن رفض المبدأ باعتباره خاليا من المعنى . بيد أن هذه الحجة مردود عليها بما يسمى بنظرية الأنماط المنطقية التي مفادها أن العبارات اللغوية ليست من نمط واحد، ومقياس الصدق في أحد هذه الأنماط ليس هو مقياسه في النمط الآخر. تأمل العبارتين: "انكسر الزجاج لأن الرياح عصفت به" و"لكل حادثة سبب". فإذا وصفنا العبارة الأولى على أنها عبارة سببية ، إذن لا يمكن أن نصف الثانية بالطريقة ذاتها، إذ إن مبدأ السببية
لا يمكن أن يكون هو نفسه عبارة سببية تتناظر مع العبارات التي تضرب له الأمثلة. حقا إن تسميته مبدأ هو التصريح بأنه ليس عبارة على الإطلاق. وبطريقة مماثلة، يجب أن
لا نتوقع أن يكون مبدأ التحقق بذاته موضوعا للمعيار الذي يتحكم في رسم العبارات ذوات المعنى، فنحن لا نتوقع أن تزن آلة الوزن نفسها (19). ولكن إذا لم يكن مبدأ التحقق عبارة تقبل التحقق، فماذا عساه أن يكون؟ الجواب عند أصحاب الوضعية المنطقية أنه
لا يجب أخذ المبدأ بوصفه "عبارة" بل بوصفه "اقتراحا" أو"توصية" بألا نقبل القضايا على أنها ذوات معنى إلا إذا كانت قابلة للتحقق.

وهناك اعتراض آخر يتعلق بطبيعة الكائنات التي يطبق عليها المبدأ، أهي الجمل أم القضايا أم العبارات؟ لو أخذنا الجمل أولا، لوجدنا أن هناك صعوبة بشأن النظر إلى الجمل بوصفها صادقة أو كاذبة، ومن ثمّ كونها قابلة للتحقق أو غير قابلة. إذ لا يمكن للإنسان أن يتساءل ما إذا كانت الجملة "الباب مفتوح" صادقة أو كاذبة، لأن الجملة ذاتها ربما تستعمل لقول شيء صادق في مناسبة وكاذب في أخرى، صادق بالنسبة لمجتمع كلامي معين وكاذب بالنسبة لآخر، وبالتالي فإن الكلام

عن "منهج التحقق للجمل" لا معنى له. وفي محاولة للتغلب على هذه الصعوبة، استند أنصار المبدأ إلى مصطلح "القضية". وتبعا لاستعمال هذا المصطلح نجد أن الجملة "إنها تمطر" المنطوقة يوم الجمعة سوف تعبر عن القضية ذاتها "كانت تمطر في يوم الجمعة" المنطوقة يوم السبت أو الأحد. فالقضية هي اسم يختص بالشيء الذي يظل صادقا أو كاذبا طوال مجموعة منوعة من الجمل وعند أكثر من متكلم وفي أكثر من مناسبة.

ولكن إذا كان مبدأ التحقق باستعماله كلمة قضية بدلا من جملة قد تخلص من مشكلة، فإنه سرعان ما يقع في مشكلة أخرى تتعلق باستعمال المبدأ كمعيار لما هو ذي معنى. إذ يذهب أنصار المبدأ إلى أن القضية التي ليس لها منهج للتحقق ليس لها معنى، وهنا
لا يفيد معنى أن نطبق هذا المعيار على القضايا، مادامت القضية، بحكم تعريفها، صادقة أو كاذبة. وما يكون صادقا أو كاذبا لا يكون خاليا من المعنى، ومن ثمّ لا يصلح المبدأ كمعيار للتفرقة بين ما له معنى وما لا معنى له. وعلى هذا النحو يجد أنصار مبدأ التحقق أنفسهم أمام معضلة لا سبيل إلى الخروج من قرنيها، فإما أن يكون المبدأ حول الجمل، وبالتالي لا يمكن طرح السؤال: هل هي صادقة؟ وإما أن يكون حول القضايا وبالتالي
لا يمكن طرح السؤال: هل هي ذوات معنى؟ وخلاصة هذا الاعتراض هي أن المبدأ إما أنه غير ضروري أو لا سبيل إلى تطبيقه (20).

وهكذا أخذت الاعتراضات تتوالى، وجاء كل واحد منها بمثابة حجر عثرة أمام قبول مبدأ التحقق واستعماله. وكانت هذه الاعتراضات قوية إلى الحد الذي أجبر أنصار المبدأ إلى التنازل تدريجيا عن كثير من الدعاوي التي ذهبوا إليها. فقد ذهب اير وهو بصدد حديثه عن معيار القابلية للتحقق criterion of verifiability إلى أنه لا يشترط لكي تكون العبارة ذات معنى أن يكون التحقق منها" تحققا عمليا " بل يكفي التحقق "من حيث المبدأ" (21). وليس من شك في أن الصيغ المعدلة للمبدأ مثل التحقق بالمعنى القوي، والتحقق بالمعنى الضعيف، وقابلية التحقق العملي، وقابلية التحقق من حيث المبدأ، قد أظهرت مدى افتقاره إلى الدقة المرومة فيما يوهم أنه معيار صارم للمعنى . ولقد دفع إخفاق نظرية التحقق في المعنى بعض الفلاسفة إلى البحث عن نظرية ملائمة لطبيعة اللغة والبحث الفلسفي فيها، وتجسدت نتيجة هذا البحث في نظرية الاستعمال عند فتجنشتين المتأخر وفلاسفة مدرسة أكسفورد.

4– نظرية الاستعمال في المعنى

تعتمد نظرية الاستعمال في المعنى على افتراض مؤداه أن معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة، أي إن المعنى لا يتضح إلا من خلال وضع الكلمة أو التعبير في سياق . وثمة إرهاصات لهذه النظرية في كتابات فتجنشتين المبكرة، غير أن هذه الإرهاصات قد اكتملت وشكلت نظرية واضحة في كتبه المتأخرة، ثم جاء فلاسفة أكسفورد فطوروا هذه النظرية وأضافوا إليها أبعادا جديدة، وبالإضافة إلى ذلك فإنها تحظى بتأييد من أصحاب الاتجاه الوظيفي في علم اللغة.

والحق أن فتجنشتين المبكر قد ذهب في كتاب رسالة منطقية فلسفية إلى القول بنظرية الصورة في اللغة ومفادها أن اللغة رسم للوجود الخارجي أو تصوير له. بيد أن فتجنشتين المتأخر أدرك جوانب القصور في هذه النظرية وراح ينقد الافتراض العام الذي نسبه إلى أوغسطين ومؤداه أن معنى أية كلمة هو الشيء الذي تشير إليه أو تمثله. واستهل كتابه بحوث فلسفية بفقرة اقتبسها من كتاب الاعترافات لأوغسطين يقول فيها: "عندما كان يسمى (الأكبر سنا مني) موضوعا ما، ويتجهون وفقا لذلك نحو شيء، فإنني أرى هذا الشيء وأفهم أن الشيء تمت تسميته عن طريق الصوت الذي تلفظوا به عندما كانوا يقصدون الإشارة إليه. وكان قصدهم واضحا عن طريق حركاتهم الجسدية، كما لو كانت اللغة الطبيعية لكل البشر هي : تعبير الوجه وحركة العينين، وحركة أجزاء الجسم الأخرى، ونغمة الصوت التي تعبر عن حالاتنا الذهنية في البحث عن الشيء، ورفضه أو تجنبه. وهكذا، بما إنني استمعت إلى الكلمات مرارا وتكرارا وقد استعملت في مواضعها المناسبة في العبارات المختلفة، فقد تعلمت شيئا فشيئا أن أفهم الموضوعات التي يعنونها. وبعد أن دربت فمي على صياغة تلك العلامات، استعملتها للتعبير عن رغباتي"(22). ولكن فتجنشتين ينقد هذا التصور للغة بحجة أنه يعطينا صورة محددة لماهية اللغة الإنسانية على النحو التالي: الكلمات المفردة في اللغة تسمى الأشياء، والجملة مجموعة مؤتلفة من هذه الأسماء، ونجد في هذه الصورة للغة جذور الفكرة التالية: إن كل كلمة لها معنى، وهذا المعنى مرتبط بالكلمة، إنه الشيء الذي تشير إليه الكلمة (23).

وإذا أمعنا النظر في تصور اللغة الذي قدمه أوغسطين، وجدنا أنه نفس تصور فتجنشتين في الرسالة، وهو تصور ناقص دون شك، لأنه لا ينطوي إلا على جانب واحد من جوانب اللغة ألا وهو التسمية. ولقد ترتب على هذا التصور للغة تصور للمعنى فحواه أن معنى الكلمة هو الشيء الذي تشير إليه. وعندما حاول فتجنشتين اجتناب هذا النقص في نظرته للغة عثر على حيلة جديدة هي "ألعاب اللغة"، ولقد نتج عن هذا المفهوم المحوري الجديد نظرية جديدة في المعنى هي نظرية الاستعمال التي توجزها العبارة القائلة:
"لا تسأل عن المعنى، بل اسأل عن الاستعمال".

وقدم فتجنشتين أمثلة منوعة لمفهوم لعبة اللغة في كتاب بحوث فلسفية يقول في مثال منها : " لنفكر الآن في الاستعمال التالي للغة: إني أرسل شخصا ما إلى متجر، وأعطيه قصاصة من الورق مكتوبا عليها: "خمس تفاحات حمراء"، ويأخذ هذه الورقة ويذهب بها إلى صاحب المتجر، الذي يفتح درجا مكتوبا عليه: "تفاح"، ويبحث عن الكلمة "أحمر" في قائمة حتى يجد نموذج اللون المقابل لها، ثم يتلو سلسلة من الأعداد الصحيحة - وإني لأفترض أنه يعرفها عن ظهر قلب - إلى أن يصل إلى الكلمة "خمس"، وهو يأخذ مع كل عدد يتلفظ به تفاحة مثل النموذج الموجود خارج الدرج. وبهذه الطريقة وبطرق مماثلة يتعامل الإنسان مع الكلمات. ولكن ترى كيف يعرف الموضع، وكيف يبحث عن الكلمة "أحمر"، وما الذي هو فاعله بالكلمة "خمس"؟ حسنا، إنني أفترض أنه يفعل كما وصفت .. ولكن ما معنى كلمة "خمس"؟ ليس مثل هذا السؤال موضع بحث هنا، وإنما السؤال فحسب عن كيفية استعمال الكلمة (خمس) (24). ويسوق فتجنشتين مثالا ثانيا لألعاب اللغة يذهب فيه إلى أن غرض اللغة هنا هو التواصل بين البناء (أ) ومساعده (ب). (أ)

يبني بأحجار البناء ؛ فهناك قوالب، وقوائم، وبلاطات، ودعامات، و (ب) ينقل الأحجار بالنظام الذي به يحتاج إليها (أ). وهما يستعملان لهذا الغرض لغة تتألف من الكلمات "قالب" و"قائمة" و"بلاطة" و"دعامة". (أ) يطلبها (أي الكلمات) و (ب) يحضر الحجر الذي تعلم أن يحضره عند سماع مثل هذا النداء – وتخيل (هذا) على أنه اللغة الأصلية التامة" (25).

ويمكن أن نقارن الطريقة التي تستعمل بها كلمة "خمس" بالطريقة التي تستعمل بها كلمة بلاطة، مثلا، داخل لعبة اللغة في المثالين السابقين، ويتضح الاختلاف في استعمال هاتين الكلمتين عندما نقارن الإجراءات التي عن طريقها تم تعليم الاستعمال الخاص بهما. ففي المثال الأول من المفترض أن صاحب المتجر يحفظ سلسلة من الأعداد عن ظهر قلب وأنه تعلم كيف يستعمل هذه المعرفة في حالة عد التفاح على سبيل المثال، فهو يتلو سلسلة من الأعداد الصحيحة 1، 2، 3، 4، 5، ويأخذ مع كل عدد تفاحة من السلة، "ويجب أن يأخذ حذره فلا يعد تفاحة واحدة مرتين أو يغفل عن تفاحة، والعدد الذي يكون - طبقا لهذا الإجراء - متساويا مع التفاحة الأخيرة هو عدد التفاح في السلة. وهذا هو كيفية تعلم استعمال الأعداد، وكيفية استعمال الأعداد والعد والحصر. ثم نقارن هذا باستعمال كلمة "بلاطة" حيث يتم تعلم هذه الكلمة عن طريق شرح بسيط : إذ يتم نطق الكلمة بلاطة مرارا وتكرارا مع وجود البلاطة، وفي النهاية يكون المرء قادرا على مماثلة البلاط بصورة صحيحة داخل لعبة اللغة التي قد تعلمها" (26).

وتنطوي قائمة ألعاب اللغة عند فتجنشتين- والتي يدعونا فيها إلى ملاحظة كثرة هذه الألعاب - على الأمثلة التالية: إصدار الأوامر والامتثال لها ، ووصف المظهر الخارجي لشيء أو تقديم أحجامه، والتقرير عن حادثة، والتفكر حول حادثة، وصياغة الفرض واختباره، والتمثيل، وتخمين الأحاجي، والتساؤل، والسب، والترحيب، والتوسل (27).

ويذهب فتجنشتين إلى أنه لا يوجد قاسم مشترك أو صفة مميزة لكل الفاعليات التي نسميها "ألعاب"، وكل ما يمكن أن نجده بعد فحص الألعاب المنوعة ومقارنتها لا يزيد على أن يكون شبكة معقدة من التشابهات تتداخل وتتشابك كما هو الحال في التشابهات بين أفراد العائلة. يقول: تأمل على سبيل المثال الأحداث التي ندعوها "ألعاب"، وأقصد الألعاب ذات اللوحة الخشبية، وألعاب الورق، وألعاب الكرة، والألعاب الأولمبية، وهلم جرا، فما القاسم المشترك بينها جميعا؟ لا تقل : يجب أن يوجد شيء مشترك، أو يجب أن لا نسميها ألعاب ، ولكن انظر ولاحظ ما إذا كان هناك أي شيء مشترك بينها جميعا. ولو أنك نظرت إليها جميعا فلن ترى شيئا ما يكون مشتركا بينها جميعا، ولكن تشابهات وعلاقات.. وأكرر لا تتأمل ولكن انظر على سبيل المثال إلى الألعاب ذات اللوحة الخشبية بعلاقاتها المتنوعة، والآن انتقل إلى ألعاب الورق، تجد هنا تماثلات من المجموعة الأولى ، ولكن تتلاشى ملامح مشتركة عديدة، وتظهر ملامح أخرى. وعندما ننتقل بعد ذلك إلى ألعاب الكرة، يبقى كثير مما هو مشترك ويزول كثير ، فهل كل هذه الألعاب "مسلية"؟ قارن الشطرنج بالألعاب التافهة والمنافسات، أو هل يوجد دائما فوز وهزيمة، أو تنافس بين اللاعبين؟ وفكر بأناة. يوجد في ألعاب الكرة فوز وهزيمة، ولكن عندما يقذف الطفل كرته نحو الحائط ويمسك بها مرة ثانية، فهذا ملمح خيب الأمل في وجود فوز وهزيمة، وانظر إلى الجوانب التي يتم لعبها

عن طريق المهارة والحظ، وإلى الاختلاف بين المهارة في الشطرنج والمهارة في التنس ... ويمكن أن ندرك إلى أي مدى تتوارى التشابهات وتتلاشى. ونتيجة كل هذا الفحص هي : أننا نرى شبكة معقدة من التشابهات تتداخل وتتشابك" (28).

ويمعن فتجنشتين النظر في هذه التشابهات المتشابكة المتداخلة ثم يقرر: "إنني عاجز عن التفكير في تعبير نصف به هذه التشابهات أفضل من "تشابهات العائلة"، لأن التشابهات المتنوعة بين أفراد العائلة: بنية الجسم، والصورة، ولون العيون، وطريقة المشي، والمزاج، وهلم جرا، تتداخل وتتشابك بالطريقة ذاتها، وسوف أقول الألعاب تكون عائلة" (29).

وإذا كان ثمة نتيجة لابد من استخلاصها من تقديم مفهوم لعبة اللغة، فتلك هي أن ليس للغة وظيفة واحدة هي وصف الواقع ، بل هناك وظائف متعددة، كما أن الجمل
لا تنقسم إلى ثلاثة أنواع فحسب هي: التقرير والاستفهام والأمر وإنما هنالك أنواع كثيرة لا تعد ولا تحصي من استعمال الكلمات والعبارات.

ويقدم فتجنشتين تشبيها آخر إلى جانب تشبيه ألعاب اللغة هو الأداة tool. فاللغة نشاط يرتكز على استخدام الكلمات كأدوات، والهدف الذي يرمي إليه فتجنشتين من تقديم تشبيه الأداة هو أن يلفت أنظارنا إلى تنوع استعمال الكلمات كما تتنوع الأدوات في الصندوق، فنراه يقول : "تأمل الأدوات الموجودة في الصندوق، توجد مطرقة، وزرادية، ومنشار، ومفك، ومسطرة، ووعاء الغراء، ومسامير ورزات. ووظائف الكلمات المنوعة مثل هذه الأشياء (وتوجد تشابهات في الحالتين على حد سواء)" (30).

إذا كان فتجنشتين قد أسهب في الحديث عن اللغة باعتبارها لعبة أحيانا، أو باعتبارها أداة أحيانا أخرى، فذلك راجع إلى أنه ينظر إلى تكلم اللغة من حيث هو جزء من الفاعلية الاجتماعية، وطريقة للسلوك والحياة في مجتمع أو صورة من صور الحياة form of life، إذ يقول: "من السهل أن نتخيل لغة تتألف فقط من أوامر وبيانات... أو لغة تتألف فقط من أسئلة وتعبيرات للإجابة بنعم أو لا، وأشكال أخرى في اللغة لا تعد ولا تحصى. وتخيل اللغة يعني تخيل صورة الحياة" (31). ويقول أيضا: "ويعني تعبير ألعاب اللغة هنا إبراز الحقيقة التي مؤداها أن تكلم لغة هو جزء من الفاعلية أو من صورة الحياة" (32).

ويخلص فتجنشتين من تصوره هذا لطبيعة اللغة إلى نتيجة مفادها أن معنى الكلمة هو استعمالها في ألعاب اللغة المنوعة التي تقوم الكلمة بدور فيها، ويقرر تلك النتيجة بقوله : " فيما يتعلق بطائفة (كبيرة) من الحالات - وليس جميعها - التي تستعمل فيها كلمة "معنى" يمكن أن يتم تحديدها هكذا: معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة" (33). وخلاصة رأي فتجنشتين في هذه المسألة أن كل رمز أو كلمة في اللغة تبدو في ذاتها ميتة، ويأتي الاستعمال فيهبها الحياة، أو قل إن الاستعمال هو حياتها.

ولقد طور فلاسفة مدرسة أكسفورد نظرية الاستعمال وأضافوا إليها أبعادا جديدة حتى أصبحت نظرية تميزهم كتيار من تيارات الفلسفة التحليلية. وقدموا تعريف المعنى في حدود الاستعمال باعتباره قاعدة منهجية عملية، ونظروا بالتالي إلى السؤال: كيف تستعمل (س)، أو في أية السياقات تستعمل بطريقة ذات مغزى على أنه حيلة أو أسلوب على حد تعبير رايل ينبهنا إلى أمرين: أولا، الحقيقة القائلة إن الكلمات تعني بطرق مختلفة، ثانيا، أن معنى أية كلمة يرتبط دائما بالسياق الذي تستعمل فيه. ويذهب وارنوك إلى أن معرفة معنى الجملة هو معرفة كيفية استعمالها، ومعرفة في أي الظروف يكون استعمالها صحيحا أو غير صحيح، فالجملة تكون ذات معنى إذا كانت تملك استعمالا، ونحن نعرف معناها إذا عرفنا استعمالها (34).

ويرى فايزمان أن الكلام عن المعنى بوصفه ملازما للكلمات هو كلام مضلل، لأنه يبدو كما لو كان المعنى نوعا من الكائن السحري، ويتحد بالكلمة اتحاد الروح بالجسد، ولكن المعنى ليس روحا في جسد الكلمة، وما نسميه بالمعنى يكشف عن ذاته في استعمال الكلمة. إن القصد التام لتفسيرنا يمكن إيجازه بالقول: "إذا رغبت في معرفة ما تعنيه الكلمة، فانظر وتدبر كيف تستعمل" (35).

إذا كان معنى الكلمة أو العبارة هو استعمالها في اللغة، فيجب أن يكون هذا الاستعمال محكوما بقواعد بحيث يجعل الكلمة أو العبارة ذات مغزى، ومن ثمّ تأتي ضرورة التفرقة بين الاستعمال الصحيح والاستعمال غير الصحيح. فالاستعمال الصحيح هو الذي يجيء منسجما مع القواعد التي تضبطه، أما الاستعمال غير الصحيح فهو الذي لا يخضع لتلك القواعد. ومن هنا راح أصحاب نظرية الاستعمال يبحثون عن قواعد الاستعمال، ويتجلى هذا في بحث أوستن عن القواعد التي تحكم العبارات الأدائية(36)، وهي فكرة طورها كثير من أتباع أوستن مثل ألستون الذي ذهب إلى أن هناك قبولا واسع النطاق لوجهة النظر القائلة إن المعنى اللغوي هو مسألة قواعد، وإن شئت أن تضع ذلك بصورة أكثر وضوحا قل إن الحقيقة القائلة إن التعبير اللغوي له معنى معين هي الحقيقة القائلة إن استخدامه محكوم بقواعد معينة (37).

ويمكن أن نتناول مجموعتين من القواعد تصف إحداهما منطق العبارة: "من فضلك افتح الباب"، وهي من عبارات الرجاء، وتصف الأخرى منطق العبارة: "ضع الأطباق بعيدا"، وهي من عبارات الأمر، وذلك في ظروف الاستعمال الطبيعي لهاتين العبارتين:

(أ) س (المتكلم) يلتمس من ص (المستمع) أن يفتح الباب:

1- يجب أن يكون هناك باب في متناول اليد، ذلك الذي يكون متحددا بشيء ما في سياق الكلام.

2- يجب أن لا يكون الباب مفتوحا في الوقت الحالي.

3- يجب أن يكون في إمكان ص أن يفتح الباب.

4- يجب أن يكون لدى س الرغبة في أن يكون الباب مفتوحا.

(ب) س يأمر ص أن يبعد الأطباق :

1- يجب أن تكون هناك أطباق في متناول اليد، تلك التي تكون محددة بشيء ما في سياق الكلام.

2- يجب أن لا تكون هذه الأطباق موضوعة بعيدا في الوقت الحالي.

3- يجب أن يكون في إمكان ص أن يبعدها.

4- يجب على ص أن يبعدها وفقا لرغبة س.

5- لابد من أن يكون س في موضع السلطة بالنسبة إلى ص (38).

فإذا تأملنا القواعد التي تحكم استعمال العبارة الأولى: "من فضلك افتح الباب"، وجدنا أن مخالفة أية قاعدة من هذه القواعد تنتج لنا استعمالا غير صحيح. فمثلا تستعمل العبارة المذكورة استعمالا غير صحيح إذا لم يكن ثمة باب في متناول المتكلم والمستمع، كما تستعمل تلك العبارة استعمالا غير صحيح إذا كان الباب مفتوحا عندما نطق المتكلم عبارته، وإذا تم توجيهها إلى مستمع لا يقدر على تنفيذ الرجاء ، وهلم جرا.

وإذا كان فتجنشتين وفلاسفة مدرسة أكسفورد قد نظروا إلى اللغة باعتبارها جزءا من الفاعلية الاجتماعية، وطريقة للسلوك والحياة في مجتمع، فإن هنالك اتجاها في علم اللغة يؤيد هذه النظرة تأييدا كاملا ألا وهو الاتجاه الوظيفي الذي يضم فيرث J.R. Firth وهاليدي M. A. K. Halliday (39). ويتفق أصحاب هذا الاتجاه على فكرة تمثل حجر الزاوية بالنسبة لاتجاههم ومفادها: أن "اللغة أداة اتصال في الحياة الاجتماعية، وأن القواعد الاجتماعية والأعراف والتقاليد تتحكم في اللغة. وحينما نصف اللغة، فإننا يجب أن نصفها من خلال وظيفتها في البيئة الاجتماعية التي تؤدي فيها تلك اللغة وظيفتها" (40). ويذهب أنصار هذا الاتجاه إلى أن معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة، وأن المعنى يتجلى من خلال السياق، وتتعدد معاني الكلمة بقدر تعدد السياقات التي تستعمل فيها.

ولا يتسع المقام لضرب أمثلة كثيرة توضح صحة هذه الوجهة من النظر، وحسبنا أن نسوق بعضها. انظر إلى كلمة أطرق في السياقات التالية (41):

1- أطرق الرجل، أي سكت ولم يتكلم.

2- أطرق بصره، أي أقبل ببصره إلى صدره وسكت.

3- أطرق رأسه، أي أماله وأسكنه.

4- أطرق جناح الطائر، أي لبس الريش الأعلى الريش الأسفل.

5- أطرقت الأرض، إذا ركب التراب بعضه بعضا.

6- أطرقه فحلا، أعطاه إياه يضرب في إبله.

وتأمل كلمة سقط في السياقات التالية (42):

1- سقط الكتاب، وقع.

2- سقط على بعيره، أي عثر على موضعه.

3- سقط في كلامه، أخطأ.

4- سقط في يده، ندم.

5- سقط إلى قوم، نزلوا على.

وتأمل كلمة قدر في السياقات التالية (43):

1- قدر الرزق، قسمه.

2- قدر الشيء بالشيء، قاسمه.

3- قدرت أمر كذا و كذا، أي نويته وعقدت عليه.

4- قدر الشيء، دنا له.

5- قدر القوم أمرهم، دبروه.

6- قدرت عليه الثوب، أي جاء على المقدار.

7- ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (الزمر:67)، أي ما عظموا الله حق تعظيمه.

8- ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ (الأنبياء:87)، أي ظن أن لن نُضيق عليه.

9- ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ (الفجر:16)، أي ضُيق عليه.

من ذلك نرى أن معنى الكلمة يتحدد تبعا للسياق الذي ترد فيه، وبالتالي إذا شئنا دراسة دقيقة لمعاني الكلمات أو العبارات، فلابد من أن نضرب بمشارط التحليل في المواقف والسياقات التي

تقع فيها. وتختلف السياقات تبعا لاختلاف اللغات، بل تختلف في اللغة الواحدة تبعا لاختلاف البيئة الاجتماعية والإرث الثقافي للمجتمع.

وينقسم السياق، على الأرجح، إلى ثلاثة أنواع هي :

1- السياق اللغوي

هو السياق الذي يعتمد في تعيين معنى الكلمة أو التعبير على العناصر اللغوية التي تحيط بالكلمة أو ترد في التعبير. مثل كلمة زوج، فالمعجم يقول إن الكلمة تستخدم في اللغة الفصيحة للمذكر والمؤنث. ولكن في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (النساء: 20) نجد أن السياق يحدد معنى الكلمة بالمؤنث بدلالة القرائن المصاحبة للنص. وقل مثل ذلك عن الجمع أزواج، فهي كلمة تطلق على المذكر والمؤنث، ولكننا نجدها في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (التحريم: 3) وقد تحدد معناها في سياقها بالمؤنث بشهادة القرائن اللغوية(44). ويعد التنغيم من القرائن اللفظية التي تقوم بدور مهم في السياق اللغوى، إذ العبارة الواحدة ربما تكون تقريرية أو استفهامية أو تهكمية أو طلبية، والتنغيم هو الذي يميز بين هذه المعاني.

2- سياق الموقف

ارتبط مصطلح سياق الموقف context of situation باثنين من الباحثين هما، أولا عالم الانثروبولوجيا مالينوفسكي B.Malinowski ، وبعد ذلك عالم اللغة فيرث J.R. Firth . واهتم العالمان بتقرير معنى التعبير أو الكلمة في حدود السياق الذي تستعمل فيه، ولكن بطرق متباينة إلى حد ما. وكان مالينوفسكي يعني بسياق الموقف الظروف الطبيعية والاجتماعية التي تحيط بنطق العبارة، وتابعه فيرث في هذه الفكرة وأضاف إليها أبعادا جديدة. فعلى حين كان سياق الموقف عند مالينوفسكي جزءا من عملية اجتماعية يمكن تناولها بشكل منفصل، نجد أن فيرث يعتبر سياق الموقف جزءا من أدوات عالم اللغة التي يعتمد عليها في التحليل اللغوي، وعناصر سياق الموقف كما اقترحها
فيرث هي (45):

(أ) الجوانب المتصلة بالمشاركين، أي الأشخاص وشخصياتهم، وتنطوي على:

1- العمل اللفظي من جانب المشاركين.

2- العمل غير اللفظي من جانب المشاركين.

(ب) الموضوعات ذات الصلة بالموقف.

(ج) أثر العمل اللفظي.

ولقد فطن البلاغيون المسلمون إلى فكرة سياق الموقف من قبل عندما قالوا "لكل مقام مقال". والحق أن توضيح المعنى على المستوى الوظيفي (الصوتي والصرفي والنحوي) وعلى المستوى المعجمي (العلاقات العرفية بين المفردات ومعانيها)
لا يقدم لنا إلا معنى المقال أو المعنى الحرفي كما يسميه النقاد أو معنى ظاهر النص كما يسميه الأصوليون (46). وإذا شئنا أن نقدم المعنى الدلالي في صورته الكاملة، فلابد من أن نضيف إلى المعنى المقالي جانبا آخر هو المعنى المقامي وهو ظروف أداء المقال ويسمى المقام.

والمقام ضروري لفهم المعنى الدلالي، " فالذي يقول لفرسه عندما يراها: "أهلا بالجميلة " يختلف المقام معه عن الذي يقول هذه العبارة لزوجته. فمقام توجيه هذه العبارة للفرس هو مقام الترويض وربما صحب ذلك ربت على كتفها أو مسح على جنبها، أما بالنسبة للزوجة فالمعنى يختلف بحسب المقام الاجتماعي أيضا. فقد تقال هذه العبارة في مقام الغزل أو في مقال التوبيخ أو التعيير بالدمامة. فالوقوف هنا عند المعنى المعجمي لكلمتي " أهلا " و"الجميلة" وعلى المعنى الوظيفي لهما وللباء الرابطة بينهما لا يصل بنا إلى المعنى الدلالي، ولا يكون وصولنا إلى هذا المعنى الدلالي
إلا بالكشف عن المقام الذي قيل فيه النص " (47).

3- السياق الثقافي

إذا كانت الثقافة من السمات التي تميز مجتمعا من غيره من المجتمعات، وكانت اللغة في مجتمع معين تعبيرا في جانب كبير منها عن خصوصية ثقافة هذا المجتمع، فإن تحديد دلالات كثير من العبارات في تلك اللغة يتطلب تحديدا للبيئة الثقافية التي استعملت فيها، وهذا يعني أن هناك في كل لغة مجموعة كبيرة من التعبيرات الاصطلاحية والأمثال والحكم وما يجري مجراها من عبارات يتعذر ترجمتها إلى لغة أخرى ما لم نقدم بين يديها شرحا وافيا للخلفية الثقافية التي أفرزتها؛ وكذلك يتعذر نقل بعض الآيات القرآنية إلى أية لغة أجنبية ما لم نسبقها بشرح كاف لثقافة المجتمع العربي والإسلامي الذي نزلت فيه (48)، مثل قوله تعالى :﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة : 3).

على أن الذي دفعنا إلى قبول نظرية الاستعمال في المعنى هو أن هذه النظرية ملائمة أكثر من سواها لطبيعة اللغة والبحث الفلسفي فيها، إذ إنها تستوعب كثيرا من النظريات الأخرى في المعنى وتتفادى نقائصها. ويمكن بيان ذلك على النحو التالي :

1- تتفادى نظرية الاستعمال الصعوبات التي كانت عقبة كأداء في سبيل نظرية الأفكار في المعنى، والتي تتمثل في صعوبة تحديد الأفكار وماذا عسى أن تكون؟ هل هي الأفكار المجردة، أم الحادثات العقلية، أم هي الصور الذهنية؟ وذلك لأنها
لا ترتكز على الفكرة الذهنية المناظرة للتعبير، بل ترتكز على الاستعمال الفعلي له. وفي هذا الإطار أيضا نجد أن نظرية الاستعمال تتفادى الانتقادات الموجهة إلى معالجة المذهب العقلي الحديث في المعنى عند تشومسكي وأتباعه، لأنه إذا كان معنى التعبير يكمن في القواعد أو المواضعات التي تتحكم في استعماله في اللغة، فمن الخطأ النظر إلى المعاني على أنها مفاهيم في العقل لأن هذا يجعلها ذاتية ولا سبيل إلى معرفتها إلا بالنسبة للشخص نفسه.

2- تؤكد نظرية الاستعمال على أن فهم معنى التعبير هو معرفة القواعد التي تتحكم في استخدامه في الوظائف اللغوية المنوعة مثل التقرير، والتساؤل، والأمر، والتهكم وغيرها. ومن زاوية عملية التعلم يمكن القول إن تعلم معنى التعبير هو تعلم كيفية استعماله في هذه الوظائف. ويلزم عن هذا أنه من الضلال والتضليل الظن بأن المعاني تمثل نوعا معينا لكائنات لا زمانية تدعي القضايا وتقطن في عالم ثالث كما زعم فريجه ومن سار على دربه.

3- إن نظرية الاستعمال لا تواجه الصعوبات التي واجهت النظرية الإشارية في المعنى، مثل وجود رموز ذوات معنى دون أن تكون ذوات ما صدق ووجود رموز ذوات ما صدق واحد على الرغم من عدم ترادفها في المعنى. وتفسر نظرية الاستعمال الحالة الأولى بأنها تنشأ حين تكون هناك قواعد تحكم استعمال الرمز على حين لا يوجد موضوع يصدق عليه ذلك الرمز، أما الحالة الثانية فتنشأ حين تكون هناك، بالنسبة لكل رمز، قواعد مختلفة تحدد الموضوع الذي يشير إليه الرمز أو يصدق عليه، على حين يكون الموضوع أو الموضوعات التي يتم تحديدها في هذه الحالة شيئا واحدا في الواقع (49).

4- إذا كانت نظرية إمكانية التحقق في المعنى قد افترضت أن للتعبيرات وظيفة واحدة مشروعة هي الوصف، فقد نقد أوستن هذا الافتراض وأطلق عليه اسم المغالطة الوصفية، وذهب مع غيره من أصحاب نظرية الاستعمال إلى أن هناك عددا من الوظائف اللغوية المتميزة التي لا يشكل الوصف إلا واحدة منها، وليس أكثرها أهمية بالنسبة إلى عمل الفيلسوف. ولقد أفضى بهم ذلك إلى الكشف عن صياغة نظريات جديدة لأنماط معينة من استعمالات اللغة مثل نظرية أفعال الكلام عند أوستن.

5- على حين زعمت نظرية إمكانية التحقق في المعنى أن التعبير اللغوي له معنى محدد ثابت ومستقل تماما عن المتكلم والمستمع، ومستقل عن كل جوانب السياق ما عدا الجانب المتمثل في طبيعة وجود الأشياء في الخارج، تذهب نظرية الاستعمال إلى أن التعبير الواحد يمكن أن يكون له أكثر من معنى، والذي يفصل بين هذه المعاني هو السياق الذي يرد فيه التعبير.

***

هوامش الفصل الرابع

1) ابن جني، أبو الفتح عثمان،الخصائص ، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1986، ص34.

G. Ryle, "Introduction", in The Revolution in Philosophy, by, A. J. (2
.Ayer (and Others), Loodon Macmillan & Co.LTD, 1956, p. 8

G. Ryle, "The Theory of Meaning", in C. E. Caton (ed) Philosophy (3
and Ordinary Language, Urbana,LIl: University of TIlinois, Press,
,1963
.p. 128

M. Dummett, Frege: Philosophy of Language, New York, (4
.Evanston, San Francisco, London : Harper &Row,1973, p.669

D. Follesdal, "Mening and Experieace", in S. Guttenplan (ed), (5
.Mind and Language, Oxford: Ciarendon Press, 1975, p.25

6- ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمه وقدمه وعلق عليه د. كمال بشر، مكتبة الشباب القاهرة، 1975، ص 62.

J. J.Katz, Semantic Theory, New York: Harpwr & Row, 1972,pp.1- -7
.2

.W. P. Aiston, Philosophy of Language, p. 11 ff -8

9- د. محمود فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية، بيروت،1985، ص 96-97 .

10- انظر: د. صلاح إسماعيل، البراجماتية الجديدة : فلسفة ريتشارد رورتي، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة،2013 ، ص83.

John Locke, An Essay Concerning Human Understamding, vol.2, -11
.Book 111,ch.11,sec. 1, p.12

.W. P. Alston, Philosophy of Language, pp. 23-24 -12

13- D. M. Taylor, Explanation and Meaning, Cambridge: Cambridge University Press, 1970, pp.139-140.

14- د. عزمي إسلام، مفهوم المعنى: دراسة تحليلية، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية السادسة،1985، ص59.

15- W.V.Quine, From A Logical Point of View, Second Edition, New York and Evanston : Harper Torch Books, 1963, p.4.

16- المرجع السابق، الفقرة 5 و6، ص 138.

17- M. Schlick, "Meaning and Verification", in A, Lehuer and K Lehrer (eds) The Theory of Meaning, Englewood Ciffis, NJ: Preatice- Hall, 1970, pp.100-101.

18- F. Waismann, "Verifjcation and Definion", in O. Hanfling (ed.) Essential Readings in Logical Positivsim, Basil Bllakwell, Oxford, 1981, p.27.

19- J. L. Evans, "On Meaning and Verifcation," Mind, Vol, LXll, 245, 1953, p. 3.

20- O. Hanfling, Logical Positivsm, Oxford: Basil BlackWell, 1981, p.16.

21- A. J. Ayer, Language, Truth and Logic, New York Dover Publications, 1952, p.36.

22- L.Wittgenstein, Philosophical Investigations, Part 1, sec. 1,p.2.

23- Ibid., Part 1, sec.1, p.2.

24- Ibid., Part 1, sec.2, pp.2-3.

25- Ibid., Part 1, sec.2, p.3.

26- P.Feyerabend, “Wittgenstein’s Philosophical Investigations”, The Philosophical Review, Vol. LXIV, 1955, p.462.

27- L.Wittgenstein, Philosophical Investigations, Part 1, sec.23, p.11.

28- Ibid., Part 1, sec.66, pp. 31-32.

29- Ibid., Part 1, sec.67, p. 32.

30- Ibid., Part 1, sec.12, p. 6.

31- Ibid., Part 1, sec.19, p. 8.

32- Ibid., Part 1, sec.23, p. 11.

33- Ibid., Part 1, sec.43, p. 20.

34- M.Weitz,"Oxford School," The Philosophical Review, Vol. LXII, 1953, p.197.

35- F.Waismann, The Principles of Linguistic Philosophy, edited by R.Hare, London: Macmillan, 1968, p.156.

36- انظر: كتابي التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنور للطباعة والنشر، بيروت، 1993، ص 142-143.

37- W.Alston, "Semantic Rules," in Semntics and Philosophy, M.K.Munitz and P.K.Ungr (eds.), New York: New York University Press, 1974, p. 17.

38- W.P.Alston, Philosophy of Language, p. 40ff, and See E.A.Burtt, In Search of Philosophic Understanding, London, George Allen&Unwin LTD, 1967, pp.34-35.

39- M.A.K.Halliday, Language as Social Semiotic, London: Edward Arnold, 1978, p.36ff.

40- د. يحيى أحمد " الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة" ، ص 97.

41- ابن منظور لسان العرب، دار المعارف القاهرة، دون تاريخ، جزء 30، ص 2662 وما بعدها.

42- المرجع السابق، جزء 23، ص 2037 وما بعدها.

43- المرجع السابق ، جزء 39، ص 3545-3548.

44- د. عاطف مدكور، علم اللغة بين القديم والحديث، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة 1986، ص213. وانظر: د. محمد حماسة عبد اللطيف ، النحو والدلالة، ص 117.

45- J.R.Firth, Papers in Linguistics 1934-1951, London: Oxford University Press, 1964, p. 182.

46- د. تمام حسان، اللغة العربية مبناها ومعناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1973، ص 337.

47- المرجع السابق، ص 432.

48- انظر: د. عاطف مدكور، علم اللغة بين القديم والحديث، ص 215- 216.

49- د. عزمي إسلام، مفهوم المعنى : دراسة تحليلية، ص 70-71.

******

الفصل الخامس

نظريات قصد الاتصال

1- تمهيد

2- إسهامات جرايس وعلاقته بفلسفة اللغة العادية

3- معركة هوميرية: نظريات الاستعمال في مقابل النظريات الصورية

4- المعنى لدى المتكلم

5- نظرية قصد الاتصال وبنية الجملة

6- المعنى اللغوي

نظريات قصد الاتصال

1- تمهيد

لست أعرف فيلسوفا معاصرا كرس جل جهده الفلسفي لمفهوم المعنى، وما يدور في فلكه من مفاهيم أخرى، مثلما فعل الفيلسوف الإنجليزي بول جرايس 1988 – 1913) Paul Grice) إلى درجة أننا نستطيع أن نسميه بحق فيلسوف المعنى. وأعتقد أن هذا الوصف يصوره أصدق تصوير وأدقه. وهو نفسه يقول عن هذا الجانب من فلسفته: " لقد سبب لي كثيرا من القلق وأحدث أيضا توقدا أكثر (من أي جانب آخر)" (1). ومهما تقرأ من فلسفة جرايس، ومهما يكن الموضوع الذي يعالجه، فسترى دائما تحليله للمعنى شائعا فيما يعالج، منبثا فيه كما ينبث الماء في الغصن. ولا غرو بعد ذلك أن أقول عنه إنه فيلسوف قنفذ، إذا جاز لي أن استعمل الاستعارة الجميلة التي ابتكرها أشعيا برلين (1909 – 1997).

لقد أورد برلين في كتابه المفكرون الروس عام 1978 (في فصل بعنوان: "القنفذ والثعلب"، أعيد نشره ضمن مقالات مختارة من كتابات برلين بعنوان الدراسة الملائمة للجنس البشري عام 1998) بيتا من الشعر الإغريقي يقول: "يعرف الثعلب أشياء كثيرة، ولكن القنفذ يعرف شيئا واحدا كبيرا". وتذهب الآراء في التفسير الصحيح لهذه الكلمات مذاهب شتى، ولكن برلين يرى أننا إذا أخذناها بطريقة مجازية، كان في وسعنا أن نفصل بين نوعين من الكتّاب والمفكرين وربما الكائنات البشرية بصفة عامة: القنافذ في ناحية، والثعالب في ناحية أخرى. فأما القنافذ "فهم الذين يربطون كل شيء برؤية واحدة أساسية، وبنسق واحد، وفي حدوده يفهمون ويفكرون ويشعرون.. (وأما الثعالب) فهم الذين يبحثون عن غايات كثيرة، لا ترتبط فيما بينها في غالب الأمر بل وحتى

تكون متناقضة، وترتبط فقط - إذا ارتبطت على الإطلاق - بطريقة ما واقعية، وبسبب سيكولوجي أو فسيولوجي، ولا ترتبط بمبدأ أخلاقي أو جمالي" (2).

وأنت ترى إذن أن المفكرين القنافذ يسترشدون بفكرة أساسية واحدة ثم يتعمقون فيها، وينطوون عليها كما تنطوي القنافذ على نفسها. وأما المفكرون الثعالب فهم الذين يستكشفون أفكارا كثيرة متنوعة بينما يجوبون في فجاج الفكر كما تجوب الثعالب في فجاج الأرض. صحيح أن جرايس قد تميز من بعض رفاقه في أكسفورد الذين وقعوا في شراك اللغة، وذلك عندما وسع من دائرة اهتماماته الفلسفية شيئا ما، ولكن انشغاله طوال حياته بمفهوم المعنى يجعلنا ندخله دون أن نجاوز الحق، في زمرة الفلاسفة القنافذ. وهو في ذلك يختلف عن الفيلسوف الإنجليزي المعاصر مايكل دميت Michael Dummett (1925 - 2011)، الحاصل على لقب سير، الذي حفل بالمعنى احتفالا عظيما جدا، ولكنه وصف نفسه في شيء من السعادة على أنه ثعلب "ينطلق ليشم هنا وهناك بين أشياء كثيرة يعرف القليل عن كل واحد منها" (3).

2- إسهامات جرايس وعلاقته بفلسفة اللغة العادية

إذا شئنا أن نفهم نظرية جرايس في المعنى فهما دقيقا، فمن الضروري أن نلقي نظرة عامة على تصوره لطبيعة الفلسفة، ونوضح إسهاماته في فلسفة اللغة بصفة عامة، ونبين مكانته في التيار الفلسفي الذي ينتمي إليه داخل الفلسفة التحليلية. وهذه الجوانب وغيرها خليقة أن تذلل لنا الطريق إلى فهم جرايس التي لطالما وصفت بأنها عسيرة ووعرة وملتوية.

ولد هربرت بول جرايس في برمنجهام بإنجلترا في الخامس عشر من مارس عام 1913، وعمل أستاذا في جامعة أكسفورد من عام 1938 حتى عام 1967 باستثناء الفترة التي قضاها في الخدمة العسكرية خلال الحرب العالمية الثانية. وفي عام 1967 انتقل إلى جامعة كاليفورنيا - بيركلي، وظل يعمل بها حتى بلغ سن التقاعد في عام 1979، وواصل التدريس حتى عام 1986، ثم وافته المنية في بيركلي عام 1988. واشتهر جرايس بإسهاماته في فلسفة اللغة وبخاصة تحليله للمعنى لدى المتكلم speaker`s meaning أو نظرية قصد الاتصال في المعنى، أومشروع علم الدلالة القائم على القصد intention - based semantics على حد تعبير ستيفن شيفر، ونظرية الاقتضاء التحادثي conversational implicature، زد على ذلك إسهامه في فلسفة الأخلاق التي حاول أن يقدم فيها أساسا ميتافيزيقيا للقيمة، وعمله في علم النفس الأخلاقي، وعلم النفس الفلسفي. وظهرت كتابات جرايس في المعنى على هيئة مقالات نشرت في المجلات الفلسفية الرائدة على مدار ما يزيد على ثلاثين عاما، وجمعت هذه المقالات في كتاب دراسات في طريق الكلمات عام 1989، ونشر له كتاب في الأخلاق بعنوان: مفهوم القيمة عام 1991، وظهر له أخيرا كتاب بعنوان جوانب العقل عام 2001. ويقول محرر الكتاب الأخير ريشارد وارنر إن جرايس عمل في هذا الكتاب بين الفينة والفينة على الأقل من عام 1975 حتى نهاية حياته في عام 1988. وتؤكد آراؤه في الاستدلال العقلي على نظريته في المعنى بالإضافة إلى منهجه العام في معالجة مشكلات الفلسفة (4).

وإذا كان جرايس يمتاز بشيء في تكوينه الفكري وإنتاجه الفلسفي، فإنما يمتاز بدراسة الفلاسفة العظماء في الماضي والنظر إلى أرسطو وكانت بعين الإكبار والإجلال. وهذه العناية بدرس الماضي تكاد تكون غائبة في كتابات كثير من الفلاسفة الأحياء. ويمتاز جرايس أيضا بأنه "كان دقيقا في عرض المشكلات الفلسفية، ودقيقا في الكشف عن القضايا التحتية، والمسائل المنهجية" (5).ومهما كانت الصعوبة التي يكابدها المرء في قراءة نصوصه، فسوف يجد أن هذه النصوص تفيض حيوية، وأن سر هذه الحيوية هو أنه يعشق الأفكار ويعكف عليها ويفرغ لها.

ولعل السبب في أن جرايس كان مقلا فيما ينشره هو أنه وضع لنفسه ولغيره من الفلاسفة معايير عالية إلى درجة يتعذر تحقيقها وفي مقدمتها تحري طرائف الأفكار، وهو لا يتحرى جدة الأفكار وطرافتها فحسب، وإنما يتحرى أيضا دقتها ووضوحها ويتقي لبسها وغموضها. ولقد نشر مجموعة مقالات من الطراز الرفيع، حظيت بتقدير غيره من الفلاسفة، ونوقشت على نطاق واسع، وأصبحت من كلاسيكيات الفلسفة المعاصرة. ومع كل هذا كان يرغب دائما عن أن تذهب إلى المطبعة في كتاب ! ولطالما ألح الأصدقاء والناشرون عليه لكي يجمعوا ما تفرق من مقالاته، ولكنه كان يمتنع على هؤلاء امتناعا شديدا، وكان يبغض الإسراع إلى الإنتاج أشد البغض، ويؤثر عليه طول النظر والتأني والتعمق.

ولا عجب بعد هذا كله أن يقول هيلاري بتنام (Hilary Putnam (1926 - 2016 في كلمة على غلاف كتاب جرايس دراسات في طرق الكلمات: "تأتي أهمية بعض الفلاسفة نتيجة لأنهم قدموا مقالا مهما أو نظرية مهمة . وتأتي أهمية بعضهم الآخر نتيجة لأنهم يملكون عقولا تتألق بطريقة معينة بالإضافة إلى تقديم المقالات والنظريات. وجرايس فيلسوف من هذا النوع الثاني العظيم... إن ألمعيته وقدرته العقلية، وتأثيره البالغ هي وسائل لنقل صورة عن الفلسفة، وهي صورة تحمل شيئا كثيرا يقال للفلاسفة التحليليين اليوم ". ويقول ستراوسون P.F. Strawson (1919 - 2006))، وهو حاصل على لقب سير، إن جرايس " واحد من أعظم المفكرين براعة وإبداعا في عصرنا. .. ولقد تعلمت منه أكثر من أي شخص آخر صعوبة الحجة الفلسفية وإمكاناتها، وبدت سعة حيلته لا تنضب
ولا تنفد" (6).

ولقد وضع جرايس جملة من الأفكار في المعنى والاتصال حفل بها الفلاسفة، وأصحاب العلم المعرفي وعلماء اللغة، ويظهر في طليعتها ما يلي:

1- يؤكد جرايس على الأهمية الفلسفية للفصل بين المسائل التالية المتعلقة بجملة معينة (س) والمتكلم (م):

أ- ما تعنيه الجملة (س).

ب- ما (قاله) المتكلم (م) في مناسبة معينة بنطق (س).

جـ- ما (يعنيه) المتكلم (م) بنطق الجملة (س) في هذه المناسبة.

2- قدم محاولات نسقية لبيان ما عسى أن يكون المعنى على وجه الدقة، وتجسدت هذه المحاولات في سلسلة من التحليلات الدقيقة إلى أبعد الحدود للمعنى لدى المتكلم، ومعنى الجملة، والمقول.

3- وضع تقريرا يوضح إلى أي حد يمكن أن يختلف ما يقوله المتكلم عما يعنيه المتكلم.

4- عندما وصف التمييز المهم فلسفيا بين المضامين الدلالية الحقيقية للعبارة ومضامينها الاستعمالية فحسب، وضح العلاقة بين المنطق الكلاسيكي وعلم الدلالة الخاص باللغة الطبيعية (7).

5- عندما ابتكر نظريته في "الاقتضاء التحادثي" وابتكر لها اسمها كذلك، بدأ عهدا جديدا في علم الاستعمال pragmatics، وشق طريقا فريدا إلى معالجة مشكلات الفلسفة؛ ذلك أن الاقتضاء التحادثي لم يكن نظرية لغوية فحسب، وإنما كان أداة مثمرة لحل كثير من المشكلات الفلسفية والمنطقية أيضا.

والشيء المحقق أن جرايس أجبر الفلاسفة وعلماء اللغة على التفكير بعناية شديدة حول أنواع الحقائق التي تسعى النظرية الدلالية إلى تفسيرها؛ وأجبرهم أيضا على التأمل في الأفكار النظرية الأساسية التي ربما سلموا بصحتها أو استخدموها استخداما يعوزه الاهتمام الكافي. وليس من شك في أن اقتراحات جرايس الإيجابية عليها بعض المآخذ وتشوبها بعض النقائص، ولكن على ضوء عمله، يتعين على أية نظرية جادة في المعنى أن تضع خطا فاصلا بين الحقائق الدلالية semantic الخالصة والحقائق المتعلقة بطبيعة التفاعل الإنساني human interaction (8).ومن اليسير أن تدرك كيف يؤثر عمل جرايس تأثيرا عميقا في الدرس الفلسفي المعاصر في اللغة، شأنه في ذلك شأن كبار الفلاسفة. انظر إلى مفهومه عن المعنى لدى المتكلم (ضمن نظرية المعنى theory of meaning) ونظريته في الاقتضاء التحادثي (ضمن نظرية المحادثة theory of conversation) تجد أنهما يوضعان من حيث الأهمية والأثر جنبا إلى جنب مع تمييز فريجه بين المعنى sense والإشارة reference، ونظرية الأوصاف theory of descriptions عند رسل Bertrand Russell (1872– 1970)، ونظرية تارسكي Alfred Tarski (1902 – 1983) في الصدق وتطوير ديفيدسون لها، ومذهب اللا تحديد في الترجمة indeterminacy of translation عند كواين، ونحو ذلك من نظريات تمثل لب لباب فلسفة اللغة المعاصرة.

وكان جرايس واحدا من الأعضاء البارزين في فلسفة اللغة العادية ordinary language philosophy ، وكان متعاطفا مع كثير من أهدافها ومناهجها. وفلسفة اللغة العادية – التي تسمى أحيانا فلسفة مدرسة أكسفورد – هي منهج لممارسة الفلسفة أحرى من أن تكون مذهبا محكوما بعقائد معينة، وتنتمي هذه المدرسة إلى الفلسفة التحليلية وتمثل مرحلة متأخرة من مراحل تطورها، ولذلك فإنها تقتسم معها هدفها الأساسي، أو الهدف الأساسي من بين أهدافها، ألا و هو تحليل

المفاهيم أحرى من بناء الأنساق الميتافيزيقية. ولكن الشيء الذي اختلفت فيه مدرسة أكسفورد مع التيارات الأخرى في الفلسفة التحليلية هو دراسة استعمال الكلمات في سياقها العادي غير الفلسفي، واعتبار هذه الدراسة أداة مساعدة للبحث الفلسفي. يقول جرايس: "إن الموقف الوحيد الذي حظي بموافقة عامة (من فلاسفة اللغة العادية) من وجهة نظري هو أن الفحص الدقيق للجوانب التفصيلية في الخطاب العادي مطلوب بوصفه أساسا للتفكير الفلسفي " (9).

وتأسست هذه المدرسة الفلسفية في جامعة أكسفورد في أربعينيات القرن الماضي وكانت تضم جون أوستن J. L.Austin (1911-1960) وجلبرت رايل Gilbert Ryle (1900-1976) وبيتر ستراوسون Peter F. Strawson (1919 - 2006) وأشعيا برلين وريتشارد هير وغيرهم. ولم يكن فلاسفة أكسفورد على رأي واحد في كل التفصيلات، بل هم لا يجتمعون معا إلا على الأسس العامة التي تشكل جوهر اتجاههم، ثم بعد ذلك يفترقون؛ فلكل مشكلاته التي يُعنى بها أكثر من غيرها، ولكل إسهامه الخاص في معالجة هذه المشكلات، ونستطيع أن نقول إن الارتباط بينهم أشبه شيء بالتشابه العائلي. وبعد وفاة أوستن في عام 1960، وعودة اير A.J.Ayer (1910 – 1989)) إلى أكسفورد بعد غياب طال أمده، وتحول اهتمام الفلاسفة إلى فلسفة كواين وديفيدسون وغيرهما من الفلاسفة التحليليين الأمريكيين، أخذ التحلل يسري في أوصال هذه الحركة شيئا فشيئا.

ويشترك جرايس مع غيره من فلاسفة اللغة العادية في التوكيد على اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية، أما تصوره للعلاقة بين ممارسته الفلسفية الخاصة وفلسفة اللغة العادية، واقتسامه للفكرة القائلة إن الخطاب العادي غير الفلسفي جدير بعناية الفيلسوف، فيتضح من خلال تأييده للقضيتين التاليتين:

1- إن الجانب المهم من وظيفة الفيلسوف، وليس الوظيفة كلها، هو تحليل الاستعمالات العادية لتعبيرات معينة ووصفها وتصوير خصائصها في حدود عامة ما استطاع إلى ذلك سبيلا. فإذا تناول الفيلسوف فكرة العلة، فإننا نتوقع أن نجده باحثا، من بين أشياء أخرى، في نوع المواقف التي نتحدث فيها حديثا عاديا ونكون على استعداد للكلام عن شيء بوصفه علة لحدوث شيء آخر. وإذا تناول الإدراك الحسي، فإننا نتوقع أن يبحث في نوع المواقف التي نتحدث فيها حديثا عاديا عن شخص يرى شجرة أو ثمرة مثلا. وإذا عالج مشكلة المعرفة والاعتقاد، فإننا نتوقع أن يبحث في نوع المواقف التي نتحدث فيها حديثا عاديا عن شخص يعرف أن شيئا ما هو الواقع أحرى من اعتقاده بذلك. وخليق بنا أن نشير إشارة خاصة إلى تلكم الحالات التي يلتمس فيها المرء أشياء لا تقال بطريقة عادية على الإطلاق. خذ مثلا مناقشة المعرفة والاعتقاد. تجد أنه من المفيد أن نضع ملاحظة عن حقائق لغوية من قبيل أن المرء ربما يتحدث دون خطأ لغوي عن شخص بوصفه "يعتقد على نحو راسخ" firmly believing في شيء، ولكنه لا يتحدث عن شخص بوصفه " يعرف على نحو راسخ " firmly knowing شيئا ما. وهذه الحقائق اللغوية - أو على الأقل الإجابات عن السؤال: لماذا تكون هذه حقائق لغوية - ربما تكون ذات أهمية فلسفية (10).

2- من الخطأ بيقين تقريبا (وربما بيقين تماما) أن نرفض فئة من العبارات العادية بوصفها كاذبة أو محالة أو غير صحيحة لغويا، إذا قام هذا الرفض على أسس فلسفية فحسب. خذ مثلا، إذا شاء فيلسوف أن يثبت من خلال حجة فلسفية أننا
لا نرى أبدا في الواقع أشجارا وكائنات بشرية، مع أننا نقول بصورة عادية إننا نراها، فإن هذا الفيلسوف سيكون مخطئا بيقين تقريبا (وربما تماما) (11).

ولكن هل تأييد جرايس لهاتين القضيتين يلزمه بتبني القول إن الاستعمالات غير العادية للغة يجب أن تكون محظورة على الفيلسوف ويجب عليه أن يتجاهلها؟ الجواب عنده بالنفي. فليس استعمال التعبيرات استعمالا عاديا هو الذي يميز الفيلسوف من غير الفيلسوف، وإنما القيد الوحيد الذي يراه جرايس في هذه النقطة هو "أن الفيلسوف الذي يستخدم مصطلحا فنيا لابد من أن يدرك أنه مصطلح فني، ومن ثمّ يكون في حاجة إلى تفسير خاص. وعندما يعترض فيلسوف على حجة فيلسوف آخر بالقول: "ولكن هذا ليس استعمالا عاديا للتعبير كذا وكذا " فإن اعتراضه لا يكون على الاستعمال غير العادي أو الاصطلاحي للتعبير، وإنما يكون على استعمال التعبير بطريقة غير عادية "من دون" التفسير الضروري. ويكون الاعتراض بالفعل على إخفاق المتكلم في إدراك أنه قد استبدل الاستعمال غير العادي بالاستعمال العادي"(12). وهذا يعني أنك تجاوز الحق إذا حسبت أن الفكرة التي يجمع عليها فلاسفة أكسفورد هي الالتزام باجتناب أية مصطلحات فنية في الفلسفة.

ولئن كان جرايس متعاطفا مع أهداف فلسفة اللغة العادية ومناهجها، إلا أن كتاباته تتضمن تنقيحا ونقدا لفكرة محورية أخرى يتفق عليها أنصار هذه الفلسفة، وهي أن المعنى هو الاستعمال أو قل إن المعنى يتحدد عن طريق الاستعمال، وتتلخص نظرية الاستعمال في المعنى في الشعار المشهور القائل: "لا تسأل عن المعنى، بل اسأل عن الاستعمال". ونحن نجد في مقاله "المعنى" محاولاته الأولى لبيان ما عساه أن يكون المعنى على وجه الدقة؛ ونجد فيه أيضا تفسيرا لمعنى التعبير (أو أية علامة أخرى) في حدود ما يفعله المتكلمون بهذا التعبير، أو قل في حدود ما يعنيه المستعملون لهذا التعبير في مناسبات معينة.

وهناك وجهتان من النظر تظهران مدى عناية جرايس بالاستعمال، تقول الأولى إن الفكرة الأساسية عن المعنى هي أن المتكلم يعني شيئا ما عندما يلفظ قولا في مناسبة محددة. وكل الأفكار الأخرى المتعلقة بالمعنى يتعين معالجتها على أنها "مشتقة" و"مفسرة " في حدود هذه الفكرة الأساسية (13). وفي هذا السياق يقول جرايس: "من الضروري التمييز بين فكرة المعنى التي تتصل بمستعملي الكلمات أو التعبيرات وفكرة المعنى التي لا تتصل بمستعملي الكلمات أو التعبيرات. والفكرة غير المتصلة (بمستعملي الكلمات) من الفكرتين تكون لاحقة على الفكرة المتصلة، ويتعين أن تكون مفهومة في حدودها. وما تعنيه الكلمات هو مسألة ما يعنيه الناس بها " (14). وأما وجهة النظر الثانية فهي أن التعبير "بنطق الجملة (س) يعني المتكلم (م) أن (ق) " يمكن تحليله في حدود مقاصد المتكلم الموجهة إلى المستمع.

3- معركة هوميرية: نظريات الاستعمال في مقابل النظريات الصورية

في محاضرته الافتتاحية "المعنى والصدق" التي ألقاها في جامعة أكسفورد في نوفمبر عام 1969 بمناسبة توليه كرسي الفلسفة خلفا لجلبرت رايل، استهل ستراوسون حديثه ببيان مكانة رايل وأصالته الفلسفية، ثم طرح مجموعة من الأسئلة: ما الذي يوجد لأي شيء لكي يملك "معنى" على الإطلاق بالطريقة أو بالمغزى الذي تملك به الكلمات أو الجمل أو العلامات معنى؟ ما الذي يوجد لجملة محددة لكي تملك المعنى أو المعاني التي تملكها؟ وما الذي يوجد لعبارة محددة أو كلمة معينة لتملك المعنى أو المعاني التي تملكها؟ (15).إن تساؤلات ستراوسون هذه تدور حول المعنى بصفة عامة من جهة، وحول معاني الكلمات والجمل والعبارات من جهة أخرى. ويمكن أن نوسع هذه الفكرة ونزيدها توضيحا إذا قلنا إن الأسئلة المتعلقة بالمعنى تنقسم إلى فئتين: تدور أسئلة الفئة الأولى حول معاني التعبيرات اللغوية مثل معنى الكلمة، ومعنى شبة الجملة، ومعنى الجملة. وأبرز أمثلة هذه التعبيرات معاني أسماء الأعلام proper names مثل "العقاد" و"طه حسين" و"العبارات الوصفية" descriptive phrases مثل "مؤلف عبقرية محمد" و"مؤلف دعاء الكروان" وترتبط بهذه الأسئلة أسئلة أخرى من قبيل كيف تسهم الكلمات في معاني الجمل؟ والأسئلة في هذه الفئة تنتمي إلى علم الدلالة semantics.

أما أسئلة الفئة الثانية فتدور حول المعنى نفسه. وبعض هذه الأسئلة انطولوجية ontological وبعضها مفهومية conceptual. وتتعلق الأسئلة الانطولوجية بوجود المعاني، فنتساءل مثلا: هل المعاني كائنات؟ وإذا كانت كذلك، فما أنواع الكائنات التي تكونها المعاني؟ وأين توجد هذه الكائنات؟

وتركز الأسئلة المفهومية في الفئة الثانية على تحليل مفهوم المعنى، والأمثلة التي تأتي في طليعتها هي: هل نستطيع أن نقدم تحليلا فلسفيا لمفهوم المعنى اللغوي؟ وما علاقة المعنى بالأفكار الدلالية الأساسية التي تدور في فلكه من قبيل الصدق والإشارة؟ وإذا كانت أسئلة الفئة الأولى تنتمي إلى علم الدلالة، وتأتي أسئلة الفئة الثانية لتتخذ من أسئلة الفئة الأولى مادة للشرح والتحليل، جاز لنا القول إن أسئلة الفئة الثانية تنتمي إلى ما بعد علم الدلالة meta -semantics.

والذي يعنينا الآن من هذه الأسئلة عن المعنى سؤالان هما: ما معنى الجملة sentence meaning؟ وما المعنى لدى المتكلم speaker’s meaning؟ إن معنى الجملة هو ما تعنيه الجملة بصورة حرفية. فالجملة " زيد رئيس قسم نشيط " تعني زيد رئيس قسم نشيط. وكان الرأي عند فريجه أن العبارة السابقة تأخذ الصيغة التالية: "زيد رئيس قسم نشيط" صادقة إذا وفقط إذا كان زيد رئيس قسم نشيط. ولكن تخيل أنني أتحدث مع زائر إلى قسمي وسألني عن زميلي زيد، وعما إذا كان فيلسوفا مهما. وكان ردي هو نطق الجملة "زيد رئيس قسم نشيط" ولكن لم أقصد معناها الحرفي الدقيق، وإنما قصدت معنى آخر هو أن زيدا فيلسوفا غير مهم. وهنا يظهر المعنى لدى المتكلم ليتجاوز المعنى الحرفي وينتقل إلى مقاصد المتكلم.

وفي هذه الحالة نجد أنفسنا أمام مسألة العلاقة بين معنى الجملة والمعنى لدى المتكلم. هل نفسر معنى الجملة في حدود المعنى لدى المتكلم أم نعكس طريق السير؟ رأى فريجه أن تفسير معنى الجملة، المتمثل في امتلاك شروط الصدق، يأتي في المقام الأول، ثم يأتي تفسير المعنى لدى المتكلم بعد ذلك. ولكن الرأي عند جرايس أن طريقة فريجه تقلب الأمور رأسا على عقب، وأن الصواب هو أن تفسير معنى الجملة يأتي في حدود المعنى لدى المتكلم.

لقد لاحظ ستراوسون في مقالته "المعنى والصدق" أن هناك معركة حامية الوطيس بين فريقين من الفلاسفة: الفريق الأول ناصر فكرة فريجه، والفريق الثاني يؤيد فكرة جرايس. يقول ستراوسون: " إن المعركة على ما يبدو أنه القضية الأساسية في الفلسفة لها شيء من الطبيعة الهوميرية. والمعركة الهوميرية تقتضي الآلهة والأبطال. وأستطيع أن أذكر بصورة مؤقتة على الأقل، بعض القادة الأحياء والأرواح الكريمة (يقصد الأموات). في الجهة الأولى، هناك على سبيل المثال: جرايس، وأوستن، وفتجنشتين المتأخر later Wittgenstein. وفي الجهة الثانية هناك: تشومسكي N. Chomsky وفريجه وفتجنشتين المبكر "earlier Wittgenstein 16)).ويسمى ستراوسون فلاسفة الجهة الأولى " أصحاب نظرية قصد الاتصال " ويضع ستراوسون نفسه في زمرتهم؛ ويسمى الفلاسفة في الجهة الثانية " أصحاب علم الدلالة الصوري".
ويمكن أن نتبنى مصطلحا أكثر شمولا فنقول إن فلاسفة الجهة الأولى يقدمون نظريات الاستعمال في المعنى use theories of meaning (ومن بينها نظرية قصد الاتصال أو النظرية القصدية)، ويقدم فلاسفة الجهة الثانية النظريات الصورية في المعنى formal theories of meaning. والشيء الذي
لا شك فيه هو أن توضيح الأفكار الأساسية في هذه النظريات سوف يلقي بأضواء شارحة على أفكار جرايس ويجعل فهمها أمرا ميسورا.

ولعل الشيء الذي تمتاز به النظريات الصورية في المعنى هو أنها تهتم اهتماما بالغا بالبنية الصورية formal structure للغة، وتحرص أشد الحرص على دراسة العلاقات المتبادلة بين الجمل. ووجد القائلون بهذه النظريات في التطورات الحديثة التي حدثت في المنطق الصوري خير معين لهم على هذه الدراسة. وتسعى النظريات الصورية إلى تفسير جملة من المسائل في طليعتها: كيف يستطيع الشخص الذي يستعمل اللغة أن يفهم عددا لا متناهيا من الجمل المتنوعة ويؤلفها بينما لا يملك إلا مخزونا متناهيا من الجذور الدلالية؟ وتفسير هذه المسألة يعد تفسيرا للخاصة المميزة للغة البشرية. ومن أبرز الفلاسفة الذين قدموا نظريات صورية في المعنى دونالد ديفيدسون في دراسات كثيرة أشهرها كتاب بحوث في الصدق والتفسير عام 1984، ومايكل دميت في كتاباته المتنوعة وبخاصة كتاب بحور اللغة عام 1993.

وأكد أصحاب النظريات الصورية في المعنى على أن الوظيفة التي يتعين أن تقوم بها أية نظرية كافية في المعنى هي أن تقدم تقريرا عن الملامح التالية في اللغة:

1- إن الجملة هي الحامل الأساسي للمعنى.

2- إن معنى الجملة يتحدد عن طريق معنى عناصرها المكونة.

3- إن معنى العنصر المكون في جملة يتحدد عن طريق إسهامه في معنى أية جملة يظهر فيها (17).

والشيء المحقق أن النظريات الصورية في المعنى اكتسبت تأييدا قويا في النصف الأول من القرن العشرين من خلال تطبيق الأدوات المنطقية التي اصطنعها فريجه ورسل على اللغة، ومن خلال التحليل المنطقي لبنية اللغة الذي عرضه فتجنشتين المبكر في كتاب رسالة منطقية فلسفية. ولكن هذه النظريات تعرضت لهجوم عنيف مع مطلع النصف الثاني من هذا القرن، وجاء هذا الهجوم من فتجنشتين المتأخر وأوستن ومن سار في ركابهما. وكان من ثمرة هذا الهجوم أن تحول مركز الاهتمام من اللغة الصورية المنطقية إلى اللغة الطبيعية. وإذا كانت العناية الصورية ببنية الجمل والعلاقات القائمة فيما بينها قد مكنت أصحاب النظريات الصورية من اجتناب اللبس والغموض والاشتراك اللفظي وغيرها من الظواهر التي تزخر بها اللغات الطبيعية، فإن أصحاب نظريات الاستعمال نادوا بضرورة إعادة الكلمات من استعمالها المثالي إلى استعمالها في الحياة اليومية، أو إن شئت قل دراسة اللغة في موطنها الطبيعي ومسكنها الأصلي، ومن ثمّ نظروا إلى اللبس مثلا على أنه من الظواهر التي تقع في قلب القوة التعبيرية للغة.

يلتقي أصحاب النظريات الصورية وأصحاب نظرية الاستعمال عند أمور ويفترقون عند أمور أخرى. ومن الأمور التي يلتقون عندها ويتفقون عليها قولهم إن الجملة هي الحامل الأساسي للمعنى the sentence is the primary bearer of meaning. ولقد أشار كواين في مقال " خمسة معالم للتجريبية " (ضمن كتاب النظريات والأشياء عام 1981) إلى تحول المركز الدلالي من الكلمات إلى الجمل على أنه يمثل المعلم الثاني من المعالم الخمسة التي ميزت التجريبية في تطورها بعد هيوم وحتى إسهام كواين نفسه(18).

صحيح أن الاهتمام ببنية الجملة في النظريات الصورية يأتي على حساب الاهتمام بدور المتكلمين عند تفسير المعنى، ولكن من الحق أن نؤكد أن النظريات الصورية
لا تلغي دور المتكلمين ومقاصدهم إلغاء تاما بل تمنحهم دورا ما. وها هو ديفيد فيجنز David Wiggins (1933 -) يناصر النظريات الصورية ويقدم تصورا مركبا يمثل نظرية المعنى الكاملة. وتتألف هذه النظرية من سلسلة من الطبقات أو المستويات. فأما المستوى الأول فهو علم الدلالة semantics الذي يفسر المعنى الدقيق والحرفي لما يقال في حدود شروط الصدق، وأما المستوى الثاني فهو علم الاستعمال pragmatics ويفسر قوة المنطوق. utterance's force وتأتي المستويات الأخرى اللاحقة لتفسر التأثير عن طريق الكلام perlocutionary effect، والاقتضاء التحادثي conversational implicature، والنغمة، ونحو ذلك، ويقول فيجنز: "إذا أصررنا من البداية على كل هذه الأشياء معا في فكرة غير متميزة عن المعنى، فسيكون البحث عن نظرية نسقية لتفسير هذا المعنى أمرا ميئوسا منه"(19).

وهكذا يدعي أصحاب النظريات الصورية أن نظرياتهم تأتي عند المستوى الأول، أي علم الدلالة، على حين تأتي الإشارة إلى نظرية الاستعمال عند المستوى الثاني أي مستوى علم الاستعمال. ولكن أصحاب نظريات الاستعمال لا يقنعون بهذا الدور للمتكلمين ومقاصدهم في نظرية المعنى، ويرون أن تأخير الإشارة إلى دور المتكلمين إلى مستوى علم الاستعمال يجعل الخلاف بينهم وبين أصحاب النظريات الصورية خلافا جوهريا، لأن أصحاب نظريات الاستعمال يرون أن عملهم يدخل ضمن علم الدلالة. وها هو بريان لور Brian loar - أحد اتباع جرايس - يقول: "إن أفكار مثل "لغة" و"معنى" لابد من التفكير فيها دائما على أنها مرتبطة ارتباطا جوهريا بجماعة من مستعملي اللغة. والأفكار الدلالية الحقيقية ليست هي "ل لغة" أو"س تعني م في ل" وإنما هي "ل هي لغة الجماعة ج" و"س تعني م في لغة الجماعة ج". ومن الواضح أن هذه الأفكار لا يمكن ردها ردا صوريا إلى أفكار منطقية أو نحوية، ويتعين تقديم هذه الحقائق المتعلقة "باستعمال" اللغة، ومن ثمّ فإن الأفكار السيكولوجية تكون ضرورية في تحليل المفاهيم الدلالية" (20).وخلاصة القول عند أصحاب نظرية الاستعمال هي أن علم الدلالة يقوم على مقومات أساسية وأن مقاصد المتكلمين مقوم أساسي من مقوماته، إن لم تكن المقوم الأساسي الأول.

والشيء الذي لاشك فيه هو أن الاهتمام بالمتكلمين ومقاصدهم في نظرية المعنى دفع أصحاب نظريات الاستعمال إلى مناقشة فلسفة اللغة في إطار فلسفة الفعل وفلسفة العقل. ولعل هذا هو ما حدا بجون سيرل John Searle (1923 -) - وهو من أبرز أنصار نظرية قصد الاتصال في المعنى في عصرنا - إلى القول إن تأثير فتجنشتن المتأخر وأوستن وجرايس "يعيد صياغة مناقشة الكثرة الكثيرة من المشكلات في فلسفة اللغة في السياق الأكبر لمناقشة الفعل والسلوك الإنساني بصفة عامة. وبدلا من النظر إلى العلاقات بين الكلمات والعالم بوصفها شيئا يوجد في الفراغ، فإن المرء ينظر إليها الآن على أنها تتضمن أفعالا قصدية من جانب المتكلمين" (21).وعندما يؤكد أصحاب نظرية الاستعمال على المتكلمين ومقاصدهم، فإنهم يؤكدون أقل التوكيد على بنية الجملة. ومع ذلك فكما أن أصحاب النظريات الصورية يحولون اهتمامهم في نهاية المطاف إلى المقاصد، فكذلك يحول أصحاب نظريات الاستعمال اهتمامهم في نهاية الأمر إلى البنية حالما يكون التحليل الأساسي في مكانه الملائم. ويقال عادة إن ضعف التناول الصوري يكون في طريقة معالجته للقصد، على حين أن ضعف التناول القصدي يكون في طريقة معالجته للبنية (22).

والمتأمل في مقالة جرايس "المعنى" لا يجد أية إشارة إلى البنية، وهذا لا يعني استبعادها تماما من الدرس الدلالي، وتعليل هذا ليس بالأمر العسير. ذلك أن جرايس لم ينكر أبدا أهمية البنية بالنسبة للغة، ولكن نظرته العامة للمعنى دفعته إلى إغفال ذكر البنية. فالمعنى في رأيه ظاهرة توجد في اللغة وخارجها سواء بسواء، أما البنية في رأي أصحاب النظريات الصورية فلا وجود لها إلا في اللغة.

ولقد أشار ستراوسون إلى أن الفريقين يتفقان في بعض المسائل ويختلفان في مسائل أخرى. فهما يتفقان معا على أن معاني الجمل في اللغة تتحدد على نطاق واسع عن طريق القواعد الدلالية والتركيبية semantic and syntactic rules لهذه اللغة. ويتفقان أيضا على أن اشتراك

جماعة من الناس في معرفة لغة ما وامتلاكهم لقدرة لغوية مشتركة يعني أنهم يملكون تحت تصرفهم وسيلة فعالة للتواصل، وبذلك يعدل بعضهم اعتقادات بعض ويؤثر بعضهم في أفعال بعض. ويتفق الفريقان أيضا على أن ما يقصد الناس توصيله يرتبط ارتباطا مطردا بالمعاني الاصطلاحية للجمل التي ينطقونها. ولكنهما يختلفان حول العلاقات بين قواعد اللغة التي تحدد المعاني من ناحية ووظيفة التواصل من ناحية أخرى. فبينما يصر صاحب نظرية الاستعمال على أن الطبيعة العامة لهذه القواعد
لا يمكن فهمها إلا عن طريق الرجوع إلى وظيفة التواصل، يرفض صاحب النظرية الصورية التسليم بذلك (23).

كان الهدف الذي رام ستراوسون بلوغه هو منح النظرية الصورية ونظرية الاستعمال على حد سواء مكانا ملائما في نظرية المعنى، وإن شئت الدقة قل إنه يريد أن يمنح نظرية الاستعمال مكانها المناسب إلى جوار النظرية الصورية التي كانت تطمح إلى الاستئثار بنظرية المعنى. فصاحب نظرية الاستعمال يتعين عليه أن يناقش النظرية الصورية بقدر ما تتجلى في شروط الصدق عند ديفيدسون، ولا يمكن فهم شروط الصدق دون إشارة إلى فعل التواصل. والسؤال الذي يلقي نفسه الآن ويتطلب جوابا هو:كيف انتهى ستراوسون إلى هذه النتيجة؟

اقترح دونالد ديفيدسون نظرية في المعنى واشترط فيها أن تكون ضرورية وكافية بالنسبة للغة الطبيعية. وأخص ما تمتاز به هذه النظرية هي أننا نفهم المعنى كأحسن ما يكون الفهم عن طريق الصدق. ولو شئت عبارة موجزة تلخص بها هذه النظرية قل: إن تقديم "الشروط الضرورية والكافية لصدق كل جملة.. هو الطريق إلى تقديم معنى الجملة" (24).

ولكن ستراوسون ذهب إلى أن هذا الاقتراح لا يفيد في فهم المعنى، اللهم إلا إذا كنا نملك فهما للصدق. والصدق الذي يعنينا هنا ليس الصدق في لغة معينة، وإنما الصدق بصفة عامة. والشيء الذي نقوله عن الصدق بصفة عامة هو "إن المرء الذي يضع عبارة أو تقريرا يضع عبارة صادقة إذا وفقط إذا كانت الأشياء كما هي عليه. وعندما يضع هذه العبارة فإنه يقرر أنها كذلك. ومن ناحية أخرى، إن المرء الذي يعبر عن قضية يعبر عن قضية صادقة إذا وفقط إذا كانت الأشياء كما هى، وبتعبيره عن هذه القضية فإنه يفترض بوضوح أنها كذلك" (25).

ولو أضفنا هذه الفكرة العامة عن الصدق إلى الفكرة القائلة إن المعنى يمكن تعيينه في حدود شروط الصدق، لحصلنا على رأي مؤداه أن تحديد معنى الجملة الإخبارية، مثلا، هو تحديد الكيفية التي قرر بها الشخص الأشياء عندما (وضع تقريرا) عن طريق نطق الجملة. وأنت تلاحظ أننا قد انتقلنا هنا انتقالا معقولا لا تكلف فيه من مفهوم الصدق إلى مفهوم الفعل الكلامي speech act لوضع التقرير ومضمون هذا الفعل.

وعند هذه النقطة يجد صاحب نظرية الاستعمال الفرصة مواتية، فنراه ولسان حاله يقول: " لا يوجد أمل في توضيح فكرة مضمون هذه الأفعال الكلامية من غير أن نولي أفكار هذه الأفعال

الكلامية ذاتها اهتماما ما... ويؤكد صاحب نظرية قصد الاتصال أننا لا نستطيع أن نوضح فكرة التقرير أو التوكيد اللهم إلا في حدود القصد الموجه إلى المستمع، لأن الحالة الأساسية للتقرير أو التوكيد... هي حالة لنطق جملة بقصد معين"(26). وعلى هذا النحو نجد أن الصدق ضروري للمعنى ولكنه ليس كافيا، ومن ثمّ لا مندوحة عن الاستعانة بقصد مستعمل اللغة أيضا إذا شئنا فهما كافيا للمعنى.

والنتيجة التي يريد ستراوسون أن يخلص إليها من هذا كله هي أن الإشارة إلى المتكلمين ومقاصدهم ذات أهمية بالغة في فهم اللغة. وفي معرض رده على بعض علماء اللغة وفلاسفة اللغة الذين يطمحون إلى إقامة نظرية دلالية في اللغة لا تعتمد على مفهوم الاتصال، يقول ستراوسون في كتاب الكائن والهوية وبحوث أخرى عام 1997: "لا نستطيع أن نأمل في فهم اللغة Language كما يأمل المنظِّر في فهمها، اللهم إلا إذا فهمنا الكلام Speech. ولا نستطيع أن نأمل في فهم الكلام اللهم إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار هدف الاتصال" (27).

وقد يكون في وسعنا الآن أن نوجز المسائل التي اتفق عليها أصحاب النظريات الصورية ونظريات الاستعمال في المعنى والمسائل التي اختلفوا عليها. ولعل أبرز المسائل التي اتفقوا عليها هي:

1- تحكم اللغة قواعد دلالية وتركيبية، وهذه القواعد تحدد معاني الجمل فيها وتسمى معاني الجمل في هذه الحالة بالمعاني اللغوية.

2- هناك علاقة بين مقاصد المتكلمين للغة والمعاني اللغوية للجمل التي يستخدمها المتكلمون.

3- الجملة هي الحامل الأساسي للمعنى أو الوحدة الأساسية للمعنى. فالجمل في النظريات الصورية هي حوامل القضايا التي تنقل ما يجوز أن يكون صادقا أو كاذبا. والجمل في نظريات الاستعمال هي حوامل أفعال الكلام ومركز مقاصد المتكلمين.

أما أهم المسائل التي اختلفوا عليها فهي:

1- ركز أصحاب النظريات الصورية على البنية الصورية للغة، على حين ركز أصحاب نظريات الاستعمال على اللغة الطبيعية من حيث هي كذلك.

2- يضع أصحاب النظريات الصورية توكيدا كبيرا على بنية الجملة، على حين يضع أصحاب نظريات الاستعمال توكيدا أساسيا على اعتقادات المتكلمين ومقاصدهم.

3- يرى أصحاب النظريات الصورية أن تفسير معنى الجملة يأتي في المقام الأول، وبعد ذلك يأتي تفسير المعنى لدى المتكلم، وهذا يعني أن اللغة تفسر قبل الكلام. أما أنصار نظرية الاستعمال

فيرون أن تفسير المعنى لدى المتكلم له أسبقية على تفسير معنى الجملة. وهذا يعني أن الكلام يفسر قبل اللغة.

4 - المعنى لدى المتكلم

- التمييز بين المعنى الطبيعي والمعنى غير الطبيعي

من نافلة القول إن كلمة المعنى وما دار في فلكها من كلمات مثل يعني و ذو معنى هي من الكلمات الغامضة في العربية والإنجليزية وغيرهما من اللغات. وهذا الغموض ناشئ من تعدد معاني الفعل "يعني" كما هو الحال في الأمثلة التالية:

1- الحياة لا تعني شيئا بعد رحيل من نحب.

2- أنا لا أعني جرح مشاعرك.

3- إنه يعني القدر بالنسبة لها.

4- وجود الدخان يعني وجود النار.

5- عندما قال محمد: إن " مشكله المعنى معقدة " كان يعني أن مشكلة المعنى معقدة.

6- الجملة الإنجليزية "the cat is on the mat" تعني أن القطة على الحصير.

7- أحمد يعني شيئا ما.

8- هذه العلامة تعني شيئا ما.

تأمل أولا الجملتين (7) و(8) ودع عنك بقية الجمل لأنها سوف تكون مدار تحليل في الصفحات التالية، تجد أنه إذا كانت الجملة (7) صادقة، فمن المرجح أن أحمد يفعل شيئا ما. وليس الأمر هكذا مع الجملة (8)، لأنه إذا كانت هذه الجملة صادقة، فإن العلامة (لا تفعل) شيئا. وإذا كانت (8) صادقة، فإننا لا نجانب الصواب عندما نقول إن العلامة "ذات معنى". وليس الأمر هكذا مع الجملة (7) لأنها إذا كانت صادقة فإننا لا نقول مطلقا إن أحمد (له معنى) (28).

ولم يكن غريبا إزاء مثل هذه الاستخدامات المتباينة للفعل "يعني"، أن يستهل جرايس مقاله "المعنى" بالتمييز بين معنيين يجوز أن تتخذهما التعبيرات يعني ويعني شيئا ما و يعني أن. أطلق جرايس على المعنى الأول اسم المعنى الطبيعي natural meaning وضرب له الأمثلة التالية:

1- هذه البقع تعني الحصبة.

2- هذه البقع لا تعني لي شيئا، ولكنها تعني الحصبة للطبيب.

3- الميزانية الحالية تعني أننا سوف نشهد عاما صعبا.

وهذا النوع من المعنى نسميه أحيانا المعنى الدال indicator-meaning على أساس أن البقع " تدل على " وجود الحصبة والدخان "يدل على" وجود النار، ونحو ذلك.

ويشير جرايس إلى جملة من الملامح التي تميز هذا المعنى(29):

أولا، لا نستطيع القول "هذه البقع تعني الحصبة، ولكنه لم يصب بالحصبة"، وكذلك لا نستطيع القول " الميزانية الحالية تعني أننا سوف نشهد عاما صعبا، ولكننا لن نشهده ". وهذا يعني القول: س تعني أن ق، و س تعني أن ق يستلزم ق، حيث ترمز س إلى موضوع أو موضوعات و ترمز ق إلى قضية؛ فالقول هنا يستلزم وجود واقعة معينة.

ثانيا، لا نستطيع البرهنة من الجملة " هذه البقع تعني الحصبة " على أية نتيجة تتعلق بما هو مقصود بهذه البقع. على سبيل المثال، لست مؤهلا للقول "المقصود بهذه البقع هو أنه مصاب بالحصبة " ويمكن أن نقول أيضا إننا لا نستطيع أن نبرهن من الجملة "وجود الدخان يعني وجود النار" على أية نتيجة تتعلق بما هو مقصود بالدخان.

ثالثا، لا نستطيع البرهنة من الجملة "هذه البقع تعني الحصبة" على أية نتيجة تتعلق بما يعنيه شخص أو آخر بهذه البقع. وكذلك لا نستطيع البرهنة من الجملة "هذا الرعد يعني أنه ستوجد عاصفة" على أية نتيجة تتعلق بما يعنيه شخص أو آخر بهذا الرعد.

رابعا، لا يمكن أن توجد إعادة صياغة للأمثلة السابقة يكون فيها الفعل يعني متبوعا بعبارة في علامتي اقتباس، ومن ثمّ فإن الجملة: "هذه البقع تعني الحصبة" لا يمكن إعادة صياغتها بوصفها هذه البقع تعني (الحصبة) أو "هذه البقع تعني (أنه مصاب بالحصبة)".

خامسا، يمكن أن توجد إعادة صياغة للأمثلة المذكورة تبدأ بالتعبير "الحقيقة أن ..." على سبيل المثال، "الحقيقة أن البقع التي لديه تعني أنه يعاني من الحصبة" و"الحقيقة أن الميزانية الحالية كما هي تعني أننا سوف نشهد عاما صعبا ".

وهذا المعنى الطبيعي يتعارض مع نوع آخر من المعنى يسميه جرايس المعنى غير الطبيعي ويضرب له المثالين التاليين:

1- "هذه الرنات الثلاث في جرس الباص تعني أن الباص ممتلئ".

2- "هذه الملاحظة (زيد لا يمكن أن ينجح من غير عناء أو كفاح) تعني أن زيدا وجد أن زوجته لا غنى عنها".

وعلى خلاف ملامح المعنى الطبيعي نجد أن ملامح المعنى غير الطبيعي هي (30):

أولا، أستطيع استعمال الجملة الأولى من هاتين الجملتين وأواصل القول: "ولكنه ليس ممتلئا في الحقيقة، لقد أخطأ محصل التذاكر". وأستطيع استعمال الجملة الثانية وأواصل القول: "ولكن زيدا هجرها منذ بضع سنوات خلت". وهذا يعني القول: س تعني أن ق، و س تعني أن ق لا تستلزم ق.

ثانيا، نستطيع البرهنة من الجملة الأولى على عبارة حول "المقصود" برنات الجرس، ويمكن فعل ذلك عن طريق القياس بالنسبة إلى الجملة الثانية.

ثالثا، نستطيع البرهنة من الجملة الأولى على نتيجة مفادها: أن شخصا ما (محصل التذاكر) يعني بالرنات أن الباص ممتلئ.

رابعا، يمكن إعادة صياغة الجملة الأولى في صيغة يكون فيها الفعل يعني متبوعا بعبارة في علامتي اقتباس، أعني "هذه الرنات الثلاث للجرس تعني (الباص ممتلئ)، ويمكن أن نفعل ذلك بالنسبة إلى الجملة الثانية.

خامسا، إن جملة مثل "واقعة أن الجرس رن ثلاث مرات تعني أن الباص ممتلئ" ليست إعادة صياغة لمعنى الجملة الأولى. ربما تكون الجملتان صادقتين ولكنهما
لا تملكان المعنى نفسه على وجه التقريب.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: لماذا يسمي جرايس المعنى الذي يمثله المثالان السابقان بالمعنى غير الطبيعي؟ الجواب لأول وهلة هو أن فكرة الاصطلاح أو المواضعة convention تميز المعنى غير الطبيعي من المعنى الطبيعي. فليس من الاصطلاح في شيء أن البقع تعني الحصبة، على حين أن القول بأن الرنات الثلاث في الباص تعني أن الباص ممتلئ يعد مسألة اصطلاحية. وقد يختلف الاصطلاح من جماعة إلى أخرى ومن مكان إلى آخر.

ولكن فكرة الاصطلاح هذه تأخذنا إلى سؤال آخر هو: لماذا لم يستخدم جرايس لتمييزه بين المعنى الطبيعي والمعنى غير الطبيعي التمييز التقليدي بين العلامات الطبيعية natural signs والعلامات الاصطلاحية conventional signs؟ ويضرب التمييز التقليدي بجذوره في كتابات جون لوك، وتشارلز بيرس، وتشارلز موريس، ودي سوسير. فقد قسم بيرس العلامات من حيث علاقتها بالموضوع الذي تدل عليه إلى ثلاثة أنماط هي: الأيقونة icon والمؤشر index والرمز symbol. فالأيقونة علامة تناظر الموضوع الذي تدل عليه أو تشبهه أو تصوره، ومثالها في اللغة التسمية بالمحاكاة الصوتية onomatopoeia، مثل العواء والزئير والأزيز والنقيق. أما المؤشر أو العلامة الطبيعية، فإن ظهوره يرتبط ارتباطا سببيا أو وجوديا بموضوعه. فصياح

الطائر ربما يكون علامة طبيعية على الذعر. وأما الرمز، أو العلامة الاصطلاحية، فإنه يفتقر إلى أي تناظر فيزيائي مع ما يدل عليه، ويتجلى بصورة نموذجية في صيغ اللغة الطبيعية. فكلمة "العنقاء" مثلا لها دلالة لا تأتي عن طريق كونها تشبه موضوعها، ولا تدل عن طريق علاقة وجودية مع موضوعها، وإنما تدل عن طريق تداعي المعاني عند أولئك الذين يستعملون هذه الكلمة" (31).

والسبب الذي جعل جرايس يفضل تمييزه على التمييز التقليدي هو أن بعض الأشياء التي تعني شيئا غير طبيعي لا تكون علامات (فالكلمات مثلا ليست علامات)، وبعض الأشياء لا تكون اصطلاحية بأي معنى عادي (مثل بعض الإيماءات) على حين أن بعض الأشياء التي تعني بصورة طبيعية لا تكون علامات لما تعنيه (مثل الميزانية الحالية) (32).وهذا يعني أن جرايس أراد من تحليله للمعنى غير الطبيعي أن يشمل مجالا أوسع من المعنى اللغوي الاصطلاحي.

لعلك تلحظ أن المعنى الطبيعي هو المعنى الذي تملكه الأشياء في الطبيعة؛ فالدخان يدل على النار، والسحب تدل على المطر، والجرح يدل على الأذى، والرعد يدل على العاصفة. أما المعنى غير الطبيعي فتملكه كلماتنا وعباراتنا وبعض أفعالنا وإيماءاتنا أيضا. وكان في طليعة الاختلافات بين هذين النوعين من المعنى أنه على حين أن "س تعني بصورة طبيعية أن ق" تستلزم ق، فإن هذا اللزوم يخفق بالنسبة للمعنى غير الطبيعي. وإن شئت أن تضع ذلك بعبارة أخرى قل إن المعنى الطبيعي ملزم، بمعنى أنه يلزم المتكلم بحقيقة واقعة معينة. فأنت إذا قلت "هذه السحب السوداء تعني المطر"، فسوف تلزم نفسك بحقيقة واقعة وهي أن السماء سوف تمطر. أما المعنى غير الطبيعي فليس ملزما. فإذا قلت "إن إيماءة محمد تعني أنه في ضيق" فإن هذا القول لا يلزمك بأن يكون محمد في ضيق بالفعل. وجملة القول إن المعنى الطبيعي يعتمد على العلاقات السببية وقوانين الطبيعة، أما المعنى غير الطبيعي فيعتمد على القصد intention أو الاصطلاح convention.

وفي مقالة متأخرة "معاودة النظر في المعنى"Meaning Revisited عام 1982، نظر جرايس في التمييز بين المعنى الطبيعي والمعنى غير الطبيعي، ولم يحرص على مناقشة مسألة وجوده لأنه أصبح مقبولا ومألوفا في الدرس الفلسفي، وإنما حرص كل الحرص على بيان العلاقة بين المعنيين، أو قل إنه ركز على العلاقات بين المعنيين أحرى من الاختلافات بينهما، فالمعنى غير الطبيعي سليل المعنى الطبيعي ومشتق منه، ويمكن تفسير ذلك عن طريق التأمل في حالات خاصة للمعنى الطبيعي مثل الأنات والصرخات. خذ الأنين، مثلا، تجد أنه علامة طبيعية على الألم عندما يحدثه المرء بصورة لا إرادية. فالأنين الحادث بصورة لا إرادية سوف يقود الملاحظ إلى الاعتقاد بأن الشخص الذي يئن يتألم. ولكن المرء ربما يئن " بصورة إرادية " في بعض الحالات، وأكثر هذه الحالات وضوحا حالة الخداع أو التظاهر. ولكن نظرا لأننا نربط بين الأنين الحادث بصورة إرادية والخداع، فسوف تضعف نزعة الملاحظ لاستنتاج أن الشخص الذي يئن يتألم (33). ولو تساءل المرء: متى يتم الانتقال من المعنى الطبيعي إلى المعنى غير الطبيعي؟ لأجاب جرايس بأن الانتقال في هذه الحالة يتم عندما يحدث الأنين بصورة إرادية ويظل الملاحظ يعتبر

هذا سببا كافيا للاعتقاد بأن الذي يئن يتألم ولا يعتبره دليلا على الخداع. ويتحقق هذا عندما يئن المرء بصورة إرادية ويقصد أن يدرك الملاحظ أنينه على أنه فعل إرادي، ويدركه الملاحظ من حيث هو كذلك. ويرى جرايس أن الانتقال من المعنى الطبيعي إلى المعنى غير الطبيعي يتحقق تحققا كاملا عندما ينظر الملاحظ (أو المستمع بصفة عامة) إلى الشخص الذي يئن (أو المتكلم بصفة عامة) على أنه جدير بالثقة.

فرغ جرايس في صدر مقاله "المعنى" من وضع التمييز، وكرس جل جهده في بقيته للنظر في الحالات التي ندعي فيها أن كلمة "يعني" تستخدم بالمعنى غير الطبيعي بوصفه مقابلا للمعنى الطبيعي. ويقترح أن نبدأ تحليل المعنى غير الطبيعي بالصيغ التالية:

1- "س يعني شيئا ما بالمعنى غير الطبيعي" (حيث س منطوق).

2- "ص يعني شيئا بالمعنى غير الطبيعي" (حيث ص هو المتكلم).

ولكن الصيغ التي تأتي على هذا النحو يلفها غموض يمكن التغلب عليه بالصيغ التالية:

(1- أ) س (المنطوق) يعني شيئا ما بالمعنى غير الطبيعي (في مناسبة معينة).

(1- ب) س (المنطوق) يعني شيئا ما بالمعنى غير الطبيعي (الخالد).

(2- أ) ص (المتكلم) يعني شيئا ما بالمعنى غير الطبيعي عن طريق س (في مناسبة معينة).

(2- ب) ص (المتكلم) يعني شيئا ما بالمعنى غير الطبيعي (الخالد) عن طريق س.

وإذا أخذنا بنية الكلام بعين الاعتبار، وجدنا أن صيغ التحليل تزداد تعقيدا لأننا لابد أن نفسح المجال أمام تحليل المنطوق في الحالتين (1- أ) و (1- ب) ونحصل على
ما يلي:

(1- أ - 1) س (منطوق كامل) يعني شيئا ما بالمعنى غير الطبيعي (في مناسبة معينة).

(1 - أ - 2) ز (جزء من المنطوق) يعني شيئا ما بالمعنى غير الطبيعي (في مناسبة معينة).

(1 - ب - 1) س (منطوق كامل) يعني شيئا ما بالمعنى غير الطبيعي (الخالد).

(2- ب - 2) ز (جزء من المنطوق) يعني شيئا ما بالمعنى غير الطبيعي (الخالد).

إن أصحاب النزعة الشكية في المعنى بصفة عامة، وبعض الفلاسفة الذين يرون أن أفضل طريق لفهم مفهوم المعنى ليس التحليل المفهومي بطريقة جرايس وغيره من الفلاسفة وإنما بناء نظرية في

المعنى، يستبد بهم القلق إزاء تعقد التحليل بهذه الصورة. فهناك معنى للمنطوق utterance meaning, وهناك معنى لدى الناطق utterer's meaning أو معنى لدى المتكلم، وهناك معنى في مناسبة، وهناك معنى خالد (أو لا يخضع للزمن). ولكن جرايس تحلى بصبر جميل واقترح أن نرتب خطوات السير، فنبدأ بمعالجة المنطوق الكامل قبل معالجة المنطوق الجزئي. وهذه البداية تنسجم مع استخدامه الواسع لمعنى " المنطوق"، إذ يستخدمه ليشمل السلوك اللغوي وغير اللغوي على حد سواء. والسلوك اللغوي يتمثل في الجمل والعبارات، أما السلوك غير اللغوي فيتضمن الإيماءة بالرأس والتلويح باليد والغمز بالعين والابتسامة، وهلم جرا.

وقد كان من الأفضل في رأي جرايس أن نفسر معنى المنطوق الكامل في مناسبة محددة قبل أن نحاول تفسير معنى المنطوق الكامل على نحو خالد. وبعبارة أخرى إن تحليل معنى المنطوق في مناسبة يسبق المعنى المعياري standard meaning للمنطوق. وتنسجم هذه الأسبقية أيضا مع اهتمامه بالتصور الواسع للمعنى غير الطبيعي. فالمعنى المعياري أو الخالد يكتسب عناية خاصة عندما يكون اهتمامنا هو اللغة، ولكن كما أراد جرايس أن يؤكد، ليس كل المعنى يحدث في اللغة، فخارج اللغة يكون المعنى خاصية للمنطوق في مناسبة (34)،بالمعنى الواسع الذي أوضحناه لكلمة منطوق.

ومادام جرايس يعطي أولوية لمعنى المناسبة occasion meaning على المعنى الخالد timeless meaning استنادا إلى رؤيته الواسعة للمعنى باعتباره ظاهرة لغوية وتتجاوز نطاق اللغة أيضا، فقد كان من الطبيعي أن يستهل تحليله للمعنى غير الطبيعي بالتعبير التالي: يعني المتكلم (ص) شيئا ما بالمعنى غير الطبيعي بالمنطوق (س) في مناسبة معينة للاستعمال.

لقد اتخذ تحليل جرايس لمفهوم المعنى غير الطبيعي صورا متنوعة، وسار في طرق عسيرة ملتوية، وأظن أنه من الأفضل أن نستقصي هذه الصور، وأن نساير التحليل في هذه الطرق ولا نقنع بالقول إن التفصيلات معقدة. وحسبنا أن نبلغ شيئا من الوضوح في نهاية الطريق، ومتى بلغ الناس كل ما يريدون ! وسوف نضع هذه الصور المتنوعة للتحليل على هيئة الصيغ التالية:

الصيغة الأولى:

"يعني المنطوق (س) شيئا ما بالمعنى غير الطبيعي" هي صيغة صادقة إذا قصد الناطق لـ (س) أن يحدث اعتقادا في مستمع ما. وقول ما هو الاعتقاد هو قول ما يعنيه (س) بالمعنى غير الطبيعي (35). خذ مثلا الجملة: "زيد رئيس قسم نشيط " التي أوجهها إلى قيس الزائر لقسمي، تجد أن الشرط الكافي لبيان المعنى غير الطبيعي لهذه الجملة هو: يقصد ناطق الجملة أن يحدث الاعتقاد لدى قيس بأن زيدا رئيس قسم نشيط. على أن قصد إحداث الاعتقاد في المستمع ليس كافيا بذاته لحالة المعنى غير الطبيعي. وهنا نجد أنفسنا أمام سلسلة طويلة من الأمثلة المضادة لتحليل جرايس للمعنى.

المثال المضاد الأول يقدمه جرايس نفسه ويقول فيه: " ربما أترك وشاح (ب) على مقربة من مسرح الجريمة لكي أُقنع المحقق بالاعتقاد بأن (ب) هو القاتل. ولكننا لا نريد القول بأن الوشاح (أو تركي له هناك) يعني أي شيء بالمعنى غير الطبيعي أو أنني أعني بصورة غير طبيعية بتركي إياه أن (ب) هو القاتل" (36).والسبب في أننا لا نقول إن الوشاح، أو تركه بهذه الطريقة، يعني شيئا ما بالمعنى غير الطبيعي هو أن التواصل بين تارك الوشاح والمحقق لم يحدث. ويتضح ذلك عندما نقارن بين الحالة التي يترك فيها شخص على نحو مقصود وشاح شخص آخر في مسرح الجريمة و الحالة التي يسقط فيها من شخص وشاحه من غير قصد في الوقت الذي يفر فيه من مسرح الجريمة، وفي الحالتين سوف يملك المحقق اعتقادا واحدا وهو أن صاحب الوشاح هو المجرم. ولكن المشكلة هنا هي أننا لا نستطيع أن نميز المعنى غير الطبيعي من المعنى الطبيعي.

ويمكن أن نتفادى هذا المثال المضاد للصيغة الأولى، إذا أضفنا إلى عناصر التحليل في هذه الصيغة شرطا آخر في صيغة أخرى:

الصيغة الثانية:

يعني المتكلم (ص) شيئا ما إذا وفقط إذا نطق (ص) المنطوق (س) قاصدا:

(أ) أن نطق ص للمنطوق (س) يحدث اعتقادا أو استجابة معينة (ج) لدى مستمع معين (ل).

(ب) أن يدرك (ل) قصد (ص).

إن إضافة الشرط القائل بأن يقصد الناطق أن يدرك المستمع القصد الكامن وراء المنطوق ربما تجعلنا نتغلب على المثال المضاد، ولكن هذه الصيغة الثانية ليست كافية بذاتها بصورة جيدة للإمساك بالجانب الاتصالي في المعنى غير الطبيعي. تأمل مثالا مضادا آخر، لقد تركت قطع التحف التي حطمتها ابنتي الصغيرة ملقاة في جوانب المنزل لكي تراها زوجتي. يبدو أننا هنا أمام حالة تستوفي الشروط التي قدمناها حتى الآن للمعنى غير الطبيعي: فأنا قصدت أن أجعل زوجتي تعتقد بأن ابنتي حطمت التحف، وليس من شك في أنني قصدت أيضا أن تدرك زوجتي أنني قصدت أن تعتقد بأن ابنتي حطمت التحف، ومع ذلك فإننا لا نملك هنا حالة للمعنى غير الطبيعي، والسبب هو فقدان الصلة بين إدراك المستمع لقصد المتكلم والاستجابة التي يقصد أن يمتلكها المستمع. ويرى جرايس أن الشيء الذي نريد اكتشافه هو الاختلاف بين أن تدع شخصا ما يعرف (أو تجعل شخصا ما يفكر) وأن (تخبره)، وفكرة الإبلاغ أو الإخبار ضرورية للمعنى غير الطبيعي.

وهذا يعني أن تحليل المعنى يفتقر إلى شرط يضمن أن يتوقف التواصل بصورة أساسية على إدراك المستمع لقصد المتكلم. وعند هذه المرحلة من التحليل يلخص جرايس تقريره عن المعنى غير الطبيعي لدى المتكلم بالطريقة التالية: يعني (المتكلم) (ص) شيئا ما بالمعنى غير الطبيعي (بالمنطوق) (س) يكافئ تقريبا " قصد (ص) بنطق (س) أن يحدث أثرا في المستمع عن طريق

إدراك هذا القصد"، ويجوز أن نضيف أن التساؤل عما يعنيه (ص) هو التساؤل عن تحديد الأثر المقصود (37).

ويمكن أن ندخل شرط إدراك المستمع لقصد المتكلم في الصيغة التالية:

الصيغة الثالثة:

يعني المتكلم (ص) شيئا ما عن طريق نطق (س) إذا وفقط إذا نطق (س) قاصدا:

(1) أن نطق (ص) لـ (س) يحدث اعتقادا أو استجابة معينة (ج) في مستمع معين (ل).

(2) أن يدرك (ل) قصد (س) المتمثل في (1).

(3) أن إدراك (ل) لقصد (س) المتمثل في (1) سوف يعمل على الأقل بوصفة جزءا من السبب الذي لدى (ل) للاعتقاد أو الاستجابة (ج).

إذا أعدنا النظر في مثالنا: " زيد رئيس قسم نشيط " وجدنا يسرا في تحليله وفقا لهذه الشروط على النحو التالي:

1- يقصد المتكلم بنطق الجملة "زيد رئيس قسم نشيط"، أن يحدث في المستمع (قيس) اعتقادا بأن زيدا رئيس قسم نشيط.

2- يقصد المتكلم أن يدرك قيس القصد من وراء نطق الجملة: "زيد رئيس قسم نشيط".

2- يقوم إدراك قيس لمقاصد المتكلم بدور في تفسير السبب في أن قيس يؤلف الاعتقاد بأن زيدا رئيس قسم نشيط.

وتعرض تحليل جرايس للمعنى لانتقادات وخضع لتعديلات عرضتها بتفصيل في كتابي: نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس (ص47-64).

5- نظرية قصد الاتصال وبنية الجملة

إن نظرية جرايس في المعنى، التي عرضنا عناصرها المتمثلة في الصور المتنوعة من تحليل المعنى، كانت تهدف إلى تفسير المعنى لدى المتكلم بالنسبة للمنطوقات أو الجمل الكاملة، ولم تقدم شيئا مذكورا حتى الآن فيما يتعلق بمعنى أجزاء الجمل. والحق أن مناقشة بنية الجملة قد أرجئت حتى تبلغ النظرية شيئا من التطور. واعتراض بلاتس بأن تحليل جرايس لم يقدم تفسيرا لمعنى الجمل غير المنطوقة ناشئ من الحقيقة اللغوية التي تقرر إمكان توليد الجمل في اللغة عن طريق ربط مجموعة متناهية من العناصر الدلالية وفقا لقواعد معينة. وفي الوقت الذي نجد فيه أن نظرية

قصد الاتصال في المعنى تواجه صعوبات إزاء تفسير تركيب المعنى أو معنى بنية الجملة، نلحظ أن أخص ما تمتاز به النظريات الصورية في المعنى هو قدرتها التفسيرية في هذه المسألة. وتتجلى هذه القدرة فيما يسمى بمبدأ التركيب principle of compositionality الذي يقدمه فريجه وديفيدسون مثلا. ويمكن صياغة هذا المبدأ في عبارة يسيرة موجزة:

يتحدد معنى الجملة عن طريق معاني كلماتها المكونة، بالإضافة إلى علاقاتها التركيبية بعضها مع بعض.

The meaning of a sentence is determined by the meaning of its component words together with their syntactic relations to each .others

ولو تأمل المرء فلسفة فريجه مثلا، لكان من اليسير عليه معالجة الجمل غير المنطوقة - التي هي حجر عثرة أمام نظرية قصد الاتصال - عن طريق المبدأين التاليين (38):

1- تتحدد القيمة الدلالية للتعبير المركب عن طريق القيم الدلالية لأجزائه.

The semantic value of a complex expression is determined by the .semantic values of its parts

2- يتحدد معنى التعبير المركب عن طريق معاني مكوناته.

The sense of a complex expression is determined by the senses of .its constituents

ويتضمن التعبير المركب العبارات والجمل وأشباه الجمل، والقيمة الدلالية لجملة هي قيمة صدقها truth value (الصدق أو الكذب). وبالتالي فإن قيمة صدق الجملة الصادقة هي الصدق، وقيمة الصدق الجملة الكاذبة هي الكذب. وبتطبيق هذين المبدأين - مبدأ التركيب بالنسبة للقيمة الدلالية ومبدأ التركيب بالنسبة للمعنى - يتحدد معنى الجمل المركبة سواء كانت هذه الجمل منطوقة أو غير منطوقة.

والطريقة الواضحة أمام النظرية القصدية للتعامل مع اعتراض بلاتس المتعلق بالجمل غير المنطوقة، ومشكلة بنية الجملة التي ينشأ منها، هي تعديل تحليل المعنى بحيث تجعله يشير إلى المتكلمين ومقاصدهم، وليس فقط فيما يتعلق بالجمل الكاملة، وإنما يتعلق بأجزاء الجمل أيضا. وهذه الطريقة اقترحها جرايس في مقالته "المعنى لدى الناطق، ومعنى الجملة، ومعنى الكلمة"؛ والاقتراح هو أن يملك المتكلمون معرفة بما أطلق عليه جرايس اسم "الإجراءات الناتجة" فيما يتعلق بالعناصر المكونة لمنطوق ما (على سبيل المثال "محمد" تدل على محمد) وقواعد ربطها.

ومع ذلك هناك مشكلة مع هذا الاقتراح. إنه لا ينسب إلى المتكلمين قدرا كبيرا من المعرفة فحسب، وإنما ينسب إليهم أيضا امتلاك مفاهيم معينة (على سبيل المثال مفهوم الدلالة denotation) يعتبر امتلاكهم لها أمرا غير محتمل. ولاحظ جرايس هذه المشكلة واقترح أن نسلم بأننا نعرف "بمعنى ما" هذه النتائج. ويعترف بأن الفهم الملائم لما عساه أن يكون هذا المعنى يظل لغزا لم يحل.

ولعل إخفاق النظرية القصدية في الوصول إلى حل مقنع لمشكلة بنية الجملة يدفع أنصار النظريات الصورية إلى القول إن نظريتهم أقرب إلى الأسس الفلسفية للمعنى من النظرية القصدية. ولكن هذا القول يزيد من التعارض بين النظريتين كما يزيد الحطب الجزل النار تلظيا. وقد يكون من الملائم أن نقول مع "بلاكبورن": إن هذا التعارض قد خفت حدته بفعل الزمن (39). والشيء الذي لاشك فيه هو أن المتكلمين يؤدون أفعالا قصدية للمعنى توضحها نظرية قصد الاتصال توضيحا حسنا، وأن بنية هذه الأفعال تصورها النظريات الصورية كأحسن ما يكون التصوير.

6- المعنى اللغوي

إن تحليل المعنى الذي أسلفناه يهدف إلى تقديم الشروط الضرورية والكافية للمعنى لدى المتكلم، ولكن هل يكفي هذا التحليل لتفسير المعنى اللغوي linguistic meaning؟ الجواب: لا. والسبب في ذلك أن جرايس أراد أن يؤسس مفهوم المعنى اللغوي على مفهوم المعنى لدى المتكلم. وهذه الأسبقية للمعنى لدى المتكلم تتفق مع نظرة جرايس لمفهوم المعنى بوصفه أوسع من المعنى اللغوي، ذلك أن المعنى يقع في اللغة وخارجها على حد سواء. ولكن هذه النظرة الواسعة للمعنى لم تمنع جرايس وأنصاره من أن يحددوا لأنفسهم هدفا نهائيا هو الملاءمة بين تحليلهم للمعنى والمعنى اللغوى.

وهناك قضية لم يناقشهما التحليل حتى الآن وهي أن المعنى اللغوي خالد linguistic meaning is timeless. والمعنى الخالد timeless meaning (أو المعنى الذي لا يخضع للزمن) هو الذي تملكه منطوقاتنا عندما لا ترتبط بمناسبة معينة للنطق، وبعبارة أخرى قل: إنه المعنى الذي لا يعتمد على أية مناسبة محددة للاستعمال. وفي هذا الفهم يكون المعنى اللغوي مثالا للمعنى الخالد، ويكون أيضا مقابلا للمعنى لدى المتكلم الذي يرتبط بموقف النطق أو الكلام.

ويناقش جرايس في مقال "المعنى لدى الناطق، ومعنى الجملة، ومعنى الكلمة" تحليل المعنى الخالد بالنسبة للفرد، ثم يمد هذا التحليل وينتقل به إلى تفسير المعنى الخالد داخل جماعة من المتكلمين. وعندما نبني المعنى اللغوي بهذه الطريقة نستطيع أن ندرك بصورة أفضل ما هو متضمن في المعنى الخالد. واقتراح جرايس هو أن نحلل المعنى الخالد لدى الفرد عن طريق الاستعانة بعادة هذا الفرد في نطق أصوات معينة عندما يقصد أن يعتقد المستمع بشيء معين. والمشكلة هي أن المتكلم ربما يملك وسائل أخرى لجعل المستمع يعتقد بشيء ما، أو ربما يستعمل الكلمات نفسها

عندما يقصد أن يعتقد المستمع بشيء مختلف تمام الاختلاف. وإن شئت أن تضع ذلك بعبارة أخرى قل: إن الاستعانة بعادة المتكلم لا هي ضرورية ولا هي كافية للمعنى الخالد (40).

ولم يتابع جرايس تطوير تقريره عن المعنى الخالد، وإنما جاء هذا التطوير على يد شيفر الذي أفاد فائدة كبيرة من إسهام ديفيد لويس 2001 -1941) David Lewis) في فكرة الاصطلاح (أو المواضعة) convention في كتابه المهم الاصطلاح: دراسة فلسفية عام 1969، وأفاد لويس بدوره من كتابات ديفيد هيوم وبخاصة رسالة في الطبيعة البشرية. وكان اقتراح شيفر هو أن نجمع فكرة الاصطلاح مع فكرة تحليل المعنى لدى المتكلم بغية تقديم تقرير عن المعنى الخالد (أو اللغوي). واستهل لويس كتابه "القول إن اللغة يحكمها الاصطلاح يعد أمرا هينا" (41).ولكن العجب في هذه المسائل الهينة هو أن الناس يطمئنون إلى فهمها، ولكننا إذا سألنا عما تعنيه على وجه الدقة استبد بهم القلق
من كل جانب.

والحق أن البحث في أصل اللغة وكيفية ارتباط الألفاظ بالمعاني كان موضع نظر وخلاف بين الفلاسفة القدماء. فنجد كراتيليوس في محاورة كراتيليوس لأفلاطون يقرر أن اللغة طبيعية وأن الكلمات تملك معنى طبيعيا، بمعنى أن الاسم الطبيعي يأتي كعملية محاكاة صوتية من جانب الإنسان لأصوات الحيوانات والكائنات في الطبيعة، أو أن الاسم الطبيعي يوحي بما يشير إليه من أشياء طبيعية مثل خرير الماء، ودوي الريح، ونقيق الضفادع، ونعيق الغراب، وزئير الأسد، وصهيل الفرس، ونحو ذلك. ولقد أوضح سقراط وجهة النظر الطبيعية التي تنسب إلى كراتيليوس عن طريق القياس أو التمثيل التالي:

سقراط: إذن يا هرموجينس، ليس كل إنسان بقادر على أن يعطي اسما، إنما فقط صانع الأسماء، وهو المشرع الذي هو الأندر وجودا بين الحرفيين الماهرين.

هرموجينس: حقا.

سقراط: وكيف يصنع المشرع الأسماء؟ وإلامَ ينظر ؟.. إلامَ ينظر النجار عند صنع المكوك؟ ألا ينظر إلى ذلك الشيء المتهيأ بصورة طبيعية ليعمل كمكوك ؟

هرموجينس: بالتأكيد. ..

سقراط: بالنسبة للأسماء، إذن، ألا ينبغي على مشرعنا كذلك أن يعرف كيف يضع الاسم الحقيقي الطبيعي لكل شيء في أصوات ومقاطع...؟" (42).

وبرغم أن أفلاطون أخذ من محاورة كراتيليوس بوجهة النظر الطبيعية، فإنه أدرك إخفاق قدرتها التفسيرية في بعض الجوانب مثل تفسير أسماء الأعداد التي لا نهاية لها، ويمكن أن يكمل الاصطلاح النقص في هذه الجوانب. ولكن أرسطو خالف هذه النظرة الطبيعية إلى اللغة، وأكد في

كتاب العبارة De Interpretatione على أن اللغة اصطلاحية قائلا: "الاسم صوت منطوق ذو معنى عن طريق الاصطلاح".. وأقول: "عن طريق الاصطلاح" by convention لأنه لا يكون الاسم اسما بصورة طبيعية، ولكن فقط عندما يصبح رمزا" (43).

ونظر الفلاسفة وعلماء اللغة العرب القدامى والمتكلمون في هذه المسألة، وانقسموا إلى فريقين: نادى الفريق الأول بأن أصل اللغة تواضع واصطلاح، وهم أكثر أصل النظر على حد تعبير ابن جني في الخصائص وهو من أبرز أنصار هذا الفريق، إلى جانب الفارابي والمعتزلة ومن جرى مجراهم. وقال الفريق الثاني، وهم قلة: إن اللغة وحي وتوقيف، ويمثله الأشاعرة الذين احتجوا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة: 31). ومال ابن جني إلى تأويل هذه الآية الكريمة بحيث نفهم منها أن الله سبحانه وتعالى " أقدر آدم على أن واضع عليها... فإن قيل: فاللغة فيها أسماء، وأفعال، وحروف؛ وليس يجوز أن يكون المعلم من ذلك الأسماء دون غيرها مما ليس بأسماء، فكيف خص الأسماء وحدها؟ قيل: اعتمد ذلك من حيث كانت الأسماء أقوى القبل (أي أنواع الكلام) الثلاثة، ولا بد لكل كلام مفيد من الاسم، وقد تستغني الجملة المستقلة عن كل واحد من الحرف والفعل، فلما كانت الأسماء من القوة والأولية في النفس والرتبة، على ما لا خفاء به جاز أن يُكتفى بها مما هو تال" (44).

ولا يوجد هذا الخلاف بين فلاسفة اللغة في عصرنا، لأن جميع هؤلاء الفلاسفة يسلمون بفكرة الاصطلاح. وعندما يقولون إن اللغة اصطلاحية، فإنهم يؤكدون على ارتباط اتفاقي (أو اعتباطي) arbitrary بين الكلمة ومعناها. وترتبط بهذه الفكرة فكرة أخرى مؤداها أن اللغة اصطلاحية بمعنى أنها اعتباطية وتخضع للتحكم العقلي rational أو القصدي intentional من جانب المتكلمين. ويتفق الفلاسفة المعاصرون على الفكرة الأولى، ويختلفون على الفكرة الثانية. ومن الواضح أن الذين يعارضون الفكرة الثانية يعارضون أيضا نظرية قصد الاتصال في المعنى على أساس أن هذه النظرية تنظر إلى المعنى على أنه فاعلية محكومة بالعقل، وتمنح المتكلمين نوعا من التحكم العقلي على معنى كلماتهم.

ونظر لويس إلى الاصطلاح على أنه اطراد يخلد ذاته على نحو عقلي في سلوك rationally self - prepetuating regularity in behaviour. والاصطلاح هو اطراد (ولنرمز له بالرمز ط) في الفعل، أو في الفعل والاعتقاد، يستوفي الشروط التالية (45):

1- كل شخص يطيع (ط).

2- يعتقد كل شخص أن الآخرين يطيعون (ط).

3- الاعتقاد بأن الآخرين يطيعون (ط) يزود كل شخص بسبب جيد لطاعة (ط).

4- هناك تفضيل عام للطاعة العامة لـ (ط).

5- هناك اطراد بديل واحد على الأقل سوف يعمل بصورة معقولة.

6- الحقائق المذكورة من 1 إلى 5 هي موضوعات لمعرفة مشتركة (أعني أنها معروفة لكل شخص).

وإذا أضفنا الآن هذه الفكرة عن المواضعة إلى فكرة المعنى لدى المتكلم، كان في مقدورنا أن نقدم تحليلا للمعنى اللغوي الحرفي (الخالد) أو لمعنى الجملة في الصيغة التالية:

تعني الجملة (ص) على نحو خالد أن ق في لغة جماعة من الناس إذا ساد في هذه الجماعة اصطلاح لاستعمال (ص) لكي تعني (بطريقة نظرية قصد الاتصال في المعنى) أن ق.

ومن هنا جاء الشعار الذي رفعه أنصار جرايس ليدل على نظريتهم في المعنى قائلا: المعنى لدى المتكلم، بالإضافة إلى الاصطلاح، يساوي المعنى اللغوي (الحرفي الخالد).

صحيح أن سيرل قد نبه جرايس إلى ضرورة مراعاة اصطلاحات اللغة وقواعد استعمال الجمل، ولكنه لا يزال يؤكد على أن الفكرة المحورية في فهم المعنى هي المعنى لدى المتكلم. "إن معنى الجملة هو بصورة تامة مسألة تتعلق باصطلاحات اللغة. ولكن الجمل أدوات للكلام. وهكذا حتى وإن كانت اللغة تقيد المعنى لدى المتكلم، فإن المعنى لدى المتكلم لا يزال هو الصورة الأساسية للمعنى اللغوي، والسبب في ذلك أن المعنى اللغوي للجمل يعمل ليمكن المتكلمين للغة من استعمال الجمل لتعني شيئا ما في المنطوقات" (46).

مما سبق يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية: إن المعنى لدى المتكلم يرتبط بمناسبة معينة للنطق، أما المعنى اللغوي فلا يرتبط بمناسبة الكلام، ولذلك يقال إنه خالد. والمعنى لدى المتكلم يتم تفسيره في حدود مقاصد المتكلمين، أما المعنى اللغوي أو معنى الجملة فيتم تفسيره في حدود المعنى لدى المتكلم وفكرة الاصطلاح. ولو أردت عبارة واحدة موجزة غاية الإيجاز تلخص لك صميم نظرية جرايس وتصلح شعارا لها أيضا فهاك هي: المعنى اللغوي هو الاصطلاح بالإضافة إلى القصد convention plus intention.

هوامش الفصل الخامس

1- Paul Grice, Studies in the Way of Words, Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press, fourth printing 1995 (first ed. 1989), p. 349.

2- Isaiah Berlin, The Proper Study of Mankind, An Anthology of Essays, edited by Henry Hardy and Roger Hausheer, New York: Farrar, Straus and Giroux, 1998, p. 437.

ويضع برلين في فئة القنافذ: أفلاطون، وبسكال، وهيجل، ودستوفسكي، ونيتشه، وابسن؛ على حين يضع في فئة الثعالب أرسطو، وارازموس، وموليير، وجوته، وبوشكين، وبلزاك.

3- Michael Dummett, “Dummett’s Replies” in B. McGuinness and G. Oliveri (eds.) The Philosophy of Michael Dummett, Dordrecht : Kluwer Academic Publishers, 1994, p. 318.

4- Richard Warner, “Introduction: Grice on Reasons and Rationality” in Paul Grice, Aspects of Reason, edited by Richard Warner, Oxford University Press, 2001, p. viii.

5- Judith Baker, “Grice, Herbert Paul”, in Edward Craig, (General editor), Routledge Encyclopedia of Philosophy, London and New York: Routledge, Vol. 4, first published 1998, p. 173; and see also Kent Bach, “Grice, H . Paul”, in The MIT Encyclopedia of the Cognitive Sciences, edited by Robert A.Wilson and Frank C. Keil. A Bradford Book, Cambridge, Massachusetts & London, England: the MIT Press, 1999, pp. 359 – 360.

6- P.F. Strawson, “Intellectual Autobiography”, in Lewis Edwin Hahn, (ed.), The Philosophy of Strawson, (The Library of Living Philosophers, Vol. XXVI) Chicago and Lasalle, Illinois: Open Court, first printing 1998, p.5.

- ويقول روبرت فوجلين : "إن بول جرايس فيلسوف لا يقبل النظرة السطحية".

Robert J. Fogelin "Review of Studies in the Way of Words " The Journal of Philosophy, 1991, p. 291.

7- Stephen Neale, “Paul Grice and the Philosophy of Language”, Linguistics and Philosophy, 15, 1992, p. 509; and see also P.V. Lamarque, “Grice, H .P.” in Concise Encyclopedia of Philosophy of Language, edited by Peter V. Lamarque and R. E . Asher, Pergamon, 1997, p. 517.

8- Stephen Neale, “Paul Grice and the Philosophy of Language”, p. 509.

9- Paul Grice, “Reply to Richards”, in R.E. Grandy and R.Warner (eds.), Philosophical Grounds of Rationality: Intentions, Categories, Ends, Oxford: Clarendon Press, 1986, p. 51.

- واشترك جرايس مع ستراوسون في الدفاع عن نظرية المعنى من النوع القصدي في مقالهما "في الدفاع عن العقيدة"

- H. P. Grice and P. F. Strawson, “In Defense of a Dogma”, Philosophical Review, Vol. LXV, 1956, p.146.

10- Paul Grice, Studies in The Way of Words, p. 172.

11- Ibid., p. 172.

12- Ibid., p. 173.

13- Stephen Neale, “Paul Grice and the Philosophy of Language”, pp. 514 – 515; and see also P. Suppes, "The Primacy of Utterer’s Meaning "in R.Grandy and R.Warner (eds.), Philosophical Grounds of Rationality: Intentions, Categories, Ends, Oxford: Clarendon Press, pp. 109 –129.

14- Paul Grice, Studies in The Way of Words, p. 340; and see also P.Yu “On the Gricean Program About Meaning”, Linguistics and Philosophy, 3, pp.273 – 288.

15- P.F.Strawson, Logico-Linguistic Papers, London: Methuen & Co Ltd,1971.

16- Ibid., p.172.

17- Anita Avarmides, Meaning and Mind: An Examination of a Gricean Account of Language, Cambridge, Massachusetts: the MIT Press, 1989, p. 4.

18- انظر د. صلاح إسماعيل، فلسفة اللغة والمنطق : دراسة في فلسفة كواين، القاهرة: دار المعارف، 1995، ص 82 – 83.

19- David Wiggins, “On Sentence – Sense, Word – Sense, and Difference of Word – Sense’’, in L.A. Jacobvits and D.D. Steinberg (eds.), Semantics: An Interdisciplinary Reader in Philosophy, Linguistics and Psychology, Cambridge: Cambridge University Press, 1971, p. 20.

20- Brain Loar, “Two Theories of Meaning”, in Gareth Evans and John McDowell, (eds.), Truth and Meaning: Essays in Semantics, Oxford: Clarendon Press, 1977, p. 150.

21- John R. Searle, “Introduction” to The Philosophy of Language, London: Oxford University Press, 1971, pp. 6 –7.

22- Anita Avramides, “Intention and Convention”, in Bob Hale, and Crispin Wright (eds.), A Companion to the Philosophy of Language, Blackwell Publishers, 1999, p. 62.

23- P.F. Strawson, Logico – Linguistic Papers, p. 176.

24- Donald Davidson, Inquiries into Truth and Interpretation, Oxford: Clarendon Press, 1984, p. 24.

- ألمح ديفيدسون إلى دور القصد والاعتقاد في توصيل المعنى في كتاباته المبكرة : "إن الشخص الذي ينطق الجملة " the candle is out " (الشمعة منطفئة) بوصفها جملة في اللغة الانجليزية، لابد من أن يقصد نطق كلمات تكون صادقة فقط إذا كانت الشمعة المشار إليها منطفئة في وقت النطق ؛ ولابد من أن يعتقد أنه بإحداث الأصوات التي يحدثها فإنه ينطق كلمات لا تكون صادقة إلا بمقتضى هذه الشروط. وهذه المقاصد والاعتقادات ليست جديرة بأن يمعن المتكلم الفصيح النظر فيها. ولكن برغم أنها
لا تحظى عادة بالاهتمام، فإن غيابها سوف يكفي لإثبات أنه ليس متكلما للغة الإنجليزية. وغياب أية أفكار مناظرة سوف يثبت أنه ليس متكلما على الإطلاق".

Donald Davidson, Inquiries into Truth and Interpretation, p.155.

- ولكن ديفيدسون عاد في كتاب متأخر الذاتي وبين الذاتي والموضوعي،عام 2001 ليساير جرايس في نظريته القصدية مؤكدا على "الأهمية الأساسية للقصد في الاتصال".

Donald Davidson, Subjective, Intersubjective, Objective, Oxford: Clarendon Press, 2001, p.112.

25- P.F. Strawson, Logico – Linguistic Papers, p. 180.

26- Ibid., p.181.

27- P.F. Strawson, Entity and Identity and Other Essays, Oxford: Clarendon Press, 2000, p. 231.

28- Paul Grice, Studies in the Way of Words, p. 213.

29- Ibid., p.213.

30- Ibid., p.214.

31- C.S. Peirce, Collected Papers of Charles Sanders Peirce, Vol.4, edited by Charles Hartshorne and Paul Weiss, Cambridge University Press, paragraph 447.

32- Paul Grice, Studies in the Way of Words, p. 215.

33- Ibid., p.293.

34- Anita Avramides, Meaning and Mind: An Examination of a Gricean Account of Language, p. 42.

35- Paul Grice, Studies in the Way of Words, p. 217.

36- Ibid., p.217.

37- Ibid., p.220.

لقد اقترح بعض الفلاسفة مثل ادموند هوسرل 1859-1938 (Edmund Husserl) في كتاب البحوث المنطقية، الجزء الأول عام 1900، تصورا عاما موجزا غاية الإيجاز لكيفية حدوث التواصل بين المتكلم والمستمع فحواه أن التعبيرات توضع في الأصل لأداء وظيفة الاتصال. إذ ينطق المتكلم بالكلمة قاصدا التعبير عن نفسه من خلال ما تعنيه، ولابد من أن يهبها المعنى في أفعال عقلية معينة، ويرغب في أن يشترك المستمع إليه في هذا المعنى. ويصبح هذا

الاشتراك ممكنا إذا فهم المستمع قصد المتكلم، ويدرك المستمع هذا القصد بقدر ما ينظر إلى المتكلم بوصفه شخصا لا ينطق أصواتا فحسب وإنما " يخاطبه " .

Edmund Husserl, Logical Investigations, translated by J.N.Findlay, London: Routledge & Kegan Paul, 1970, Vol. 1, sec. 7. And compare: Peter Simons, “Meaning and Language”, in Barry Smith and David W. Smith (eds.), The Cambridge Companion to Husserl, .Cambridge University Press, 1996, pp . 108 – 109

Alexander Miller, Philosophy of Language, p. 236. And see also -38 Harold W.Noonan, Frege: A Critical Introduction, UK: Polity, first .published 2001, p.174

Simon Blackburn, “Communication and Intention”, in Edward -39 Craig (General editor), Routledge Encyclopedia of Philosophy, Vol.2, .London and New York: Routledge, 1998, p.458

Anita Avramides, “Intention and Convention”, in Bob Hale and -40 ,Crispin Wright (eds.), A Companion to the Philosophy of Language .pp. 79 -80

David Lewis, Convention: A Philosophical Study, Cambridge, -41 ..Massachusetts: Harvard University Press, 1969, p. 1

42- أفلاطون، محاورة كراتيليوس، ترجمة وتقديم د. عزمي طه السيد، عمان، الأردن، وزارة الثقافة، الطبعة الأولى، 1995، 389 ب، هـ ص 101، 103.

Quoted in Anita Averamides, "Intention and Convention," in Bob -43 Hale and Crispin Wright (eds.) A Companion to the Philosophy of .Language, p. 60

44- أبو الفتح عثمان بن جنى، الخصائص، الجزء الأول، ص 41-42.

David Lewis, Philosophical Papers, Vol. 1, Oxford: Oxford -45 .University Press, 1983, pp. 164-165

John R. Searle, Mind, Language and Society: Philosophy in the -46
.Real World, New York: Basic Books, 1999, (first ed. 1998), p. 140

الفصل السادس

علم الاستعمال وقواعد المحادثة

1- التمييز بين علم الدلالة وعلم الاستعمال

2- الاقتضاء لدى المتكلم واقتضاء الجملة

3- السياق الفلسفي الذي ظهرت فيه نظرية الاقتضاء وأهميتها النظرية

4- المبدأ التعاوني وقواعد المحادثة

علم الاستعمال وقواعد المحادثة

1- التمييز بين علم الدلالة وعلم الاستعمال

يتطابق المعنى لدى المتكلم مع معنى الجملة في بعض الأحيان ويختلف عنه في أحيان أخرى. فأما التطابق فيظهر في العبارات التقريرية والجمل التي تدخل في إطار العلوم الطبيعية، وأما الاختلاف فيأتي بصور متنوعة. خذ مثلا يوضح ذلك. هب أن الأم سألت يوما ما: "هل تريد مزيدا من القهوة؟"، وكان جوابك: "القهوة تبقيني منتبها". هنا نجد أن هذا الجواب يمكن أن يفهم بمعنيين: المعنى الأول هو أنك لا ترغب في مزيد من القهوة لأن موعد النوم قد اقترب. والمعنى الثاني أنك تريد مزيدا من القهوة لأنك تود مواصلة العمل وتحتاج إلى أن تظل منتبها. والاختلاف واضح إذن بين المعنى الحرفي الاصطلاحي للجملة "القهوة تبقيني منتبها" والمعاني الإضافية التي تفهم منها في سياقات معينة. والتمييز بين المعنى الحرفي للجملة والمعنى الإضافي الذي يمكن أن يتولد عنها هو التمييز بين علم الدلالة semantics وعلم الاستعمال pragmatics. وتستطيع أن تقول بحق إن نظرية جرايس في الاقتضاء implicature هي الإسهام الأصيل في كيفية التوصل إلى المعاني الأخرى التي تضاف إلى المعاني الحرفية للجمل. فماذا عسى أن يكون التمييز بين علم الدلالة وعلم الاستعمال؟ وما السياق الفلسفي الذي ظهرت فيه نظرية الاقتضاء؟ وما أهميتها الفلسفية؟ وما علاقتها بالنظرية القصدية في المعنى؟

وأقترح ترجمة pragmatics بعلم الاستعمال بدلا من علم التداول(1) لأن كلمة تداول لها استخدامات واسعة وشائعة مثل تداول العملة أو تداول الأوراق المالية وغيرها. والوقوف على التمييز الدقيق بين العلمين يسوغ ترجمتي لهذا المصطلح. صحيح أن العلمين يهتمان بنقل المعنى من خلال اللغة، وأن التمييز الصارم بينهما من الأمور الخلافية في فلسفة اللغة وعلم اللغة على حد سواء. ولكننا نستطيع أن نعود إلى التمييز المبكر بينهما والذي وضعه تشارلز موريس Charles Morris، أول من ابتكر مصطلح pragmatics ، في قوله :" علم الدلالة semantics يعالج

علاقة العلامات... بالموضوعات التي تدل عليها. أما علم الاستعمال pragmatics فيخص علاقة العلامات بمفسريها" (2).ولقد وضع موريس هذا التمييز في إطار تقسيمه الثلاثي لعلم العلامات semiotics :

1- النحو (التركيب) syntax: وهو دراسة العلاقة النحوية للعلامات signs بعضها ببعض.

2- علم الدلالة semantics: يدرس علاقات العلامات بالأشياء التي تنطبق عليها العلامات.

3- علم الاستعمال pragmatics: يبحث علاقة العلامات بالمفسرين.

وهذا التمييز الثلاثي لعلم العلامات حظي أيضا بتأييد من رودلف كارناب Rudolf Carnap 1891-1970)) حيث يقول: " إذا وضعنا في بحث إشارة واضحة إلى المتكلم أو مستعمل اللغة بصفة عامة، فإننا ننسب هذا البحث إلى مجال علم الاستعمال pragmatics... وإذا صرفنا الانتباه عن مستعمل اللغة، وحللنا فقط التعبيرات ودلالاتها، فإننا نكون في مجال علم الدلالة semantics . وأخيرا، إذا صرفنا الانتباه عن الدلالات أيضا ، وحللنا فقط العلاقات بين التعبيرات، فإننا نكون في مجال النحو (المنطقي) logical syntax. ويسمى علم اللغة الكامل الذي يتألف من الأجزاء الثلاثة المشار إليها علم العلامات 3) "semiotics).

وفي موسوعة "روتلدج" Routledge للفلسفة يقول ريكاناتي F. Recanati في مادة علم الاستعمال: " قدم الفلاسفة التحليليون إسهامات باقية للدراسة العلمية للغة. فعلم الدلالة semantics (دراسة المعنى) وعلم الاستعمال pragmatics (دراسة اللغة في الاستعمال)مجالان مهمان للبحث اللغوي يدينان في شكلهما للأساس الذي وضعه الفلاسفة" (4).

علم الاستعمال إذن دراسة لغوية تركز على المستعملين للغة وسياق استعمالها في عملية التفسير اللغوي بجوانبها المتنوعة. وينقسم هذا العلم إلى عدة فروع. يبحث الفرع الأول كيف يحدد السياق معنى قضويا واحدا لجملة في مناسبة معينة لاستعمال هذه الجملة. ونظرية الفعل الكلامي speech act theory هي الفرع الثاني من علم الاستعمال. والفرع الثالث من علم الاستعمال (وهو لا ينفصل انفصالا تاما عن الفرع الثاني) هو نظرية المحادثة theory of conversation أو نظرية الاقتضاء 5) theory of implicature).

وهناك إجماع بين الفلاسفة، وتواتر في الدرس الفلسفي المعاصر، على أن جرايس هو أول من قدم دراسة نسقية منهجية تعالج الاختلافات بين المعنى لدى المتكلم ومعنى الجملة، وما يقتضيه المتكلم وما تقتضيه الجملة. وفي مقابل مصطلح اللزوم implication في المنطق الذي نلحظ له استعمالات مهمة يأتي في طليعتها استعمالان: أولهما أن اللزوم علاقة بين مجموعة مقدمات ونتيجة تستخرج منها وفقا لقواعد معينة، وثانيهما أن اللزوم علاقة بين أجزاء قضية شرطية صادقة يسمى الجزء الأول منها المقدم والثاني التالي . نقول في مقابل اللزوم بهذين الاستعمالين (والذي هو جزء من علم الدلالة المنطقي logical semantics الذي يهتم بقيم صدق الجمل)

ابتكر جرايس مصطلح الاقتضاء implicature والفعل implicate (6). واشتقه من الفعل imply بمعنى يتضمن أو يستلزم، والذي اشتق بدوره من الفعل اللاتيني plicare بنفس المعنى. وإن شئت عبارة موجزة تحدد لك ماهية الاقتضاء قل إنه يعني عمل المعنى أو لزوم شيء عن طريق قول شيء آخر، أو قل إنه شيء يعنيه المتكلم ويوحي به ويقترحه ولا يكون جزءا مما تعنيه الجملة بصورة حرفية.

2- الاقتضاء لدى المتكلم واقتضاء الجملة

يميز جرايس بين ما يقتضيه المتكلم وما تقتضيه الجملة. وسأسوق لك ثلاثة أمثلة توضح الاقتضاء لدى المتكلم ومثالا رابعا يبين اقتضاء الجملة. وهاكم أولا أمثلة الاقتضاء لدى المتكلم:

المثال الأول :

محمد: أين يمكن أن أحصل على بنزين ؟

أحمد: هناك محطة بنزين عند ناصية الشارع.

إن جواب أحمد على سؤال محمد يوحي بأن محمدا يستطيع أن يحصل على البنزين من المحطة الموجودة عند ناصية الشارع، ولكننا نلاحظ أن أحمد لم (يقل) بالفعل إن محمدا يستطيع الحصول على البنزين هناك. ولا يعني جرايس (بالقول) مجرد نطق كلمات معينة، وإنما يريد قول (إن) شيئا ما هو الواقع . وما قاله أحمد في هذه الحالة " يرتبط ارتباطا وثيقا بالمعنى الاتفاقي للكلمات (الجملة) التي نطقها"(7) أكثر من ارتباطه بالمعنى لدى المتكلم. فالاقتضاء بأن محمدا يستطيع الحصول على البنزين من المحطة الكائنة عند ناصية الشارع ليس جزءا من المعنى الحرفي أو الاتفاقي للجملة "هناك محطة بنزين عند ناصية الشارع".

المثال الثاني :

الفتاة ف: هل تستطيعين الذهاب إلى حديقة الحيوان ؟

الفتاة م: يتعين عليّ أن استذكر دروسي.

إن جواب (م) يقتضي بأنها لا تستطيع الذهاب إلى الحديقة، ويعد هذا معنى إضافيا يتجاوز المعنى الحرفي لجملتها "يتعين عليّ أن استذكر دروسي". ولعلك تتفق معي إذن في القول بأن الاقتضاء شيء يعنيه المتكلم ولا يمثل جزءا من المعنى الحرفي للجملة، أو قل إن الاقتضاء لدى المتكلم هو المعنى غير المباشر لدى المتكلم: معنى شيء عن طريق معنى شيء آخر.

Speaker implication is indirect speaker meaning: meaning one thing .by meaning another

المثال الثالث:

الأستاذ أ: ما رأيك في مستوى الطالب (ع) في فلسفة اللغة ؟

الأستاذ ب: الطالب (ع) جميل الخط ويحرص دائما على المواعيد.

من الطبيعي القول إن الأستاذ (ب) قصد شيئا آخر غير ما تعنيه الجملة، وهذا الشيء هو أن الطالب (ع) ليس جيدا في فلسفة اللغة. ولكن الجملة في معناها الحرفي لا تؤدي هذا المعنى ولا تقتضيه أيضا، وإنما اقتضاه المتكلم فقط. فماذا عسى أن يكون اقتضاء الجملة؟

رغم أن الأستاذ (ب) اقتضى في هذا المثال أن الطالب (ع) ليس جيدا في فلسفة اللغة، فإن الجملة التي استعملها لا تقتضي ذلك بذاتها، وفي معظم السياقات لا يوجد خطأ في استعمال "الطالب (ع) جميل الخط ويحرص دائما على المواعيد" من غير هذا الاقتضاء.

وعلى العكس من ذلك، فإن الجملة (4- أ) تقتضي بذاتها الجملة (4- ب).

المثال الرابع:

(4- أ) أحمد مريض، ومن ثمّ يتعين عليه أن يستريح.

(4- ب) إن كون أحمد مريضا، يستلزم أنه لا بد من أن يستريح.

والجملة الأولى تقتضي الثانية لأن المتكلم لا يستطيع أن يستعمل الأولى استعمالا ملائما من دون أن يقتضي الثانية. "والاقتضاء التحادثي للجملة هو شيء يلزم عنها، ولكنه ليس بالمعنى المنطقي الدقيق. فالاقتضاء شيء لا تقرره الجملة تقريرا واضحا ولكنها توحي به فقط. إنه ليس نتيجة منطقية، وإنما نتيجة غير منطقية بمعنى ما. وهذا
لا يعني القول إنه تعسفي أو اعتباطي" (8).

ويميز جرايس بين نوعين من الاقتضاء: الاقتضاء الاتفاقي conventional implicature والاقتضاء التحادثي conversational implicature . فأما الاقتضاء الاتفاقي فيتولد عن طريق المعنى الاتفاقي للكلمات المنطوقة (9)، مثل كلمة " لكن" أو التعبير و"من ثمّ" (المثال الرابع)، ولا يتطلب فهمه استدلالا عقليا، وإنما يفهم مباشرة. وأما الاقتضاء غير الاتفاقي الذي يعتمد على السياق التحادثي ، كما في الأمثلة الثلاثة الأولى، فإنه اقتضاء تحادثي، وهو اقتضاء يضعه المرء باستعمال الاستدلال العقلي القائم على قواعد المحادثة .

3- السياق الفلسفي الذي ظهرت فيه نظرية الاقتضاء وأهميتها النظرية

قبل أن نناقش قواعد المحادثة، يجمل بنا أن نقف عند السياق الفلسفي الذي ظهرت فيه نظرية الاقتضاء لنعرف ما هو، وما النظريات المنافسة لهذه النظرية. لقد ذهب فلاسفة أكسفورد في أربعينيات القرن الماضي إلى أن المنطق الكلاسيكي لا يستطيع أن يقدم تفسيرا دقيقا لدلالة التعبيرات في اللغة الطبيعية، وتجلى ذلك بوضوح في مقال ستراوسون "في الإشارة" On Referring في مجلة Mind (العقل) عام 1950. وفي هذا المقال اعترض ستراوسون على نظرية الأوصاف theory of descriptions عند رسل. وكان من بين الاعتراضات أنها لا تقدر الاستعمال العادي للجمل التي تنطوي على تعبيرات وصفية حق قدره. ورأى ستراسون أيضا أن نظرية المعنى بالنسبة للغة الطبيعية المؤسسة على المنطق الكلاسيكي ليست دقيقة ؛ فنراه يختتم مقاله "في الإشارة" بهذه العبارة: "لا تعطي قواعد أرسطو ولا قواعد رسل المنطق الدقيق لأي تعبير في اللغة العادية، لأن اللغة العادية ليس لها منطق دقيق" (10).

وبعد عامين قدم ستراوسون كتابه مقدمة لنظرية منطقية عام 1952، وانتقد فيه انتقادا موسعا وجهة النظر القائلة إن روابط منطق القضايا أو منطق الأدوات الصورية مثل
(·) و(v) و (⊂) يستطيع تفسير معاني روابط اللغة الطبيعية المناظرة لها وهي (واو العطف) و (أو) و (إذا).

لاحظ ستراوسون أن العبارة التي تأخذ الصيغة (ق و ك) ربما تستلزم ترتيبا زمانيا، وأن عبارة البدائل التي تأخذ الصيغة (ق أو ك) تستلزم عدم تيقن المتكلم من أي بديل من البديلين، وأن أداة الربط (ولكن) في العبارة "إنها فقيرة ولكنها مستقيمة" تعني أن المتكلم يستلزم أن هناك نوعا من التباين بين كونها فقيرة وكونها مستقيمة، وأن دخول كلمة "يبدو" في عبارة تحمل شكا في الشيء الذي تتحدث عنه. فالعبارة "هذه البرتقالة تبدو لي صفراء" تستلزم شكا فيما إذا كانت البرتقالة صفراء بالفعل.

إذا قرر المتكلم (س) جملة في الصيغة (ق أو ك)، فسوف ينظر إلى (س) بصورة نموذجية باعتباره يستلزم أنه لا يملك أسس دوال الصدق للتقرير ؛ أعني سوف ينظر إلى (س) باعتباره يستلزم أنه لا يعرف أيّا من ق و ك تكون صادقة. وفيلسوف اللغة العادية المتأثر بهذه الملاحظة يجوز أن يستنتج أن نطق (ق أو ك) الذي لا يستوفي هذا الشرط يتضمن إساءة استعمال اللغة ؛ وإنه لجزء من معنى (ق أو ك) أن هذا المنطوق يستخدم استخداما صحيحا فقط إذا كان المتكلم لا يعرف أن ق صادقة ولا يعرف أيضا أن ك صادقة؛ وفي حالة عدم استيفاء هذا الشرط، لا يمكن اعتبار المنطوق معبرا عن حقيقة. وهكذا يجوز لفيلسوف اللغة العادية استنتاج أنه من الخطأ افتراض أن معنى الكلمة الإنجليزية or (أو) تقدمه دلالة الأداة المنطقية (v). إن دلالة (v) يتعاقد عليها المنطقي بحيث تكون دالة صدق، ولكن دلالة or تتحدد عن طريق الممارسة اللغوية الفعلية (الاستعمال)، وهذه الممارسة لا تنسجم مع تحليل دوال الصدق لدى المنطقي(11).

إن منطق الروابط القضوية أسهم إسهامات مهمة في علم الدلالة المنطقي، وذلك عندما فسر جوانب معينة من معاني روابط اللغة الطبيعية، وهذه الجوانب هي شروط الصدق truth conditions. وشرط الصدق هو الذي بمقتضاه تكون الجملة صادقة، وتحديد شرط الصدق أمر يقوم على المواضعة المنطقية.

ولكي نكشف عن وجهة نظر ستراوسون في نقد القضايا، يحسن بنا أن نأخذ العطف المنطقي بشيء من التفصيل. تأمل المثال:

1- المتنبي شاعر وزكي نجيب محمود فيلسوف.

تجد أن منطق القضايا يقول: إن العطف يصدق في حالة واحدة فقط وهي صدق المعطوفين معا. ونعبر عن ذلك بقائمة الصدق التالية:

ق ك ق.ك

ص ص ص

ص ك ك

ك ص ك

ك ك ك

وإذا غيرنا ترتيب المعطوفين على النحو التالي :

2- زكي نجيب محمود فيلسوف والمتنبي شاعر.

فإن ذلك لا يغير من المعنى شيئا ما دامت واو العطف تدل على مجرد الاشتراك في الصدق، ويتجلى ذلك في قائمة صدق القضية (2):

ك ق ك.ق

ص ص ص

ص ك ك

ك ص ك

ك ك ك

ولكن ستراوسون اعترض على معالجة علم الدلالة المنطقي لـ (واو العطف) بهذه الطريقة، التي ترى أن شروط صدق القضية العطفية واحدة مهما غيرنا المعطوفين، وانطلق من نزعته السياقية contextualism في المعنى التي قبلها مع غيره من فلاسفة أكسفورد ، مؤكدا أن شروط صدق الصيغة (ق و ك) متغيرة من الناحية السياقية، فهي في سياق تعني الترتيب الزماني، وفي سياق آخر تعني العلاقة السببية.

ويمكن أن نوضح فكرة ستراوسون بالأمثلة التالية :

(3) تزوج محمد وفاطمة وأنجبا عددا من الأطفال .

(4) دخل أحمد الامتحان ونجح فيه .

هنا نجد أن واو العطف في مثل هذه القضايا تستلزم "الترتيب أو التعاقب الزماني"، فإنجاب الأطفال جاء بعد الزواج، والنجاح في الامتحان جاء بعد دخوله ؛ ومن ثمّ فإن عكس الترتيب الزماني يجعل القضيتين السابقتين كاذبتين :

(5) أنجب محمد وفاطمة عددا من الأولاد وتزوجا.

(6) نجح أحمد في الامتحان ودخله.

وبالإضافة إلى ذلك فإن واو العطف قد تعني في معناها الحرفي العلاقة السببية، فأنت تقول:

1- تجرع سقراط السم ومات.

فموت سقراط جاء نتيجة لتجرع السم، وليس من المعقول أن تقول:

2- مات سقراط وتجرع السم .

وأنت تلحظ معي أن واو العطف تملك معنى ضعيفا يدل على مجرد الاشتراك في الصدق، ومعنى قويا يدل على التعاقب الزماني والعلاقة السببية. ويتطلب المعنى القوي تصورا معينا لمنطق الزمان يفتقر إليه منطق القضايا. ونخلص من ذلك إلى نتيجتين مهمتين: إحداهما أن القضايا العطفية غامضة، ويمكن تفسيرها بطرائق متنوعة؛ والأخرى هي أن شروط (ق و ك) ليست ثابتة وفقا للقاعدة التي يضعها منطق القضايا، وإنما تعتمد شروط صدق العطف على السياق.

ولكن جرايس لم يذهب مذهب ستراوسون في نقد منطق القضايا، ولم يذهب مذهب أنصار منطق القضايا أيضا، وإنما رأى أن الفلاسفة الذين يقولون بوجود اختلافات في المعنى بين الأدوات المنطقية الصورية (أو الروابط المنطقية) ونظائرها في اللغة الطبيعية ينقسمون إلى اتجاهين: الاتجاه الصوري formalist والاتجاه اللاصوري informalist. ولعل أبرز من يمثل الاتجاه الصوري فلاسفة الوضعية المنطقية، الذين أظهروا نقائص اللغة الطبيعية، وقالوا إنها لا تفي بحاجات العلم من حيث الدقة والوضوح، ونادوا ببناء "لغة مثالية" ideal language أو كاملة منطقيا logically perfect. ومادامت معاني الروابط المنطقية واضحة، يستطيع المناطقة تقرير القضايا بوضوح أيضا، وتكون قيم صدقها محددة، ومتحررة من المضامين الميتافيزيقية، ويكون في مقدورهم صياغة أنساق من العبارات، وبيان كيفية انسجام بعضها مع بعض. والشيء الأساسي الذي كان يطمح إليه هؤلاء الفلاسفة هو بناء العلم على أسس متينة طالما أن عبارات العلم يمكن التعبير عنها عن طريق هذه اللغة المثالية .

على أن اللاصوريين لا يسلمون بالفروض التي يقيم عليها أصحاب الاتجاه الصوري مطالبتهم الفلسفية باللغة المثالية، وأبرز هذه الفروض:

1- المعيار الأساسي الذي نحكم به على كفاية اللغة هو قدرتها على الوفاء بحاجات العلم.

2- لا يمكن ضمان التعبير بوصفه معقولا إلا إذا قدمنا له توضيحا أو تحليلا لمعناه.

3- لابد من أن يأخذ كل توضيح للتعبير صورة التعريف الدقيق الذي يكون تقريرا عن تكافؤ منطقي.

ويرد اللاصوريون على هذه الفروض بقولهم: إن اللغة تؤدي أغراضا كثيرة ولا تقل في أهميتها عن أغراض البحث العلمي. ونستطيع أن نعرف معرفة تامة ما يعنيه التعبير (ونعرف بالأحرى أنه معقول) من غير أن نعرف تحليله . زد على ذلك أنه على حين يكون من الحق بلا ريب أن الوسائل الصورية سهلة الانقياد إلى المعاملة النسقية من جانب المنطقي، فيبقى من الحق أيضا أن

هناك حججا واستدلالات كثيرة يأتي التعبير عنها في اللغة الطبيعية وليس في حدود الأدوات الصورية، ومع ذلك تكون استدلالات صحيحة valid (12).

لا مندوحة إذن عن أن نفسح المجال أمام منطق للغة الطبيعية لا يكون نسقيا أو مبسطا كما هو الحال في المنطق الصوري. وربما يستعين المنطق الأول بالمنطق الثاني أو يسترشد به، ولكن يخطئ المرء إذا ظن أن المنطق الصوري يحل محل منطق اللغة الطبيعية. ولا يختلف المنطقان فحسب، وإنما يتعارضان أحيانا. فالقواعد التي تصح بالنسبة للأدوات الصورية ربما لا تصح بالنسبة لنظائرها الطبيعية (13).

والرأي عند جرايس أن الصوريين واللاصوريين مخطئون في افتراضهم المشترك الذي مؤداه أن الأدوات الصورية ونظائرها في اللغة الطبيعية تختلف في المعنى " وأن الخطأ ينشأ من انتباه غير كاف إلى طبيعة الشروط التي تحكم المحادثة وأهميتها "(14). والصواب إذن القول إنه لا واو العطف ولا القضايا العطفية غامضة، وإن شروط صدق (ق و ك) ثابتة لا تتغير كلما تغير السياق، وإنما هي مستقلة عن السياق. ويقال مثل هذا عن بقية روابط اللغة الطبيعية. فالقضايا العطفية في اللغة الطبيعية تملك معنى محددا هو معنى شرط الصدق الذي ينسبه إليها منطق القضايا، والجوانب الأخرى من معناها تفسر في حدود استعمال اللغة بوصفها مقتضيات. وبعبارة أخرى، فإن المعنى الأول للعطف هو مجرد الاشتراك في الصدق، أما المعنى التالي فلا يزيد على أن يكون اقتضاء تحادثيا.

4- المبدأ التعاوني وقواعد المحادثة

تعتمد نظرية جرايس في الاقتضاء على النظر إلى استعمال اللغة بوصفه ضربا من الفاعلية العقلية rational activity والتعاونية cooperative، والتي تروم تحقيق هدف الاتصال بين الناس . ولكي ينجح هذا الاتصال، لابد من أن تتوافر له درجة معينة من التعاون والتقارب في الأغراض بين المتكلمين. ويتجلى ذلك في مبدأ عام أطلق عليه جرايس اسم "المبدأ التعاوني" the cooperative principle يقول فيه:

"اجعل إسهامك التحادثي كما يتطلبه - عند المرحلة التي يحدث فيها - الغرض أو الاتجاه المقبول لتبادل الكلام الذي تشارك فيه" (15).

ولقد وسع جرايس هذا المبدأ العام للسلوك التحادثي في مجموعة من القواعد أطلق عليها اسم القواعد التحادثية conversational maxims، وصنف هذه القواعد تحت أربع مقولات categories جريا على طريقة كانت I.Kant (1724- 1804) وهى: الكم quantity، والكيف quality، والإضافة relation، والجهة manner:

1- مقولة الكم: ترتبط مقولة الكم بكمية المعلومات التي يجب تقديمها في المحادثة، وتتحقق بقاعدتين:

أ- اجعل إسهامك التحادثي إخباريا بالقدر المطلوب (بغية تحقيق الأغراض الحالية للمحادثة).

ب- لا تجعل إسهامك التحادثي إخباريا أكثر مما هو مطلوب.

2- مقولة الكيف: وتحت هذه المقولة تأتي قاعدة عامة: "حاول أن تجعل إسهامك التحادثي صادقا"، وتتجلى في قاعدتين :

أ- لا تقل ما تعتقد أنه كاذب.

ب- لا تقل ما تفتقر إلى دليل كاف عليه.

3- مقولة الإضافة: تحت هذه المقولة توجد قاعدة واحدة تقول:

- "كن ملائما".

4- مقولة الجهة: ينظر جرايس إلى هذه المقولة على أنها لا ترتبط بالمقول مثل المقولات السابقة، وإنما ترتبط بالأحرى بكيفية قول المقول. والقاعدة العامة التي تمثل هذه المقولة هي "كن واضحا"، ويندرج تحتها قواعد متنوعة مثل:

أ- اجتنب غموض obscurity التعبير.

ب- اجتنب اللبس ambiguity .

جـ- كن موجزا (اجتنب الإطالة بغير ضرورة) .

د- كن مرتبا.

ويقبل الناس هذه القواعد ويسلمون بها تسليما ضمنيا عند التخاطب،إلا إذا أرادوا شيئا آخر، وهي في ذلك تشبه المبادئ العامة للتفكير. فنحن نفترض أن المتكلم لا يقول أكثر ولا أقل مما هو مطلوب للحديث (الكم)، وأنه سيكون صادقا ومخلصا (الكيف)، وأن ما يقوله سيكون ملائما لغرض الحديث (الإضافة)، وأنه سيكون واضحا (الجهة).

ويجوز أن يطيع المتكلم جميع القواعد كما هو الحال في المثال التالي :

الأب: أين الأولاد ؟

الأم: إما أنهم يلعبون أسفل المبنى أو ذهبوا لشراء بعض الأشياء، ولست متأكدة أين هم على وجه الدقة.

هنا نلاحظ أن الأم قدمت القدر الصحيح المطلوب من المعلومات (الكم)، وأجابت بصدق أيضا (الكيف)، وأدركت هدف زوجها من طرح السؤال واتجهت بإجابتها نحوه، أي إن الإجابة هنا ملائمة (الإضافة)، وجاءت إجابتها واضحة (الجهة). وفي مثل هذه الحالة لا يوجد اقتضاء تحادثي طالما أنه لا يوجد تمييز بين ما قالته وما تعنيه.

وأدرك جرايس أن هناك حالات كثيرة يخفق فيها الناس في مراعاة القواعد واحترامها، وقد ينشأ هذا الإخفاق عن تعمد الكذب وخداع الآخرين أو عدم القدرة على التعبير عن المقاصد من وراء الكلام تعبيرا واضحا. وناقش جرايس مثل هذه الحالات، ولكنه صب جل جهده على الحالات التي يعجز فيها المتكلم عجزا بينا عن ملاحظة القواعد رغبة منه في حث المستمع على أن يلحظ معنى إضافيا يختلف عن المعنى الذي تعبر عنه كلماته.

ويتحقق الاقتضاء التحادثي بطريقتين: فأما الطريقة الأولى فهي الامتثال لقواعد المحادثة ومراعاتها، كما هو الحال في المثالين الأول والثاني (الحصول على البنزين، والذهاب إلى حديقة الحيوان) ؛ وأما الطريقة الثانية فهي الخروج على قواعد المحادثة وكسرها، وكما هو الحال في المثال الثالث. فأنت تجد في هذا المثال أن الأستاذ (ب) عندما قال: "الطالب (ع) جميل الخط ويحرص دائما على المواعيد"، فإنه قد خرق القاعدة الأولى في مقولة الكم، ويجوز القول بأنه قد خرق القاعدة المندرجة تحت مقولة الإضافة: "كن ملائما"، وأن هذا الخرق جاء خرقا علنيا ومقصودا. وما دام (ع) هو أحد طلاب الأستاذ (ب)، فإن الأستاذ (ب) كان في مقدوره أن يقدم المعلومات المطلوبة والملائمة بدلا من الحديث عن جمال الخط أو الحرص على المواعيد . ولو كان (ب) يعتقد أن (ع) جيد في فلسفة اللغة، لوجب عليه أن يقول ذلك، ولكنه كان يعتقد أن (ع) ليس جيدا، ولم يكن مستعدا لأن يصرح بذلك ؛ وانتهى السامع إلى أن المتكلم يريد أن يبلغ شيئا آخر. وأخص ما يمتاز به هذا المثال هو أنه يكشف عن الصلة بين الاقتضاء والمعنى لدى المتكلم، ذلك أن ما اقتضاه المتكلم تؤيده مقاصده الاتصالية .

وربما نحس أن حديث جرايس عن قواعد المحادثة - التي قد يختلف حولها علماء اللغة - هو أشبه شيء بعلم اللغة وأقرب إليه من شبهه بالفلسفة وقربه إليها. ولكن الحق أن هذه القواعد لم تكن غاية تطلب لذاتها، وإنما كانت وسيلة يبتغيها الفيلسوف ليصل إلى أغراضه ، وفي طليعتها أن الخلاف بين الصوريين واللاصوريين حول معاني الروابط المنطقية ونظائرها في اللغة الطبيعية يرجع إلى افتقار الفريقين إلى العناية الكافية بقواعد التخاطب.

فالدلالة الأولى لواو العطف هي الاشتراك في الصدق، وكل دلالة تالية هي مجرد اقتضاء. والقاعدة العامة لمقولة الجهة هي: "كن واضحا"، وهذه القاعدة تستلزم ترتيب عناصر الجملة أو الكلام ما استطاع المتكلم إلى ذلك سبيلا. ويتجلى ذلك في القاعدة الرابعة: "كن مرتبا" التي تقوم بدور مهم في فهم معنى الجملة العطفية مثل "تزوج محمد وفاطمة وأنجبا عددا من الأطفال"؛ وقائل هذه الجملة يريد أن ينقل معلومات عن حدوث شيئين هما الزواج والإنجاب ؛ أو قل إن الجملة تنقل الاقتراح بأن الأطفال يأتون بعد الزواج. ولكن هذا الاقتراح ليس شيئا آخر سوى اقتضاء تحادثي.

وإذا كان المتكلم مدركا للترتيب الذي تجري به الأحداث ، ثم قال: " أنجب محمد وفاطمة عددا من الأطفال وتزوجا "، فإنه لا يكون متعاونا uncooperative، لأنه خرج على قاعدة "كن مرتبا"، وتكون جملته مضللة.

ومما يزيد من قوة حجة القول بالاقتضاء على القول بغموض معاني العطف جمل من قبيل "أحس محمد بالمرض وزار الطبيب، ولكن ليس بالضرورة بهذا الترتيب"، فهذه الجملة لا تملك قراءة متناقضة. وفي هذه الحالة يؤكد المتكلم بوضوح أنه لا يعرف بدقة ترتيب الأحداث لكي يتفادى تضليل المستمع .

وإذا تبين أن الاقتضاء كاذب، فإن المتكلم يكون قد ضلل السامع، ولكن المتكلم
لا يكون كاذبا في كلامه . ومن ثمّ بجب علينا التمييز بين ما هو كاذب وما هو مضلل فقط. فإذا كان أحمد يعرف أنه لا يوجد بنزين في المحطة، ومع ذلك قال: "هناك محطة بنزين عند ناصية الشارع"، فإنه قد ضلل محمدا (في المثال الأول)، ولكن أحمد لم يكذب لأنه لم (يقل) بالفعل إن هناك بنزينا في المحطة. ولا يكون أحمد كاذبا في قوله إلا إذا (اعتقد) بأنه لا توجد محطة بنزين عند ناصية الشارع .

وهنا تتضح فكرة جرايس القائلة: إن واو العطف تملك معنى الاشتراك في الصدق، وأن معانيها الأخرى ، مثل الترتيب الزماني والعلاقة السببية، يجب فهمها على أنها مقتضيات أحرى من كونها معاني. ويستخدم جرايس لتسويغ فكرته هذا مبدأ منهجيا يجوز أن نسميه بمبدأ الاقتصاد الدلالي semantic parsimony والذي جاء تعديلا لمبدأ الاقتصاد الأنطولوجي ontological parsimony عند وليم أوكام (1285 - 1347 William Ockham) والمعروف باسم نصل أوكام Ockham`s Razor الذي يقول: لا يجب مضاعفة الكائنات من غير ضرورة .

Entia non sunt multiplicanda praeter necessitatem

Entities are not to be multiplied beyond necessity

واقترح جرايس صورة معدلة من نصل أوكام أطلق عليها اسم "نصل أوكام المعدل" Modified Ockam`s Razor وهاك نصه: "لا يجب مضاعفة المعاني من غير ضرورة"(16).

.Senses are not to be multiplied beyond necessity

رب معترض يعترض على نصل أوكام المعدل أو "نصل جرايس" Grice`s Razor، على حد تعبير ديفيس، بقوله صحيح إنه لا يجب مضاعفة المعاني من غير ضرورة، ولكن من الصحيح أيضا أنه لا يجب مضاعفة المقتضيات من غير ضرورة. والصيغة البسيطة لنصل جرايس لا تؤيد المقتضيات على حساب المعاني، والسبب في ذلك أنهما يدخلان معا في باب الكائنات الإضافية extra entities.ولكن جرايس وأنصاره يستطيعون الرد على هذا الاعتراض بأنه من الاقتصاد

التسليم بالمقتضيات أحرى من المعاني، لأن المقتضيات يمكن تفسيرها في حدود مبادئ سيكولوجية عامة للمحادثة، على حين أن المعاني تتطلب اصطلاحات لغوية محددة. والتسليم بالمعاني بدلا من المقتضيات يؤدي إلى نظرية شاملة معقدة إلى حد بعيد.إذ بالإضافة إلى القواعد العامة للسلوك العقلي التعاوني الذي يمثله مبدأ التعاون، فإن المعاني تستلزم مواضعات محددة تحكم استعمال كلمات معينة (17).

وبرغم الانتقادات التي وجهت إلى نظرية جرايس في الاقتضاء (18)، فإنها تحظى برواج بين علماء الدلالة؛ وسر ذلك أنها تمكن الباحث النظري، عندما تتوافر شروط معينة، من نقل عبء التفسير من علم الدلالة إلى علم الاستعمال. ومن هذه الوجهة من النظر، فإن الفكرة المهمة إلى حد بعيد هي فكرة عن المقتضيات التحادثية "العامة" generalized. وعندما يكون الاقتضاء التحادثي عاما، أعني عندما يتولد عن طريق الإهمال، فإنه يميل إلى أن يصبح غير قابل للتمييز من المحتوى الدلالي. ونظرية جرايس علمت عالم الدلالة ألا يأخذ أمثال هذه الحدوس الدلالية بالقيمة الظاهرية. وحتى لو ظهر شيء بحيث يكون جزءا من المحتوى الدلالي للمنطوق، فإن إمكانية تفسيره تفسيرا استعماليا pragmatically يجب أن تؤخذ دائما بعين الاعتبار (19).

وإن شئت أن تضع ذلك بعبارة أخرى قل إن إحدى مزايا نظرية الاقتضاء أنها تساعدنا في أن نضع جوانب حدسية كثيرة من المعنى في "سلة المهملات الاستعمالية" pragmatic wastebasket بوصفها مقتضيات، بدلا من أن تعامل بوصفها معطيات حقيقية لعلم الدلالة. وهكذا نجد أن أحد الدروس الدلالية التي تعلمنا إياها نظرية الاقتضاء هو التمييز المهم بين المضامين الدلالية بصورة حقيقية للعبارة والمضامين الاستعمالية فحسب.

ومهما تكن الدلالة السلبية لاستعارة " سلة المهملات " (إذ عادة ما تستخدم لجمع الأشياء التي لا نرغب فيها)، فإن هذه الطريقة في الكلام عن الأمور الاستعمالية اكتسبت وضعا معينا بين علماء الاستعمال وبخاصة في السنوات المبكرة من نشأة علم الاستعمال ؛ وتعود الفكرة إلى يهوشوا بار- هيلل Yehoshua Bar – Hillel (توفي سنة 1978) الذي وصف علم الدلالة بأنه سلة مهملات (20).والإدراك الصحيح لمغزى هذه الاستعارة يتطلب النظر إليها في سياق طموح علم اللغة إلى أن يكون علما دقيقا في أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات من القرن الماضي. وكان التوكيد في هذه الفترة على الاستدلال الصوري والاستخدام الرمزي المجرد. وجرى النظر إلى علم اللغة على أنه جبر اللغة (21).وهذه الفكرة بدت واضحة أيضا في استبعاد تشومسكي للجوانب الدلالية من النظرية اللغوية عندما قدم محاولاته الأولى في بناء نظرية النحو التوليدي التحويلي.

5- خاتمة

أكد رواد علم الاستعمال مثل أوستن ومالينوفسكي على الجانب الاجتماعي من اللغة في مقابل الجانب المعرفي ؛ ثم جاء جرايس ليؤكد على الجانب النفسي من استعمال اللغة من خلال نظريته القصدية في المعنى . وإذا نظرت إلى نظرية أفعال الكلام التي تقع في قلب علم الاستعمال، ستجد

أن أوستن، مبتكر هذه النظرية، يقرر أن أداء الأفعال الكلامية تحكمه القواعد والاصطلاحات، ولم ينظر بعين الاعتبار إلى مقاصد المتكلمين من وراء الكلام. ولكن جرايس اعتبر هذا نقصا يشوب النظرية، فأتمه بوجهة نظره القصدية التي حظيت بتعديل وتطوير، وتمثل الآن الاتجاه السائد في دراسة أفعال الكلام. وتجلى هذا التطوير في كتابات: ستراوسون وسيرل وهابرماس Jurgen Habermas (1929 -)وفاندرفكن Daniel Vanderveken (1949-) ومن جرى مجراهم. وقد عرضت عليك طرفا من إسهامات ستراوسون ، وجانبا جوهريا من التعديلات التي اقترحها سيرل . أما هابرماس فقد طرح في كتاب نظرية الفعل الاتصالي في مجلدين عام 1981، وفي غيره من مؤلفاته التي صدرت بعد سنة 1970 نظرية في الفعل الاتصالي communicative action استمد أصولها من نظرية أفعال الكلام، ونظرية الاقتضاء التحادثي عند جرايس، وعلم اللغة الاجتماعي . وسعى فاندرفكن في مقال "أفعال الكلام غير الحرفية والقواعد التحادثية" إلى تطوير علم الاستعمال النظري عن طريق صياغة مبادئ نظرية منطقية عامة للمعنى لدى المتكلم تساعده على وضع المنطوقات غير الحرفية وفهمها .

وها هو سيرل يقر بأن ضم التقرير القصدي عن المعنى إلى جانب المبادئ العقلية للتعاون التحادثي يؤتي ثمارا وفيرة ونتائج جيدة في تحليل مشكلات أفعال الكلام مثل "أفعال الكلام غير المباشرة" indirect speech acts والاستعمالات المجازية من قبيل الاستعارات metaphors . وفي الفعل الكلامي غير المباشر يعني المتكلم شيئا أكثر مما يقوله بالفعل . خذ مثلا بسيطا يوضح ذلك، عندما يقول المتكلم أثناء تناول الغداء: "هل تستطيع أن تناولني الملح ؟"، لا يمثل قوله سؤالا عن مدى قدرة المستمع على تقديم الملح، وإنما يمثل طلبا من المستمع أن يناوله الملح .

وينظر أنصار العلم الإدراكي cognitive science الآن إلى محاولة جرايس على أنها جزء من مشروعهم الأكبر لتقديم تقرير فيزيائي أو بيولوجي عن العقل والمعنى سواء بسواء. إن تكوين رؤية علمية لأنفسنا وللعالم الذي نعيش فيه، يستلزم إدراك الجوانب التي ننفرد بها دون سائر الكائنات . والشيء المحقق أن اللغة خصيصة إنسانية فريدة تميز النوع البشري من سائر الأنواع . ورغم أننا نستخدمها استخداما عاديا ويسيرا ومألوفا، فإنها تقف عقبة أمام اكتمال هذه الرؤية العلمية . ويسعى أصحاب العلم الإدراكي إلى إدخال اللغة في هذه الرؤية عن طريق الإفادة من النظرية القصدية في المعنى عند جرايس.

تبدأ أولى خطوات السير بالنظر إلى اللغة على أنها الوسيلة الجوهرية للمعنى ؛ صحيح أن هناك علامات سميوطيقية (رمزية) أخرى يستعين بها الإنسان أحيانا، مثل العلامات التي نلحظها على جانبي الطريق، ولكن تظل اللغة البشرية هي وسيلة المعنى الأولى بلا منازع . ويتجلى إسهام جرايس في أنه استطاع توضيح مفهوم المعنى في حدود سيكولوجية عامة مثل القصد والاعتقاد، وهذه هي الخطوة التانية. وأخيرا تبين الخطوة الثالثة أن مفاهيمنا النفسية يمكن تفسيرها في حدود بيولوجية. ونحن نفهم رد الدلالي إلى السيكولوجي الذي تقوم به نظرية جرايس على أنه رد بالمعنى الضعيف وليس ردا بالمعنى القوي. والرد بالمعنى الضعيف يعني أمرين: الأول أن أسبقية

العقل على اللغة هي أسبقية تحليلية وليست إبستمولوجية أو انطولوجية ؛ والثاني أن الرد الذي تقوم به النظرية القصدية لا يحيل كل قضايا المعنى إلى فلسفة العقل، ما دمنا قد انتهينا إلى أن نظرية جرايس تتلخص في القول: إن المعنى هو "القصد" بالإضافة إلى "الاصطلاح".

***

هوامش الفصل السادس

1- انظر: د. عادل فاخوري "الاقتضاء في التداول اللساني" عالم الفكر، الكويت، 1989، ص 141 حيث يستخدم مصطلح "علم التداول"، ومع ذلك فقد أحسن الدكتور فاخوري صنعا عندما اختار لمصطلح implicature مقابلا عربيا دقيقا هو الاقتضاء.

2- Charles Morris, “Foundation of the Theory of Signs”, in Writings on the General Theory of Signs, The Hague: Mouton, 1971, pp. 35,43.

3- Rudolf Carnap, Introduction to Semantics, Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1942, p.9.

4- Francois Recanati, “Pragmatics”, in Edward Craig, (General editor), Routledge Encyclopedia of Philosophy, Vol .7, p . 620.

5- William G. Lycan, “Philosophy of Language”, in Robert Audi, (General editor), The Cambridge Dictionary of Philosophy, Cambridge University Press, 1995, pp. 588 - 589.

6- لا يميز بعض الباحثين بين اللزوم implication والاقتضاء implicature فيسمى G.Leech and J.Thomas الاقتضاء "اللزوم الاستعمالي" pragmatic implication.

Geoffrey N. Leech and Jennifer Thomas, Pragmatics: The State of the Art, Lancaster University, 1988, p.19.

7- Paul Grice, Studies in the Way of Words, p .25.

8- L.T.F. Gamut, Logic, Language, and Meaning, Vol.1, Introduction to Logic, Chicago and London: The University of Chicago Press, 1991, p.198.

8- ربما نستعمل كلمة " أعزب " مثلا، لتعني أشياء كثيرة منها أنه حر من القيود الأسرية، أو أنه يتناول طعامه خارج منزله في غالب الأمر، ولكن معناها المتفق عليه هو "ذكر غير متزوج".

وانظر في بيان الاقتضاء التحادثي:

L.Karttunen and S. Peters, “Conversational Implicature”, in C .Oh and D.A. Dinneen (eds.), Syntax and Semantics, 11:Pressupposition, New York: Academic Press, 1979, pp.1-56.and see also: R. Walker, “Conversational Implicature”, in Simon Blackburn (ed.), Meaning, Reference, and Necessity: New Studies in Semantics, Cambridge: Cambridge University Press, pp .133-181 and K. Bach, “Conversational Implicatur”, Mind and Language, 9, 1994, pp. 124 – .161

.P.F. Strawson, Logico-Linguistic Papers, p.27 -10

انظر المناقشة التفصيلية لنظرية الأوصاف واعتراضات ستراوسون عليها د.محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، الطبعة الثالثة، القاهرة : دار المعارف، 1986، ص 278
وما بعدها.

Stephen Neale, “Paul Grice and the philosophy of Language”, p. -11 514; and see also: “Some Remarks about Grice’ s View about the Logical Particles of Natural Languag”, in Y. Bar–Hillel (eds .), Pragmatics of Natural Languages, Dordrecht : D . Reidel, 1971, pp ..50 – 68

.Paul Grice, Studies in the Way of Words, p .23 -12

.Ibid., pp.23-24 -13

.Ibid., p.24 -14

.Ibid., p.26 -15

قدم جرايس عمله في الاقتضاء التحادثي بصورة علنية للجمهور في المحاضرات المعروفة باسم محاضرات وليم جيمس في جامعة هارفارد في عام 1967 تحت عنوان: "المنطق والمحادثة"، ولكنه لم ينشر بصورة كاملة حتى ظهر في

P.Cole and J. Morgan (eds.), Syntax and Semantics, vol. 3: Speech .Acts, New York: Academic Press, pp .41 - 58

ثم أتبعه بـ "ملاحظات إضافية على المنطق والمحادثة" عام 1978.

.Ibid., p.47 -16

Wayne A. Davis, Implicature: Intention, Convention and Principle -17 in the Failure of Gricean Theory, Cambridge University Press, 1998, .p.19

Charles Travis, "On What is Strictly Speaking True", Canadian -18 Journal of Philosophy, 1985,15, pp.187-229. And see also P. Hugly and C. Sayward "A Problem about Conversational Implicature", Linguistics and Philosophy, 3, 1979, pp .19 – 25; and Kent Bach, "The Myth of Conventional Implicature", Linguistics and Philosophy, 22, 1999, pp. 327 – 366; and K. Sterelny, "Against Conversational .Implicature", Journal of Semantics, 1, 1982, p. 187

François Recanati, "Pragmatics", in Edward Craig (General -19 .editor), Routledge Encyclopedia of Philosophy, Vol.7, p. 627

Yehoshua Bar- Hillel, "Out of the Pragmatic Wast-basket," -20 .Linguistic Inquiry, 2, 1971, pp. 401- 407

Jacob L. Mey, Pragmatics: An Introduction, Oxford, UK& -21 .Cambridge, USA: Blackwell, 1998, p. 12

******

الفصل السابع

اللغة والصدق والواقع

1- حوامل الصدق

2- نظريات الصدق: مخطط عام

3- نظرية التناظر: الفكرة الأساسية

4- نوعان من التناظر

5- اعتراضات على نظرية التناظر

6- نظرية الاتساق: الفكرة الأساسية

7- معنيان للاتساق

8- اعتراضات على نظرية الاتساق

اللغة والصدق والواقع

تمهيد

ماذا عسى أن يكون الصدق؟ تقول الحكمة الفلسفية إن البحث عن إجابات دقيقة وصحيحة يتطلب طرح الأسئلة الدقيقة الصحيحة أولا. ولذلك يحسن بنا أن نميز بين مجموعة من الأسئلة المطروحة حول الصدق، ولعل أبرزها:

1- ما الصدق؟

2- ما الصادق؟

3- كيف ننجح في معرفة الصدق؟ وكيف نميز الصادق من الكاذب؟

تحاول نظريات الصدق تقديم إجابات مقنعة عن هذه الأسئلة وغيرها. ونحن نستخدم كلمة نظرية هنا بمعنى قريب من معناها في العلوم الطبيعية، فالنظرية هي مجموعة فروض تجمعها روابط منطقية. والفرض صيغة أو عبارة نظرية يسعى مع غيره من الفروض إلى تفسير ظاهرة طبيعية

أو مسألة من المسائل العقلية. وهذا يعني أن المهمة الأساسية للنظرية بصفة عامة هي أن تكون أداة للتفسير explanation، ومهمة أية نظرية في الصدق هي تفسير مفهوم الصدق تفسيرا مقنعا، وبيان علاقاته مع غيره من المفاهيم في فلسفة اللغة، ومفهوم المعنى على وجه الخصوص. وإذا كانت نظرية المعنى تهتم في المقام الأول بتحديد معنى الكلمة أو الجملة، فإن نظرية الصدق تركز أكثر ما تركز على صدق الجملة أو القضية.

ويبدأ البحث الفلسفي في الصدق بتحذيرنا من الخلط بين الأسئلة التي يتعين على النظرية الإجابة عنها. فالسؤال الأول من الأسئلة السابقة يدور حول طبيعة الصدق the nature of truth، ويدور السؤال الثاني حول "الأشياء" التي تكون صادقة والتي سنقبل منها ما يعرف باسم "حوامل الصدق" truth-bearers، أما السؤال الثالث فيرتبط "بطبيعة التحقق" the nature of verification من صدق الأشياء الصادقة. السؤال الأول نظري والثالث عملي.

أما الأشياء التي نصفها بأنها صادقة فيمكن تقسيمها إلى فئتين: أشياء تقال ويعبر عنها باللغة مثل العبارات، والقضايا، والاعتقادات، والملاحظات، وهلم جرا. وأشياء أخرى يجوز وصفها بأنها "صادقة" ولكنها لا تدخل في إطار المقول، ولا يمكن قولها
ولا صياغتها في اللغة مثل الأصدقاء، والشجاعة، واللآلئ. وعندما يقول الصديق قولا ما، فإننا نصفه بأنه صادق فيما قال، ولكن الصديق لا يقال ولا نصوغه في اللغة.

والقول إن الصفة "صادق" تستخدم لوصف الأشياء الواردة في الفئتين استخداما مختلفا يمكن توضيحه عن طريق النقاط التالية:

1- نستطيع أن نبحث عن الصدق في عبارة صادقة مثلا، ولكننا لا نستطيع أن نبحث عن الصدق في شجاعة صادقة.

2- يمكن أن تكون العبارة صادقة كلية أو صادقة في جانب منها، ولكن الشجاعة
لا تكون هكذا.

3- عندما نكتشف أن العبارة ليست صادقة، فإننا لا نشك في وضعها كعبارة. ولكن لو اكتشفنا أن شخصا ما لا يظهر شجاعة صادقة، فإننا نشك في كونه شجاعا (1).

4- الصدق والكذب نقيضان بالنسبة للعبارات والاعتقادات. فالعبارات والاعتقادات التي لا تكون صادقة تكون كاذبة. ولكن الأمر لا يكون كذلك بالنسبة إلى الصديق مثلا، فإذا لم يكن المرء صديقا صادقا، فإن هذا لا يستلزم بالضرورة أن يكون صديقا كاذبا. لأن الصديق الكاذب لا يكون صديقا أبدا. وأنت تلحظ لمحة خاطفة من عبقرية اللغة العربية عندما ترى معي أن كلمة "صديق" في العربية مشتقة من "الصدق".

والذي يعنينا عند بحث مفهوم الصدق هو الأشياء التي تنتمي إلى الفئة الأولى وهي حوامل الصدق. وقد اختلفت آراء الفلاسفة فيما عساها أن تكون حوامل الصدق اختلافا بعيدا. فمنهم من قال إنها الجمل، ومنهم من قال إنها القضايا أو العبارات، ومنهم من قال إنها الاعتقادات أو الأحكام، وهلم جرا.

إذا كان السؤال الأول: "ما الصدق؟" يثير مشكلة أحيانا عندما نخلط بين تعريف الصدق ومعياره، وإذا كان السؤال الثاني: "ما الصادق؟" يثير مشكلة أخرى إذا لم نركز بحثنا على الأشياء الصادقة في الفئة الأولى، فإن السؤال الثالث: "كيف ننجح في معرفة الصدق، وتمييز الصادق من الكاذب؟" يثير مشكلة ثالثة تتعلق "بأنماط" الأسئلة المطروحة حول الصدق، وبخاصة من زاوية طريقة التحقق من صدق العبارة أو كذبها.

انظر إلى السؤالين التاليين:

1- كيف نستطيع إثبات أن العبارة "يوجد في الطبق خمس برتقالات" صادقة أو كاذبة؟

2- كيف نستطيع إثبات أن عبارة معينة صادقة أو كاذبة؟

الشيء الذي لا شك فيه أن الإجابة عن السؤال الأول أيسر بكثير من الإجابة عن السؤال الثاني، وسر ذلك بسيط وهو أن السؤال الأول يثير مسألة عينية مادية لا تجد خبراتنا الحسية أدنى مشقة في التعامل معها. أما السؤال الثاني فموضوعه عام، ولذلك يتطلب شيئا من التحديد، وترانا نطرح سؤالا آخر: ما نوع العبارة التي تتكلم عنها؟

وربما كان من اصطناع الدقة والحذر أن نقرر هنا أن هناك مجموعة كبيرة من الأسئلة الممكنة، ومجموعة كبيرة من "الأنماط" المختلفة للسؤال الذي يمكن طرحه حول إثبات الصدق والكذب. فالسؤال الثاني يدفعنا إلى سؤال آخر: وهو كيف نستطيع أن نثبت صدق أو كذب العبارات التالية (2):

1- يوجد على الأقل أسد واحد في حديقة الحيوان بالجيزة.

2- هناك ألغام في أرض سيناء.

3- التدخين يسبب سرطان الرئة.

4- الوزن الذري للنحاس 63,54.

5- 1913 عدد أولي.

6- هناك مجموعة لا متناهية من الأعداد الأولية.

7- الإجهاض خطيئة.

والجواب عن السؤال: كيف نثبت صدق أية عبارة من هذه العبارات؟ يعتمد على طبيعة كل عبارة. وطبيعة العبارة تحدد المنهج الذي نحدد به قيمة صدق truth value العبارة، أي الحكم عليها بالصدق أو الكذب. ونحن نستطيع أن نكتشف وجود أسد واحد على الأقل في حديقة الحيوان عن طريق الذهاب إلى هناك والنظر إلى هذا الحيوان، ومعنى هذا أن العبارة الأولى يمكن التحقق من قيمة صدقها عن طريق الملاحظة البسيطة. أما إثبات صدق العبارات (2، 3، 4) فإنه يتطلب مناهج معقدة إلى حد كبير، برغم أنها تشبه العبارة (1) في أنها تتطلب الملاحظة الحسية كأساس لعملية إثبات قيمة الصدق.
ولا يتحقق إثبات صدق العبارتين 5، 6 عن طريق الملاحظة الحسية، وإنما يلجأ الرياضيون إلى المنهج الاستنباطي. وتثير العبارة (7) جدلا بين فلاسفة الأخلاق، ويدخل الدين بقوة في هذا الجدل أيضا.

ولكن إذا استطعنا تفسير هذه العبارات الأخيرة تفسيرا تجريبيا، فإنها تدخل في إطار العبارات التجريبية. قارن، على سبيل المثال، بين العبارتين اللتين يجوز أن تظهرا في سياق سياسي:

1- الشورى هي صورة الحكومة المستقرة إلى أبعد الحدود.

2- الديمقراطية هي أفضل صورة للحكومة.

تجد أن الأولى عبارة تجريبية يمكن تأييدها بالدليل التاريخي، أما الثانية فليست عبارة تجريبية (3). وذلك لأنها تحتوي على لفظة من ألفاظ القيمة وهي "أفضل".

1- حـوامـل الصــدق

اختلفت آراء الفلاسفة في حوامل الصدق اختلافا بعيدا، وغالبا ما تجيب النظريات المتنافسة في الصدق إجابات مختلفة عن السؤال: ما هو حامل الصدق؟ ويمكن أن نوجز هذه الإجابات على النحو التالي:

1- الاعتقادات beliefs هي حوامل الصدق، وأبرز من يمثل هذا الرأي رسل.

2- الجمل sentences هي حوامل الصدق، وأبرز من يمثل هذا الرأي تارسكي وديفيدسون.

3- القضايا propositions هي حوامل الصدق وفي طليعة من يمثل هذا الرأي فريجه.

4- الجمل الدائمة eternal sentences هي حوامل الصدق، ونادى بهذا الرأي كواين.

5- الأفكار ideas هي حوامل الصدق، وأبرز من يمثل هذا الرأي جيمس.

6- الأحكام judgments هي حوامل الصدق، وأبرز من نادى بذلك بلانشارد.

7- العبارات statements هي حوامل الصدق، ونادى بذلك أوستن.

8- لا توجد حوامل للصدق، وقال بذلك رامزي وستراوسون.

وليس في وسعنا مناقشة كل هذه الآراء، وحسبنا أن نتوقف عند بعضها.

إذا نظرنا في استعمالاتنا للغة، وجدنا أنها كثيرة ومتنوعة. فهناك التساؤل، والطلب، والوعد، والوعيد، والسب واللعن، والنداء والتوسل، والوصف والخبر، والتمني والتعجب، ونحو ذلك. فهل كل هذه الاستعمالات توصف بأنها منطوقات صادقة أو كاذبة.

الجملة هي وحدة المعنى اللغوي، وتتألف من عدة عناصر. تأمل الجمل التالية: القطة على الحصير. القطة الحصير على. الكتب الجديدة تبدو سعيدة.الجملة الأولى ذات معنى، ويمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب. والجملة الثانية خالية من المعنى برغم أنها تتكون من نفس الكلمات، ولكنها تفتقر إلى الترتيب النحوي ولا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب. والجملة الثالثة خالية من المعنى مع أنها صحيحة نحويا، ويتعذر الحكم عليها بالصدق أو الكذب. ولكن، حتى لو التزمنا في بناء الجملة بجميع عناصرها النحوية والدلالية، فإن الجمل التي يحكم عليها بصدق أو بكذب هي فقط الجمل الإخبارية declarative sentences. واستعمالات اللغة التي تأتي على صورة الاستفهام والتوسل والترجي والتعجب والالتماس والأمر والنهي، وما جرى مجراها لا يقال لقائلها إنه صادق أو كاذب، أما الاستعمال اللغوي الذي يقال لقائله إنه صادق أو كاذب فهو الخبر. ومن هنا كانت عناية الفلاسفة بالجمل الإخبارية التي تقرر حالة من حالات الواقع.

والسؤال الآن هو: هل القضايا هي الجمل الإخبارية؟ أحيانا يقال إن القضية هي الجملة الإخبارية، ولكن هذا التعريف تعترضه بعض الصعوبات هي:

1- يجوز أن يستخدم الجملة الإخبارية أشخاص مختلفون.

2- يجوز أن يستخدم الجملة الإخبارية شخص واحد في مناسبات مختلفة.

وهذا يعني أن الجملة "السماء تمطر" يمكن أن تكون صادقة بالنسبة لشخص وكاذبة بالنسبة لشخص آخر، أو صادقة بالنسبة لشخص في وقت معين وكاذبة بالنسبة للشخص نفسه في وقت آخر.

3- يمكن التعبير عن القضية الواحدة بجملتين في لغتين مختلفتين مثل:

أ- القطة على الحصير.

ب- the cat is on the mat ، أو

أ- البعيد عن العين، بعيد عن البال.

ب- out of sight, out of mind

ولو كانت القضية مرادفة للجملة الإخبارية، لكنا إزاء قضيتين. ولكننا أمام جملتين وقضية واحدة فقط.

4- يمكن التعبير عن القضية الواحدة بأكثر من جملة في لغة واحدة فقط:

أ- هزمت مصر إسرائيل في السادس من أكتوبر عام 1973.

ب- هُزمت إسرائيل من مصر في السادس من أكتوبر عام 1973.

وفي محاولة لتفادي هذه الصعوبات يمكن القول إن القضية هي ما تعبر عنه الجملة الإخبارية، أو هي مضمون الجملة الإخبارية الذي يمكن نقله بأكثر من صيغة وبأكثر من لغة، ويقبل الحكم عليه بالصدق أو الكذب.

ولكن الوضع الانطولوجي للقضايا يثير مشكلة إذا ما قورن بالوضع الانطولوجي للجمل الإخبارية، فالجمل الإخبارية هي أصوات منطوقة أو كلمات مكتوبة أو منقوشة. أما القضايا فيقال إنها كائنات عقلية 4) mental entities). ويميز فريجه بين ثلاثة موضوعات (5):

1- الجملة المنطوقة أو المكتوبة.

2- الفكرة idea العقلية المصاحبة للجملة.

3- القضية gedanke (وترجمتها في الإنجليزية proposition أو thought التي تعبر عنها الجملة).

وإذا كانت الجملة لها وجود فيزيائي، والفكرة لها وجود عقلي حيث توجد في عقل الإنسان، فإن القضية لا تنتمي إلى العالم الفيزيائي (العالم الأول) ولا العالم العقلي (العالم الثاني)، وإنما تنتمي إلى عالم لا زمن لـه وهو عالم المعاني والكائنات المجردة مثل حقائق المنطق والرياضيات، ويسمى فريجه هذا العالم باسم (العالم الثالث) الذي يذكرنا بعالم المثل عند أفلاطون. والقضية في رأي فريجه غير مادية ولكنها ترتدي رداءً ماديا في جملة، وبذلك تصبح ممكنة الفهم بالنسبة إلينا.

ولكن هناك بعض الفلاسفة الذين ينتمون إلى الفلسفة التجريبية، مثل كواين، يرفضون قبول القضايا كحوامل صدق لعدة أسباب حسبنا منها ثلاثة:

السبب الأول هو أن القضايا ليست موضوعات تقع للمرء في خبرته المباشرة، وإنما يستدل عليها. وهي ليست موضوعات يستدل عليها من النوع الذي يحظى بالاحترام من الناحية العلمية مثل الجينات والإلكترونات، لأن افتراض وجود مثل هذه الكائنات العلمية يمكن استعماله للتنبؤ بنتائج قابلة للملاحظة، زد على ذلك أن هذه الكائنات تسد نقصا في بنية العلم.

السبب الثاني هو الاستعانة بمبدأ الاقتصاد الفكري الذي ينسب إلى وليم اوكام William Ockham (1285- 1347) ويقول: "لا يجب مضاعفة الكائنات بغير ضرورة". entities are not to be multiplied beyond necessity وانطلاقا من هذا المبدأ الذي يسمى باسم "نصل اوكام" Ockham's Razor، يجري النظر إلى القضايا بوصفها كائنات إضافية extra entities لا ضرورة لها.

فالعالم المؤلف من نوعين أساسيين من الكائنات هو عالم يحظى بقبول نظري أكثر من العالم المؤلف من ثلاثة أنواع. وبالإضافة إلى ذلك، لا توجد قضايا صادقة فحسب في هذا العالم الثالث عند فريجه، بل لابد من أن ندخل في حسابنا عددا لا يحصى من القضايا الكاذبة أيضا بالنسبة لكل قضية صادقة. وهذا يتعارض مرة أخرى مع نصل اوكام(6).

السبب الثالث هو صعوبة التشخيص individuation بالنسبة إلى القضايا. فالقضايا تفتقر إلى معايير واضحة للهوية criteria of identity. ومعيار الهوية لكائن معين هو المعيار الذي يمكن به تشخيص هذا الكائن وتحديد ماهيته والتمييز بينه وبين الكائنات الأخرى. والمبدأ الفلسفي الذي ابتكره كواين هنا وشاع في الفلسفة المعاصرة هو
لا كائن دون هوية no entity without identity. ويتساءل كواين: "ما المغزى الذي يمكن أن يوجد في الحديث عن كائنات لا يمكن القول على نحو ذي معنى إن الواحد منها يتطابق مع ذاته ويتميز من الآخر؟" (7).

انتقد كواين القضايا ورأى أن البديل المعقول لها هو الجمل الدائمة eternal sentences(8).
ويمكن توضيح طبيعة هذه الجمل عن طريق المقابلة بين الجملتين التاليتين :

1- عميد كلية الآداب أستاذ للأدب العربي.

2- جزيئ البنزين له ست ذرات كربون.

الجملة الثانية صادقة بالنسبة لكل ذرات البنزين في كل زمان ومكان، أما الجملة الأولى فتعتمد في صدقها أو كذبها على شخص عميد كلية الآداب الذي نشير إليه، والوقت الذي وضع فيه هذا التقرير، ونحو ذلك. ونستطيع أن نكمل الثغرات الواردة في هذه الجملة ونحصل على:

3- عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة في سنة 1930 أستاذ للأدب العربي.

التي تكون صادقة أو كاذبة بشكل ثابت. ولو فعلنا ذلك مع بقية الجمل الإخبارية، فسوف نحصل على جمل لا تتغير قيمة صدقها بتغير الوقت أو المتكلم، وهذه هي الجمل الدائمة.

2- نظريات الصدق : مخطط عام

يقول المعنى اللغوي لكلمة الصدق في اللغتين العربية والإنجليزية مثلا إن الصدق نقيض الكذب، وهو مطابقة القول أو الحكم للواقع. يقول الجرجاني في "التعريفات": "الصدق لغة مطابقة الحكم للواقع" (9). وفي قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية يعرف الصدق بأنه "التطابق مع الواقعة، والاتفاق مع الواقع".

.Truth: conformity with fact, agreement with reality

وأول ما نلاحظه على هذا المعنى اللغوي أنه ضيق إلى حد كبير، وبالإضافة إلى ذلك لا يقدم شيئا لتحديد معنى "المطابقة" و"الواقع".

ولم يقنع الفلاسفة بالمعنى اللغوي للصدق الذي يأخذ الأشياء من قريب، وإنما سلكوا في دراسته طرقا طويلة عسيرة، واستقصوا عناصره ومكوناته استقصاء حسنا، وخلصوا من طول النظر فيه إلى نظريات متنوعة تتباين حينا وتتكامل حينا آخر، وسوف نشير إليها الآن بإيجاز، ونفصل القول في أبرزها بعد ذلك.

نظريات الصدق الأساسية:

1- نظرية التناظر Correspondence Theory

هي أكثر نظريات الصدق قبولا وأقربها إلى الفهم العادي للصدق. وتقول بصفة عامة إن الصدق يتوقف على علاقة تناظر مع الواقع، ويكون الشيء صادقا عندما يتناظر مع الوقائع. وهناك نوعان من هذه النظرية: الأول هو الصدق بوصفه تطابقا congruence والثاني هو الصدق بوصفه ارتباطا correlation. نادى بالنوع الأول فلاسفة مثل مور ورسل وفتجنشتين، ونادى بالنوع الثاني فلاسفة مثل أوستن.

2- نظريات الاتساق Coherence Theory

تقول إن الصدق يكمن في علاقة الاتساق أو الارتباط المتبادل بين الاعتقادات الصادقة. وهذا يعني أن الاعتقاد الصادق (أو الحكم أو كائنا ما كان حامل الصدق) لابد من أن يكون منسجما مع المجموعة الأساسية من اعتقاداتنا الصادقة. وتجلت هذه النظرية في كتابات: برادلي وبلانشارد ونيورات وهمبل.

3- النظرية البراجماتية Pragmatic Theory

تقول إن صدق الفكرة أو الاعتقاد يتوقف على الفائدة والنفع المترتب على قبوله. وهذا الرأي يرتبط أكثر ما يرتبط بوليم جيمس، ولكن بيرس يرى أن الصدق هو الإجماع النهائي بين العلماء عند معالجة قضايا العلوم والواقع. ويمكن القول بصفة عامة إن البراجماتيين ينظرون إلى الصدق على أنه قيمة معرفية عملية.

4- النظرية الدلالية Semantic Theory

تقول إن الصدق خاصية للجمل. ومؤسس هذه النظرية هو الفيلسوف والمنطقي البولندي ألفرد تارسكي الذي لم يستخدم أبدا عنوان: "النظرية الدلالية في الصدق"، وإنما كان يفضل استعمال "التصور الدلالي للصدق". ووضع تارسكي نظريته بغية التغلب على المفارقات الدلالية semantic paradoxes التي يثيرها الكلام عن الصدق في اللغات الطبيعية. وأبرز هذه المفارقات مفارقة الكذاب liar paradox. ولا يقدم تارسكي تعريفا عاما للصدق كما هو الحال في النظريات الأخرى، وإنما يرى أن التعريف المقبول للصدق لابد من أن يستوفي شرطين: الأول أن يكون التعريف كافيا ماديا، والثاني أن يكون صحيحا صوريا. وحسبنا أن نقول بإيجاز إن تارسكي يعرف الصدق في حدود العلاقة الدلالية "للاستيفاء" وهي علاقة بين دالة الجملة والأشياء غير اللغوية التي تستوفيها. وتبني نظرية تارسكي مجموعة من الفلاسفة مثل كارل بوبر ودونالد ديفيدسون، وطبقها الأخير على اللغات الطبيعية.

5- نظرية الإضافة Redundancy Theory

تقول إن الصفة "صادق" أو "كاذب" والتعبيرات "من الصدق أن ..." و"من الكذب أن ...." التي توضع في مقدمة العبارات أو في نهايتها هي صفات وتعبيرات إضافية
لا ضرورة لها. وهذا يعني أن التوكيد على أن العبارة صادقة هو مجرد التوكيد على العبارة ذاتها. على سبيل المثال، القول إن العبارة "السماء تمطر" صادقة يكافؤ القول إن السماء تمطر. ووضع فريجه أصول هذه النظرية، واشتهر بها رامزي وكواين. وتعرف النظرية أحيانا باسم النظرية التفريغية deflationary theory، وتعرف نظرية كواين باسم نظرية اللاتنصيص في الصدق disquatational theory.

3- نظرية التناظر: الفكرة الأساسية

تعد نظرية التناظر أكثر نظريات الصدق شهرة وقبولا في ناحية، وأكثرها إثارة للجدل والنقاش في ناحية أخرى. وترتكز النظرية على فكرة عامة تقول إن الصدق يتوقف على علاقة مع الواقع. أي إن الصدق خاصية علاقية relational property. صحيح أن الصدق خاصية للاعتقادات أو حوامل الصدق كائنة ما تكون، ولكن الاعتقادات لابد من أن تكون صادقة بمقتضى شيء خارجي

ترتبط به أو تتعلق به بعلاقة ما. ومهمة نظرية الصدق هي توضيح هذه العلاقة. والتفسير الذي تقدمه نظرية التناظر لهذه العلاقة هو أن الصدق تناظر مع الواقع.

وإذا افترضنا أن (س) تشير إلى حامل صدق، سواء كان اعتقادا أو قضية أو غيرهما، فإننا نستطيع التعبير عن نظرية التناظر بالصيغة الموجزة التالية:

(س) تكون صادقة إذا كانت (س) تناظر واقعة معينة.

(س) تكون كاذبة إذا كانت (س) لا تناظر أيـة واقعة.

وأخص ما تمتاز به نظرية التناظر في رأي أنصارها هو وضوحها وبساطتها، ناهيك عن أنها أقرب النظريات الفلسفية إلى فهم الإنسان العادي. وفي التأكيد على وضوح هذه النظرية يقول ديكارت في خطاب إلى ميرسين Mersenne في 16 أكتوبر 1639: "لا تساورني أبدا أية شكوك حول الصدق، لأنه يبدو فكرة واضحة وضوحا ترانسندنتاليا إلى درجة يتعذر معها أن يكون أي شخص جاهلا به... وكلمة الصدق في معناها الدقيق، تدل على انسجام الفكر مع موضوعه" (10).

فإذا نظرت إلى التعبيرات التي يقدمها أنصار نظرية التناظر عن العلاقة بين حامل الصدق والواقع، وجدتها متباينة، ولعل أبرزها ما يلي: التناظر correspondence التطابق congruence الارتباط correlation التأييد conformity الاتفاق agreement التصوير picturing التمثيل representation الإشارة reference.

أما الشيء الخارجي الذي يتناظر معه حامل الصدق، فعبر عنه أصحاب نظرية التناظر تعبيرات مختلفة، أشهرها أن هذا الشيء هو الوقائع facts وهذا رأي مور ورسل وفتجنشتين. وهناك تعبيرات أخرى مثل حالات الواقع (أو سير الأحوال) states of affairs، ويؤيد هذا التعبير الفيلسوف الاسترالي ديفيد أرمسترونج (1926- 2014)،(11) ومثل المواقف situations، والموضوعات أو الأشياء objects، والحوادث events.

4- نوعان من التناظر

اختلفت آراء أنصار علاقة التناظر في فهمه، ونتج عن هذا الاختلاف نوعان من التناظر:

1- التناظر بوصفه تطابقا correspondence as congruence

2- التناظر بوصفه ارتباطا correspondence as correlation

والتناظر بوصفه تطابقا يعني وجود تماثل بنيوي structural isomorphism بين حوامل الصدق والوقائع التي تناظرها وذلك عندما يكون حامل الصدق صادقا. وتتماثل أجزاء حامل الصدق مع أجزاء الواقعة مثلما يتماثل النصفان من قطعة ورق ممزقة. وبسبب هذا التماثل يقول أنصار التناظر بوصفه تطابقا: إن الواقعة وحامل الصدق يناظر الواحد منهما الآخر. وتعكس بنية الاعتقادات (والقضايا والجمل، أو كائنا ما كان حامل الصدق) بنية الوقائع بالطريقة التي تعكس بها الخريطة بنية هذا الجزء من العالم الذي تمثله (12).

ويقول التناظر بوصفه ارتباطا إن كل حامل صدق يرتبط بحالات الواقع أو سير الأحوال. إذا كانت حالة الواقع الذي ارتبط به حامل صدق معين سائدة بالفعل، صدق حامل الصدق. وإذا لم تكن حالة الواقع سائدة بالفعل، كذب حامل الصدق. والشيء الذي لا تزعمه نظرية التناظر بوصفه ارتباطا هو أن حامل الصدق يعكس mirrors حالة الواقع أو يصورها pictures، أو يتماثل مع حالة الواقع المرتبط بها من حيث التركيب. إن حامل الصدق ككل يرتبط بحالة الواقع ككل.

ينكر أصحاب نظرية التناظر بوصفه ارتباطا وجود أي شيء طبيعي بين الاعتقادات (وغيرها من حوامل الصدق) والوقائع. فالارتباط يأتي نتيجة للمواضعات اللغوية التي هي ذاتها نتيجة للتطور التاريخي للغة (13).

وأنت تلحظ هذه الفكرة في قول أوستن صاحب نظرية التناظر بوصفه ارتباطا:
"لا توجد حاجة مهما تكن للكلمات المستعملة في وضع العبارة الصادقة (لتعكس) بأية طريقة، وإن كانت غير مباشرة، أي ملمح كائنا ما كان في الموقف أو الحادثة" (14). والتناظر بين الكلمات أو الجمل والمواقف والحوادث في العالم هو مسألة اصطلاحية بصورة مطلقة. ولن نتوقف طويلا عند مناقشة هذه الصورة من نظرية التناظر، وحسبنا أن نركز على الصورة الثانية، أي التناظر بوصفه تطابقا، ودافعنا إلى ذلك هو كثرة أنصارها وكثرة نقادها أيضا.

اقترح أفلاطون نظرية التناظر بوصفه تطابقا في محاورة السوفسطائي. وجاء أرسطو وقدم صورة من نظرية التناظر هي أقرب إلى التناظر بوصفه ارتباطا في عبارته المشهورة في كتاب الميتافيزيقا "عندما نقول عن شيء موجود إنه ليس موجودا، أو نقول عن شيء غير موجود إنه موجود، فإننا نقول الكذب. على حين أنه عندما نقول عن شيء موجود إنه موجود، أو نقول عن شيء غير موجود إنه ليس موجودا، فإننا نقول الصدق" (15).خذ مثلا يوضح فكرة أرسطو. العبارة القائلة: إن "مساحة السعودية أكبر من العراق" صادقة لأنها تقول عما يوجد (كون السعودية أكبر من العراق) إنه يوجد (مساحة السعودية أكبر من العراق). والعبارة القائلة إن "السعودية شمال العراق" كاذبة لأنها تقول عما لا يوجد (كون السعودية شمال العراق) إنه يوجد (السعودية شمال العراق).

نظرية التناظر بوصفه تطابقا: ظهرت الصيغ الجديدة لنظرية التناظر في القرن العشرين عند مور ورسل وفتجنشتين. فيقول مور في كتاب بعض المشكلات الأساسية في الفلسفة 1910-1911: "

يملك الاعتقاد إذا كان صادقا، علاقة معينة بواقعة ... وأقترح أن أسميها علاقة التناظر (correspondence" (16. أما رسل فقد ناقش ثلاث نظريات للصدق في كتاب مشكلات الفلسفة 1912 وهي نظرية التناظر ونظرية الاتساق والنظرية البراجماتية. ويعد رسل بحق أول من بسط مصطلح نظرية التناظر في الصدق ويقول في مشكلات الفلسفة: "وهكذا يكون الاعتقاد صادقا عندما توجد واقعة مناظرة، ويكون كاذبا عندما لا توجد واقعة مناظرة" (17).

Thus a belief is true when there is a corresponding fact, and is false .when there is no corresponding fact

وعلى خلاف التصور الأرسطي للتناظر، نجد أن الصيغتين اللتين قدمهما مور ورسل تكشفان بوضوح عناصر النظرية. فحوامل الصدق هي الاعتقادات، والأجزاء المناظرة لها من الواقع هي الوقائع، والعلاقة هي التناظر.

والرأي عند رسل أن الاعتقاد علاقة تقوم بين أربعة أشياء مختلفة. الأول هو الذات subject وهو الشخص الذي يملك الاعتقاد. والثاني والثالث هما حدا الموضوع object terms. أحدهما يناظر الفاعل في الجملة، والآخر يناظر المفعول به في الجملة. والحد الرابع هو علاقة الموضوع object relation والتي تناظر تقريبا الفعل في الجملة، وهي العلاقة التي تقوم بين حدي الموضوع. وعلى هذا النحو فإن اعتقاد محمد بأن فاطمة تحب عليا هو علاقة مركبة بين (محمد) الذات مالك الاعتقاد، و(فاطمة) حد الموضوع، و(على) حد الموضوع الآخر، و(الحب) هو علاقة الموضوع.

وينسب رسل إلى العلاقة المركبة للاعتقاد فكرة أخرى هي الاتجاه direction. فالاتجاه هو السبب في أن اعتقاد محمد بأن فاطمة تحب عليا مختلف عن اعتقاد محمد بأن عليا يحب فاطمة، مع أن الاعتقادين يملكان نفس الحدود الأربعة. في الاعتقاد الأول يأتي الاتجاه من محمد إلى فاطمة إلى الحب إلى علي، وفي الاعتقاد الثاني يأتي الاتجاه من محمد إلى علي إلى الحب إلى فاطمة. ويقول رسل: "وعلى هذا النحو يكون الاعتقاد صادقا عندما يناظر مركبا معينا مترابطا، ويكون كاذبا عندما لا يناظر ذلك المركب" (18).

إن المتأمل في المركب المناظر للاعتقاد، الذي أطلق عليه رسل اسم الواقعة، يرى أن الوقائع تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

1- واقعة جزئية مثل (هذا أبيض) أو كلية (كل سم قاتل).

2- واقعة موجبة مثل (سقراط فيلسوف) أو سالبة مثل (سقراط عالم رياضيات) وهي قضية لا تناظرها واقعة.

3- واقعة مرتبطة بأشياء وصفات وعلاقات جزئية أو واقعة عامة مطلقة مثل قواعد المنطق.

ويرى رسل أن الصدق يستلزم تطابقا بين علاقتين مركبتين. ويكون الاعتقاد صادقا إذا كانت الحدود مرتبطة في الواقعة بنفس طريقة ارتباطها في الاعتقاد. ويكون الاعتقاد كاذبا إذا كانت الحدود في الواقعة مرتبطة بطريقة أخرى غير طريقة ارتباطها في الاعتقاد. وفي مثالنا "يعتقد محمد أن فاطمة تحب عليا"، يكون الاعتقاد كاذبا إذا كان على هو الذي يحب فاطمة أو إذا كانت فاطمة شخصية خيالية.

عندما كانت الحرب العالمية الأولى ترسل نذرها إلى الأرض، كان فتجنشتين يضع فلسفته المعروفة باسم الذرية المنطقية والتي ارتبط فيها برسل فيما بعد. وأكد الاثنان على نظرية التناظر في الصدق في صورة مختلفة عن صورة نظرية التناظر التي اقترحها مور ورسل من قبل. ولا تزال القضايا الصادقة هي القضايا التي تناظر الواقعة، ولكن تصور الواقعة اختلف بعض الشيء. وحتى عام 1918 كان رسل يتمسك بأن الوقائع كائنات دنيوية من نوع ما، وفي عام 1924 توصل إلى نتيجة بالاتفاق مع فتجنشتين تقول: "الرمز بالنسبة لواقعة ليس اسما.. والطريقة إلى إضفاء المعنى على واقعة هو تقريرها، والطريقة إلى إضفاء المعنى على الشيء البسيط هو تسميته" (19).

والقول إن القضية تناظر الوقائع لا يعني القول بوجود وقائع، وإنما يعني القول بوجود أشياء عندما نقول عنها إنها موجودة. واللغة هي مفتاح فهمنا للعالم، وأحيانا تكون القفل الذي يمنعنا من هذا الفهم. وتنشأ كثرة كثيرة من مشكلاتنا الفلسفية نتيجة تضليل الصور اللغوية لنا؛ فنظن خطأ أن الأشياء غير الواقعية واقعية لأن اللغة توحي بأنها موجودة، ونخفق أيضا في إدراك الملامح المهمة في العالم التي يتعذر تكييفها من الناحية اللغوية. ولكي نتفادى هذه الصعوبات لابد من أن نفهم اللغة التي نستعملها، ولابد من أن نصطنع طرقا لتحسينها إذا اقتضى الأمر ذلك. وهذا ما فعله رسل عندما طور بنية لغوية تتطابق مع العالم وتجيز لنا رسمه أو تصويره بطريقة دقيقة كأشد ما تكون الدقة. فالهدف العام للذرية المنطقية بوصفها طريقة للفلسفة هو تطوير جهاز لغوي أفضل يملك وحدات ذرية ومركبات من الوحدات التي ترتبط فيما بينها بطريقة لها نفس بنية العلاقات الداخلية للأشياء الواقعية والمركبات من الأشياء الواقعية في العالم (20).

وفي محاولة لتطوير هذه الآراء وضع فتجنشتين في كتاب رسالة منطقية فلسفية 1921 صورة من نظرية التناظر في الصدق، تعرف أيضا باسم نظرية الصورة في المعنى picture theory of meaning. وكان الهدف الذي تتوق إلى تحقيقه هو فهم العلاقة بين اللغة والعالم. والقضايا الصادقة وفقا لنظرية الصورة هي التي ترسم لنا صورة صحيحة عن العالم الذي تصوره. وتسير نظرية فتجنشتين في خطين متوازيين يمثل أحدهما تحليل بنية العالم، ويمثل الآخر تحليل بنية اللغة. ويبدأ بتحليل العالم (21):

1 . العالم هو كل هذا الواقع.

1.1 العالم هو مجموع الوقائع، وليس مجموع الأشياء.

1.2 العالم ينحل إلى وقائع.

.2 إن ما هو واقع، أي الواقعة، هو وجود حالات الواقع.

2.01 حالة الواقع (حالة الأشياء) هي مجموعة موضوعات (أشياء).

وواضح من هذه النصوص أن العالم لا يتألف من أشياء، وإنما من وجود مجموعة مترابطة من الأشياء. ولو قلنا إن العالم مؤلف من أشياء فقط، لجاز أن نفهم أن الأشياء توجد بلا رابط، ولكن الذي يؤكد عليه فتجنشتين هنا أن العالم ليس مؤلفا من مجرد أشياء، وإنما من أشياء تترابط بعضها مع بعض بترتيب معين. والقول إن العالم ينحل إلى وقائع لا يعني أن الوقائع كائنات من نوع غريب، وإنما يعني أن الوقائع مجموعات مترابطة من الأشياء.

ذهب فتجنشتين في تحليله للعالم إلى أنه مؤلف من مجموعة مترابطة من الوقائع، ورأى أن اللغة هي مجموعة من القضايا، وأن القضية رسم أو صورة للواقعة، وأقام بذلك نوعا من التماثل بين بنية اللغة وبنية العالم. فنراه يقول (22):

2.1 إننا نكوّن لأنفسنا صورا للوقائع.

2.12 الصورة نموذج للواقع.

2.21 الصورة قد تتفق مع الواقع وقد لا تتفق، وبهذا تكون الصورة إما صادقة أو كاذبة.

2.224 من المستحيل أن نعرف من الصورة وحدها ما إذا كانت صادقة أو كاذبة.

4.01 القضية صورة للواقع. القضية نموذج للواقع كما نتخيله.

4.05 الواقع يقارن بالقضايا.

4.06 يمكن أن تكون القضية صادقة أو كاذبة فقط بمقتضى كونها صورة للواقع.

وهكذا يحلل فتجنشتين العالم إلى وقائع مركبة تنحل بدورها إلى وقائع بسيطة، والوقائع البسيطة لا يمكن تحليلها إلى وقائع أبسط منها لأنها لا تنطوي على وقائع أخرى، وتسمى بالوقائع الذرية، وقوام الواقعة الذرية مجموعة من الأشياء. وفي اتجاه مماثل يحلل فتجنشتين اللغة إلى قضايا مركبة، والقضايا المركبة تنحل إلى قضايا بسيطة. ولكن كيف تصور القضية واقعة؟

الجواب عن هذا السؤال هو أن القضية في اللغة تصور واقعة في العالم استنادا إلى وجود تماثل في تركيب كل منهما. وقد يعترض الإنسان بأن القضية ليست صورة للواقعة لأن الصورة العادية تبدو

مثل ما تصوره، أما القضية فلا تبدو مثل الواقعة. والشيء الذي يجب الانتباه إليه هو أن التماثل التركيبي في القضية والواقعة ليس مسألة بنية جملة، والسبب في ذلك أن القضية الواحدة يجوز التعبير عنها بجمل مختلفة. وتستطيع الجملة الواحدة أن تعبر عن قضايا مختلفة، فالجملة "إنها تمطر" يمكن أن تعبر عن قضية صادقة في الصباح وقضية كاذبة في المساء. ولذلك يلفت فتجنشتين أنظارنا إلى أن الشيء الذي يحفل به هو البنية المنطقية logical structure لعلاقات المعنى. والقضية لا تكون صورة عادية، أي مكانية، للواقعة التي تمثلها، وإنما هي بالأحرى صورة منطقية logical picture.

ولكي تكون القضية صورة منطقية للواقعة، يجب أن تتوافر عدة شروط:

1- يجب أن تملك القضية نفس بنية الواقعة.

2- يجب أن ترتبط عناصر البنية المنطقية للقضية بنفس طريقة ارتباط عناصر الواقعة.

3- يجب أن يناظر كل عنصر من عناصر القضية عنصرا من عناصر الواقعة.

ولنأخذ مثلا يوضح هذه الشروط. تأمل القضية "أحمد ضرب محمدا" تجد أنها تتألف من أربعة عناصر هى: أحمد ومحمد وعلاقة الضرب وترتيب الكلمات في القضية. وعنصر "الترتيب" هذا مهم لأنه هو الذي يضفي المعنى على القضية. انظر إلى الصيغتين: "القطة على الحصير" و"القطة الحصير على" تجد أنهما يحتويان على نفس الكلمات، ومع ذلك فإن الذي جعل الأولى ذات معنى هو ترتيب الكلمات ونظمها بطريقة معينة، والافتقار إلى هذا الترتيب جعل الثانية خالية من المعنى. ويؤكد فتجنشتين على هذه الفكرة بقوله: "ليست القضية خليطا من الكلمات (كما أن القطعة الموسيقية ليست خليطا من النغمات)" (23). وتتألف الواقعة من أربعة عناصر أيضا هي شخص أحمد وشخص محمد وحادثة الضرب و"تركيب" هذه العناصر، بمعنى أن أحمد هو الذي يضرب محمدا وليس العكس. وكل عنصر من عناصر القضية يناظر عنصرا من عناصر الواقعة. والعلاقة بين بنية القضية وبنية الواقعة هي علاقة واحد بواحد. القضية الصادقة إذن هي القضية التي تستنسخ بنية الواقعة التي تصورها استنساخا حسنا. والقضية الكاذبة هي ترتيب غير موجود لأشياء موجودة.

5- اعتراضات على نظرية التناظر

تبين لنا مما أسلفناه أن نظرية التناظر تقوم على فكرة يسيرة تقول بوجود علاقة تناظر بين حامل الصدق والواقع. ولكن النظرية برغم وضوحها وبساطتها تعرضت لانتقادات كثيرة بحجة أنها غامضة وتدعي أشياء يتعذر تفسيرها بطريقة معقولة. ويجوز تقسيم الاعتراضات على هذه النظرية إلى ثلاثة أنواع:

1- الاعتراض على حوامل الصدق التي تقبلها النظرية مثل الاعتقادات والقضايا والجمل. وقد ناقشنا في الصفحات السابقة بعض الصعوبات التي تواجه حوامل الصدق.

2- الاعتراض على أجزاء الواقع التي تناظر حوامل الصدق مثل الوقائع أو حالات الواقع (أو سير الأحوال) على أساس أن هذه الأشياء لا تصلح كنظائر لحوامل الصدق.

3- الاعتراض على علاقة التناظر التي تفترضها النظرية لعدة أسباب منها أن هذه العلاقة ملغزة أو لم تفسرها النظرية تفسيرا واضحا، أو أن العلاقة لا وجود لها أصلا.

وسنركز فيما يلي على الاعتراضين الثاني والثالث:

* اعتراضات على الوقائع.

** الاعتراض الأول.

إذا عدنا إلى صيغة تعريف الصدق وفقا لنظرية التناظر وهي:

(س) تكون صادقة إذا كانت (س) تناظر واقعة ما.

(س) تكون كاذبة إذا كانت (س) لا تناظر أية واقعة.

وجدنا أن هذا التعريف ينطبق على العبارات الداخلة في مجال الإدراك الحسي العادي، ومجال العلم أيضا، ولكنه يخفق إخفاقا شديدا في مجالات أخرى مثل الأخلاق والمنطق والميتافيزيقا والجمال وغيرها. ويسلم صاحب هذا الاعتراض بالحقائق الأخلاقية moral truths، ولكنه يحتج على صاحب التناظر بأن الواقع لا يحتوي على وقائع أخلاقية moral facts.

ويجوز الرد على هذا الاعتراض بطريقتين:

1- الطريقة الأولى هي التمسك بالنزعة غير المعرفية non- cognitivism -كما هو الحال عند الوضعية المنطقية - القائلة إن عبارات الأخلاق والجمال والميتافيزيقا تمثل استعمالات غير معرفية للغة بمعنى أنها لا تخبر شيئا عن الواقع يمكن الحكم عليه بالصدق أو الكذب، ولا تزيد هذه العبارات على أن تكون من الأوامر أو الانفعالات التي تضطرب بها نفس المتكلم ولا يمكن التحقق من صدقها أو تقويمه. وهذا الرد ضعيف في رأينا لأنه يضيق مجال القضايا العلمية ويحصره في إطار القضايا التجريبية الفيزيائية. وهو تضيق ليس له ما يسوغه.

2- الطريقة الثانية هي النزعة الردية reductionism وتقول إن حقائق الأخلاق والجمال وغيرها يمكن ردها إلى مجال آخر لا يثير مشكلات. فحقائق الأخلاق تناظر الوقائع الاجتماعية والسلوكية للأفراد في المجتمع. وما أصدق رسولنا الكريم في قوله [الدين المعاملة]. وهنا نجد تجليا

عظيما وردا جميلا لما هو ميتافيزيقي وأخلاقي إلى الفعل. وفي مجال المنطق والرياضيات يجوز رد الحقائق المنطقية والرياضية إلى وقائع لغوية. فالحقائق المنطقية تناظر وقائع تتعلق بالمواضعات اللغوية على أساس أن الصدق في المنطق والرياضيات هو صدق مواضعة أو اصطلاح. وتستطيع أن تلمس النزعة الردية عند أنصار السلوكية السيكولوجية والفلسفية، وعند الوضعية المنطقية أيضا.

** الاعتراض الثاني

عندما تقرر نظرية التناظر أن حامل الصدق يكون صادقا عندما يناظر واقعة في العالم، فسوف تلتزم بأنواع غريبة من الوقائع التي تثير مشكلات من الناحية الانطولوجية مثل الوقائع العامة (كل السموم قاتلة) والوقائع السالبة (الأستاذ لم يحضر اليوم)، والوقائع الشرطية (إذا كانت الشمس طالعة، فالنهار موجود)، والوقائع الانفصالية (المولود إما أن يكون ذكرا أو أنثى)، ونحو ذلك.

وهذا الاعتراض أقلق رسل في دراسته "فلسفة الذرية المنطقية" التي نشرت ضمن كتاب المنطق والمعرفة. هل يحتوي العالم على وقائع سالبة negative facts؟ هل الجملة: "الملكة ليست صلعاء" صادقة بمقتضي تناظرها مع واقعة سالبة خاصة، أم أنها صادقة فقط بمقتضى افتقارها إلى التناظر مع أية واقعة موجبة (24)؟

** اعتراضات على علاقة التناظر

1- تقدم نظرية التناظر علاقة التناظر أو علاقة التصوير picturing relation على أنها تشابه تام بين الأصل والصورة أو الواقعة والقضية. ولكن القضايا أو الجمل أو أي حوامل أخرى للصدق لا تشبه أي شيء في العالم اللهم إلا حوامل صدق أخرى. وهذا النقد يذكرنا بنقد باركلي لفكرة "الفكرة" عندما يقول إن الفكرة لا تشبه شيئا آخر إلا الفكرة.

2- هناك قضايا تتحدث عن الماضي أو المستقبل، كيف نستطيع أن نفهم علاقة التناظر الخاصة بها في إطار العالم الفيزيائي؟

3- العبارات الميتافيزيقية أو الدينية الصادقة مثل "الروح خالدة" تمثل صعوبة أمام علاقة التناظر. ماذا عسى أن تكون علاقة التناظر لهذه العبارات؟ ألا يمكن القول هنا إن هذه العلاقة لا وجود لها؟

4- وتقف العبارات غير الواقعية counterfactual statements والعبارات المعيارية normative عقبة أخرى أمام علاقة التناظر.

تأمل العبارات التي تدور حول ما سيحدث في موقف غير واقعي. خذ العبارة "إذا أصبحت رئيسا لفلسطين، فسوف تكون مشهورا"، تجد أنها عبارة صادقة، ولكن من الصعب أن تحدد أي واقع تناظره العبارة. وهناك أيضا عبارات صادقة حول ما يجب أن يكون على خلاف ما هو كائن. وتسمى هذه العبارات معيارية. على سبيل المثال، "يجب عليك مساعدة الشخص الذي تكون حياته مهددة إذا كنت تستطيع ذلك، وإذا كانت مساعدتك له لا تهدد حياتك الخاصة" تبدو عبارة صادقة. ولكن من الصعب إدراك الواقع الذي تصوره أو تناظره هذه العبارة. إن كثيرا من العبارات الصادقة المركبة يبدو أنها لا تناظر مباشرة على الأقل أي جانب في العالم (25).

وهناك من يرى أننا نستطيع أن نتفادى المشكلات المتعلقة بفكرة التناظر إذا قدمنا صياغة لتعريف الصدق لا ترتكز على أي تصور محدد للتناظر. يمكن أن نعرف العبارة الصادقة ببساطة على أنها أية عبارة يكون ما تقرر أنه واقع هو الواقع حقا. وزعمنا غير الواقعي والمعياري يكون صادقا إذا كان ما يقرر أنه واقع هو الواقع. وهذه الصورة البسيطة لتعريف التناظر للصدق، والتي تتفادى أية فكرة محددة عن التناظر تشبه زعم أرسطو أن من الصدق، مثلا، القول عما يوجد (الواقع) إنه يوجد (الواقع) (26).

ولكن هذه المحاولة لفهم التناظر تعد هروبا من حل مشكلاته، ناهيك عن أنها تعود إلى أبسط صور التناظر التي تفتقر إلى تحديد لعلاقة التناظر وأجزاء العالم التي تناظرها العبارات أو الاعتقادات.

6- نظرية الاتساق : الفكرة الأساسية

إن الصعوبات التي واجهت نظرية التناظر، والتي انصب معظمها على علاقة التناظر ذاتها أو على الوقائع التي تناظر حوامل الصدق، دفعت بعض الفلاسفة إلى البحث عن تعريف مختلف للصدق لا يرتبط بشيء خارجي يقع بعيدا عن حامل الصدق. وكانت أهم المحاولات هي تعريف الصدق في حدود علاقة معينة بين القضايا وهذه العلاقة هي الاتساق coherence. وتقول نظرية الاتساق في صيغة موجزة: تكون القضية صادقة إذا كانت تتسق مع فئة محددة من القضايا وتكون كاذبة إذا لم تتسق معها. وجرت عادة الفلاسفة على النظر إلى نظريتي التناظر والاتساق على أنهما النظريتان التقليديتان الأساسيتان المتنافستان في الصدق. وإذا كانت نظرية التناظر قد ضربت بجذورها في الفلسفة القديمة كما وجدناها عند أفلاطون مثلا، فإن نظرية الاتساق تجد ما يبشر بها في كتابات كانط عندما انتقد فكرة مطابقة الفكر للأشياء. وكان الرأي عند كانط أن الحدس البشري أو العقل النظري لا يمكن أن يدرك الواقع النوميني noumenal reality، أي الشيء في ذاته Ding An Stich، ومن ثمّ يأتي الشك في وجود تناظر بين إدراك العقل للأشياء في ناحية، والأشياء ذاتها من ناحية أخرى.

ولكي نفهم هذه النقطة، يحسن بنا أن نقدم بين يديها شرحا يسيرا. يفرق كانط بين عالمين: عالم الظواهر appearances (or phenomena) وهو العالم الفيزيائي المحسوس وعالم الأشياء في ذاتها things-in-themselves (or noumena) وتمثله قضايا الميتافيزيقا مثل الله

والنفس والعالم، وفي مقدور العقل البشري النظري أن يدرك عالم الظواهر ويصدر عليه أحكاما يقينية، ولكنه يعجز عن إدراك عالم الأشياء في ذاتها. إن المعرفة عند كانط تنحل إلى جانبين: انطباعات حسية ومقولات ومبادئ عقلية، ولا يكفي أي جانب من الجانبين بمفرده لتكوين معرفة، وسر ذلك أن الانطباعات الحسية من غير مقولات عقلية عمياء، والمقولات والمبادئ العقلية من غير انطباعات حسية فارغة. ويمكن التفكير في عالم الأشياء في ذاتها ولكن يتعذر على العقل النظري معرفتها بالفعل، إذ لا يمكن معرفة القضايا الداخلة في عالم الشيء في ذاته عن طريق الانطباعات الحسية لأن هذا العالم يتجاوز عالم الحس،
ولا يمكن معرفتها عن طريق المبادئ العقلية لأن هذه المبادئ من غير انطباعات حسية فارغة.

ومادام عالم الشيء في ذاته صعب المنال للعقل البشرى، فلا مجال للقول بالتناظر بين إدراك العقل للأشياء والأشياء ذاتها. وارتبطت نظرية الاتساق في صورها المبكرة ارتباطا وثيقا بالفلسفة المثالية. ولكنها حظيت في صورتها المتأخرة بتأييد من أنصار الفلسفة التجريبية أيضا. وفي الفلسفة المثالية نجد أن البيت الذي ترعرعت فيه نظرية الاتساق هو الفكر العقلاني rationalist thought كما تجسد في فلسفة: ليبنتز وسبينوزا وهيجل وبرادلي وتوماس هل جرين وبراند بوزانكيت وجوزيا رويس وبراند بلانشارد. أما نظرية الاتساق في صورها المتأخرة فنجدها واضحة في الفلسفة التجريبية كما هو الحال عند بعض أنصار الوضعية المنطقية مثل اوتو نيورات وكارل همبل. ومن أواخر الفلاسفة الذين دافعوا عن الاتساق الفيلسوف الأمريكي المعاصر نيقولا ريشر في كتاب نظرية الاتساق في الصدق 1973.

وتختلف نظرية الاتساق في الصدق عن نظرية التناظر في مسألتين: تدور الأولى حول العلاقة بين القضايا وشروط صدقها truth conditions، وتتعلق الثانية بشروط الصدق. إذا نظرنا إلى المسألة الأولى، وجدنا أن نظرية التناظر تقوم على علاقة التناظر، على حين ترتكز نظرية الاتساق على علاقة الاتساق. وإذا تناولنا المسألة الثانية، وجدنا أن نظرية التناظر تقول إن شروط صدق القضايا تكمن في أشياء خارج القضايا وهي وقائع العالم الخارجي، على حين تؤكد نظرية الاتساق على أن شروط صدق القضايا تتوقف على القضايا الأخرى. ومن هنا نفهم محاولة أنصار الاتساق لتعريف الصدق بأنه يكمن في علاقة اتساق بين أعضاء فئة القضايا أو الاعتقادات.

والحق أن فكرة الاتساق لم تحظ بتعريف دقيق يكشف عن طبيعتها وينال قبول جميع الفلاسفة الذين ساقوا الحجج في تأييدها وتدعيمها. فترى الاتساق يفهم أحيانا على أنه التماسك بين فئة القضايا، ويفهم أحيانا أخرى على أنه اللزوم المنطقي الدقيق بين نسق من القضايا، ومن هنا تتخذ نظرية الاتساق صورا متنوعة تختلف فيما بينها تبعا لاختلاف زوايا النظر واختلاف العصر أيضا. فالتناول الميتافيزيقي للاتساق يختلف عن التناول الإبستمولوجي لـه. ونظرية الاتساق التي قدمها برادلي ليست هي النظرية التي طرحها نيورات. والشيء الذي لا ريب فيه أن الأفكار والنظريات مثل الكائنات الحية تبدأ مثلما تبدأ الأجنة ضئيلة دقيقة ثم تتطور كلما تناولتها العقول بالتحليل والتمحيص، وكلما أضافت إليها أبعادا جديدة واستخرجت منها نتائج لم تكن معروفة من قبل.

ولم يكن غريبا والحال هكذا أن يقال إن قصارى ما يمكن قوله في تعريف الاتساق إن فئة من القضايا أو الاعتقادات ينظر إليها على أنها متسقة إذا (27):

1- كان كل عضو في الفئة متسقا مع أية فئة فرعية من الأعضاء الآخرين.

2- لزم كل عضو في الفئة عن كل عضو من الأعضاء الآخرين على انفراد وفقا لبعض نظريات الاتساق.

7- معنيان للاتساق

الاتساق بوصفه تماسكا

الاتساق بوصفه لزوما منطقيا

كانت الصور المبكرة من نظرية الاتساق تنظر إلى الاتساق على أنه تماسك consistency. وكانت هذه الصور تقول إن القضية تتسق مع فئة معينة من القضايا إذا كانت متماسكة معها. ولكن هذا المعنى للاتساق واسع وفضفاض ويفضي إلى نتائج غير مقبولة. هب أن قضيتين لا تنتميان إلى فئة معينة، ويمكن أن تتماسك هاتان القضيتان مع فئة معينة من القضايا ومع ذلك لا تتماسك إحداهما مع الأخرى. إذا سلمنا بأن الاتساق هو مجرد تماسك بين أجزاء فئة من القضايا، جاز لنا القول إن هاتين القضيتين صادقتان نظرا لتماسكهما مع فئة معينة، وهذا غير صحيح.

ولم يكن غريبا إذن أن تأتي الصور المتأخرة من نظرية الاتساق وتقرر أن الفهم المعقول لعلاقة الاتساق يجب أن يستعين بفكرة اللزوم entailment في معناه الواسع أو اللزوم بمعناه المنطقي الدقيق strict logical implication. ونستطيع القول إن القضية تكون متسقة، بالمعنى العام للزوم، مع فئة من القضايا إذا كانت تلزم عن أعضاء هذه الفئة وترتبط بها بعلاقة اعتماد متبادل. أما الاتساق بمعنى اللزوم المنطقي الدقيق فمؤداه أن القضية تتسق مع نسق من القضايا الأخرى إذا كانت تلزم لزوما منطقيا عن هذا النسق أو تستلزم فئة فرعية من هذا النسق. وفي هذه الحالة لا توجد قضية جزئية داخل النسق يمكن أن تكون كاذبة بينما بقية القضايا صادقة، ولا يمكن لأية قضية أن تكون صادقة من دون صدق كل القضايا. وينظر أصحاب نظرية الاتساق إلى أنساق الرياضيات والمنطق بوصفها نماذج الاتساق المتسقة المنتجة للصدق.

8- اعتراضات على نظرية الاتساق

الاعتراض الأول الذي يواجه نظرية الاتساق هو مشكلة الدور. وينشأ الدور إذا عرفنا الصدق في حدود الاتساق، ثم عرفنا الاتساق في حدود اللزوم المنطقي الذي يتم تعريفه بصورة نموذجية عن طريق كلمة "صادق":

ق تستلزم ك، إذا استحال أن تكون ك كاذبة في الوقت الذي تكون فيه ق صادقة.

ويمكن تفادي الوقوع في التعريف الدائري للصدق، عن طريق تعريف اللزوم في حدود فئة من قواعد الاشتقاق مثل:

ق تستلزم ك إذا كان من الممكن اشتقاق ك من ق عن طريق قواعد الاستدلال.

ومن بين قواعد الاستدلال قاعدة إثبات المقدم modus ponens القائلة: "من القضية في الصيغة (إذا كانت ق، كانت ك)، والقضية ق، يجوز للمرء أن يشتق القضية ك" وتستطيع أن تضع ذلك في صيغة أخرى:

1- إذا كانت ق، كانت ك، و ق، إذن ك.

وهذه الصيغة لا تفترض فكرة الصدق مسبقا.

ولكن السؤال الآن: لماذا نقبل هذه الاستدلالات الصورية بوصفها محددة للصدق، ولا نقبل الاستدلالات الأخرى المعارضة لها مثل القاعدة القائلة:

2- يجوز للمرء أن يشتق من القضية ق القضية لا ق.

وإذا اعترض المرء بأن هذه القاعدة الأخيرة ليست قاعدة "صحيحة"، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما الذي تملكه القاعدة الأولى ولا تملكه القاعدة الثانية؟

الجواب عن هذا السؤال أن القاعدة الأولى تحافظ على الصدق والثانية لا تحافظ عليه. ولكن هذه الإجابة ليست متاحة لصاحب نظرية الاتساق الذي يريد أن يتفادى الدور في تحليله للصدق، لأنها تعيد الإشارة الضمنية إلى الصدق في تعريف اللزوم، ومن ثمّ في تحليل الصدق. ويبدو أن القائل بالاتساق يتعين عليه أن يعود إلى الزعم بأننا نملك فكرة بدائية غير قابلة للتحليل عن القاعدة الصحيحة للاستدلال، أو يتعين عليه أن يعرف "القاعدة الصحيحة للاستدلال" على أنها القاعدة المقبولة بشكل تقليدي وشائع في الثقافة الإنسانية، أو يجب عليه أن يعرف الصحة هنا في حدود قيم أخرى غير الصدق. فأما الاختيار الأول فلا يقنع على الأرجح أولئك الذين يقنعون بأننا لا نملك هذه الفكرة البدائية عن القاعدة الصحيحة للاستدلال. وأما الاختيار الثاني فيترك القائل بالاتساق بغير طريق لتفسير السبب في أن القواعد المقبولة تقليديا ناجحة. وأما الاختيار الثالث فربما يكون للتطبيق في نهاية الأمر، ولكنه يواجه صعوبات خطيرة أهمها أن القواعد التي يعتبرها المنطق الكلاسيكي صادقة لا تحافظ بصفة عامة على قيم أخرى غير الصدق. زد على ذلك أن نظرية الاتساق التي لا تفيد من مفهوم اللزوم سوف تكون دائرية، طالما أن كل نظريات الاتساق تعرف الصدق جزئيا في حدود التماسك، وهذا أيضا مفهوم يمكن تعريفه أيضا في حدود الصدق: تكون العبارتان (أو أكثر) متماسكتين إذا كانتا صادقتين في الوقت نفسه (28).

الاعتراض الثاني على نظرية الاتساق يتعلق بنسق العبارات التي يجب على العبارة الجديدة أن تتسق معه لكي تكون صادقة. والاحتمالات التي يمكن أن يكون عليها النسق في هذه الحالة ثلاثة هي :

1- نسق كامل من اعتقادات شخص ما.

2- نسق من الاعتقادات المشتركة في ثقافة معينة.

3- نسق من العبارات لا ترتبط بأية اعتقادات لدى الشخص.

خذ الاحتمال الأول، تجد أنك إذا قلت إن العبارات الجديدة تكون صادقة لو اتسقت مع اعتقادات شخص ما، فإن الصدق في هذه الحالة يكون نسبيا إلى الأفراد. وسر ذلك بسيط جدا وهو أن الأفراد يختلفون فيما بينهم في امتلاك أنساق الاعتقادات ومن ثمّ يختلفون في امتلاك العبارات التي تتسق مع أنساق اعتقاداتهم، وهذه العبارات المختلفة ستكون صادقة. ويمكن أن تتسق عبارة مع نسق من الاعتقادات لدى شخص، ومن ثمّ تكون صادقة بالنسبة إلى النسق، على حين تعجز العبارة نفسها عن الاتساق مع نسق من الاعتقادات لدى شخص آخر، ومن ثمّ تكون كاذبة بالنسبة إلى النسق. وأنت ترى من هذا كله أن النتيجة التي سوف ننتهي إليها هي وجهة نظر نسبية في الصدق، وأن نسبية الصدق سوف تعتبر برهان خلف أو الرد إلى المحال reductio ad absurdum (reduction to absurdity) لهذه الصورة من نظرية الاتساق في الصدق. وبرهان الخلف هو برهان غير مباشر indirect proof على إبطال قضية عن طريق بيان فساد النتيجة اللازمة عنها أو إثبات أن القضية تتضمن شيئا باطلا أو محالا. والنتيجة اللازمة عن هذه الصورة من الاتساق هي نسبية الصدق وهي نتيجة غير مقبولة.

وانظر إلى الاحتمال الثاني لنسق العبارات التي يجب على العبارة الجديدة أن تتسق معه لكي تكون صادقة، وهو نسق من الاعتقادات المشتركة في ثقافة معينة. تجد أن هذا ليس أفضل كثيرا من سابقه لأنه يجعل الصدق نسبيا للثقافات. بعض الثقافات يتكون نسق الاعتقادات فيها على أساس الوحي كما هو الحال في الثقافة الإسلامية. وبعض الثقافات الأخرى يتأسس نسق اعتقاداتها على خبرات إنسانية في ممارسة الحياة والتعامل مع وقائع الطبيعة وظروف المجتمع. ويمكن لهذا النسق الأخير من الاعتقادات أن يكون كاذبا، ولا عجب أن يوجه الناس النقد إلى ثقافتهم الخاصة ويثبتون بالأدلة أنها خاطئة. وطالما أن نسق الاعتقادات الشائع في ثقافة معينة يمكن أن يكون كاذبا، فإن جعل الصدق نسبيا إلى الثقافة لا سبيل إلى قبوله.

والاحتمال الثالث الذي يتخذه نسق العبارات الصانع للصدق هو أن يكون هذا النسق مستقلا عن اعتقادات أي شخص أو ثقافة. ومن الصعب تحديد ما عساه أن يكون هذا النسق. ولا يستطيع أنصار الاتساق اشتراط أن يكون النسق فئة ملائمة ما من العبارات "الصادقة"، وهم لا يستطيعون ذلك لأنهم يهدفون إلى تقديم تعريف للصدق (29).

الاعتراض الثالث على نظرية الاتساق يقول: ربما يوجد، من الناحية النظرية على الأقل، نسقان (أو أكثر) من العبارات كل منهما متسق مع ذاته، ومتماسك بصورة متساوية، ويرتبط ارتباطا داخليا عن طريق اللزوم المتبادل، ولكن لا يتسق الواحد مع الآخر وإنما يعارضه. فماذا نحن فاعلون إزاء هذين النسقين المتسقين في ذاتهما والمتعارضين فيما بينهما؟ إذا أخذنا نظرية الاتساق بعين الاعتبار، فلا نجد طريقة للفصل بين النسقين والحكم على نسق واحد بوصفه صادقا وعلى الآخر بوصفه كاذبا بسبب إخفاقه في الاتساق مع النسق الأول. وليس في مقدور صاحب نظرية الاتساق أن يقول إن النسق الصادق هو المطابق للواقع، لأن هذا يعني التماس العون من نظرية التناظر.

******

هوامش الفصل السابع

1- Alan R. White, Truth, New York: Doubleday, 1970, p. 3.

2- D.J. O’Connor, The Correspondence Theory of Truth, London: Hutchinson, University Library, 1975, p. 13

3- Ibid. p. 14.

4- George, Pitcher (ed.). Truth, Englewood Cliffs: Prentice-Hall, 1964, editor’s introduction, pp. 5-7.

5- Gottlob Frege, “The Thought: A Logical Inquiry,” translated by A.M. and Marcll Quinton, in P.F. Strawson (ed.), Philosophical Logic, Oxford: Oxford University Press, 1968, pp. 17-38.

6- B. Carr, “Truth,” in G.H.R. Parkinson (General editor), An Encyclopedia of Philosophy, Routledge, 1988, p. 90.

7- W.V. Quine, Ontological Relativity and Other Essays, New York and London: Columbia University Press, 1969, pp. 22-23.

8- يقول كواين موضحا هذه الفكرة: "عادة ما تكون الجملة الإخبارية صادقة أو كاذبة، ولكن جملتك الإخبارية النموذجية لا تكون صادقة أو كاذبة بصورة ثابتة، فهي صادقة في مناسبة وكاذبة

في أخرى، وذلك بسبب صيغ أفعالها وإشاراتها المتباينة لضمائرها أو ظروفها الإشارية أو الكلمات الإشارية الأخرى، ونستطيع عن طريق إدخال معلومات إضافية إلى الجملة - مثل التواريخ وأسماء الأشخاص والأماكن - أن نحصل على جمل ثابتة، أي جمل تكون صادقة أو كاذبة بصورة ثابتة".

- Ibid., p. 193.

9- الجرجاني، التعريفات، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، القاهرة، 1938، ص 116.

10- Rene Descartes, The Philosophical Writings of Descartes, vol.3, Cambridge: Cambridge University Press, 1991, pp. 138-140.

11- David M. Armstrong, A World of States of Affairs, Cambridge University Press, 1997.

12- Richard L. Kirkham, Theories of Truth: A Critical Introduction, Cambridge, Massachusetts: MIT Press, London, England, 1997, p. 119.

13- Ibid., p. 119.

14- J. L. Austin, Philosophical Papers, edited by J.O. Urmson and G. J. Warnock, Oxford: Clarendon Press, 1970, p. 125.

15- Aristotle, Metaphysics, 1011 b 26.

16- G.E. Moore, Some Main Problems of Philosophy, London: Allen & Unwin, 1953, p. 276.

17- B. Russell, Problems of Philosophy, Oxford: Oxford University Press, 1971, p. 129.

18- Ibid., p. 128.

19- B. Russell, Logic and Knowledge, London: Allen & Unwin 1971, p. 184.

20- Lawrence E. Johnson, Focusing on Truth, London and New York: Routledge, 1992, pp. 46-47.

21- لودفيج فتجنشتين، رسالة منطقية فلسفية، ترجمة د. عزمي إسلام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968، الإشارة إلى الفقرات دون الصفحات.ونظرنا أيضا في الترجمة الإنجليزية:

Ludwig Wittgenstein, Tractatus Logico - Philosophicus, translated by D.F. Pears and B.F. McGuinness, London: Routledge and Kegan Paul, 1961.

22- Ibid., sec. 2.1 - 4. 06.

23- Ibid., sec. 3. 141.

24- Ralph C.S. Walker, “Theories of Truth,” in Bob Hale and Crispin Wright (eds.), A Companion to the Philosophy of Language, Blackwell Publishers, 1999, p. 310.

25- Paul K. Moser, Dwayne H. Mulder, and J.D. Trout, The Theory of Knowledge: A Thematic Introduction, New York, Oxford: Oxford University Press, 1998, p. 66.

26- Ibid., pp. 66-67.

27- Richard L. Kirkham, Theories of Truth: A Critical Introduction, p. 104; and see also Frederick F. Schmitt (ed.), Theories of Truth, Oxford and Malden MA: Blackwell Publishers, 2004, pp. 2-5.

28- Richard Kirkham, Theories of Truth, pp. 107-108.

29- Paul K. Moser, Dwayne H. Mulder and J. D. Trout, The Theory of Knowledge: A Thematic Introduction, p. 71.

******

المصادر والمراجع

الكتب والبحوث

مراجع أجنبية

1- Ayer, A. J., (1982). Philosophy in the Twentieth Century, London: Weidenfeld and Nicolson.

2- Ambrose- Grillet, (1978). Glossary of Transformational Grammar. Rowley, Massachusetts: Newbury House Publishers.

3- Avarmides, Anita (1989). Meaning and Mind: An Examination of a Gricean Account of Language, Cambridge, Massachusetts: the MIT Press.

4- Avarmides, Anita (1999). “Intention and Convention”, in Bob Hale and Crispin Wright (eds.), A Companion to the Philosophy of Language, Blackwell Publishers, pp. 60-86.

5- Austin, J. L. (1970). How To Do Things With Words, edited by J.O. Urmson, New York: Oxford University Press.

6- Bach, Kent (1994). “Conversation of Implicature”, Mind and Language, 9, pp.124 – 161.

7- Bach, Kent (1999). “The Myth of Conventional Implicature”, Linguistics and Philosophy, 22, pp. 327 – 366.

8- Bach, Kent (1999). “Grice, H.Paul”, The MIT Encyclopedia of the Cognitive Sciences, edited by Robert A. Wilson, and Frank C. Keil, pp.359-360.

9- Baker, Judith (1998). “Grice, Herbert Paul,” in Craig, Edward (General editor), Routledge Encyclopedia of Philosophy, London and New York : Routledge, Vol.4, First published, pp.172-177.

10- Bar-Hillel, Yehoshua (1971). “Out of the Pragmatic Wast-basket”, Linguistic Inquiry, 2, pp.401-407.

11- Bennett, Jonathan (1971). “Out of the Pragmatic Wast-basket”, Linguistic Inquiry, 2, pp .401 – 407.

12- Bennett, Jonathan (1995). “How do Gestures Succeed?” in Ernest Lepore and Robert van Gulick (eds.), John Searle and His Critics, Oxford, UK & Cambridge, USA: Blackwell, pp.3-15.

13- Berlin, Isaiah (1998). The Proper Study of Mankind, An Anthology of Essays, edited by Henry Hardy and Roger Hausheer, New York: Farrar, Straus and Giroux.

14- Blackburn, Simon (1998). Communication and Intention”, in Carig Edward (General editor), Routledge Encyclopedia of Philosophy, Vol.2, London and New York: Routledge, pp.455- 459.

15- Bloomfield, L., (1953). Language, Lodon: George Allen & Unwin LTD.

16- Bloomfield, I., (1985). “Language Or Ideas”? in J. J. Katz (ed.) The Philosophy of Linguistics, Oxford University Press.

17- Bornstein, Diane, (1977). An Introduction to Transformational Grammar, Winthrop Publishers, Inc.,.

18- Carnap, Rudolph (1942). Introduction to Semantics, Cambridge,Mass.: Harvard University Press.

19- Chomsky, Noam, (1957). Syntactic Structures, The Hague, Mouton.

20- Chomsky, Noam, (1965). Aspects of the Theory of Syntax, Cambridge: MIT Press.

Chomsky, Noam, (1964). "A Review of B. F. Skinner's Verbal -21 Behavior", in J. A. Fodor and J. J. Katz (eds.) The Structure of Language: Readings in The Philosophy of Language, Englewood .Cliffs, N. J. : Prentice – Hall, pp. 547-578

Chomsky, Noam,(1964). "Current Issues in Linguistic Theory", in -22 Fodor, J. A., and Katz, J. J., (eds.) The Sturcutre of Language, .Englewood Cliffs, N. J.: Prentice Hall

Chomsky, Noam, (1966). Cartesian Linguistics, New York: -23 .Harper & Row

Chomsky, Noam, (1967). "Recent Contributions to the Theory of -24 .Innate Ideas", Synthese, 17, pp. 1-15

Chomsky, Noam, and Hall, M., (1968). The Sound Pattern of -25 .English, New York: Harper and Row

Chomsky, Noam, (1969). "Linguistics and hilosophy" in Hook, -26 Sidney (ed.), Language and Philosophy, New York: New York .University Press, pp. 80-95

Chomsky, Noam, (1972) Language and Mind, enlarged edition, -27 ..New York: Harcourt Brace Jovanovich, Inc

Chomsky, Noam, (1980). Rules and Representation, New York: -28 .Columbia University Press

Chomsky, Noam, (1982). "A Note on the Creative Aspect of -29 .Language", The Philosophcal Review, No. 3, July,, pp. 423-434

Chomsky, Noam, (1998). "Chomsky, Noam", in Guttenplan, -30 Samuel, (ed.), A Companion to the Philosophy of Mind, Blackwell .ublishers, 1998, pp. 153-167

Chomsky, Noam, (2016). What Kind of Creatures Are?, New -31 .York; Columbia University Press

Cohen, L .J. (1917). “Some Remarks about Grice sView about -32 the Logical Particles of Natural Language”, in Y. Bar-Hillel (eds.), Pragmatics of Natural Languages, Dordrecht: D. Reidel, 1971, pp. .50-68

Davidson, Donald (1984). Inquiries into Truth and Interpretation, -33 .Oxford: Clarendon Press

Davidson, Donald (2001). Subjective, Intersubjective, Objective, -34 .Oxford: Clarendon Press

Davis, Martin (1996). “Philosophy of Language”, in Nicholas -35 Bunnin and E.P.Tsui-James (eds.), The Blackwell Companion to .Philosophy, Oxford: Blackwell, first published, pp. 90-139

Davis, Wayne A. (1998). Implicature: Intention, Convention and -36 Principle in the Failure of Gricean Theory, Cambridge University .Press

Davis, Steven, (1976). Philosophy and Language, Indianapolis: -37 .the Bobbs- Merrill

Dummett, M., (1973). Frege: Philosophy of language, New York, -38 .Evanston, San Francisco, London: Harper &Row

Dummett, Michael (1993). Origins of Analytical Philosophy, -39 .Duckworth

Dummett, Michael (1994). “Dummett’s Replies”, in B. -40 McGuinness and G. Olivieri (eds.), The Philosophy of Michael .Dummett, pp. 299- 369

Evans, Gareth and John McDowell (eds.) (1977). Truth and -41 .Meaning: Essays in Semantics, Oxford: Clarendon Press

Fogelin, Robert J (1991)."Review of Studies in the Way of -42 .Words, “The Journal of Philosophy, pp .213 – 219

Frege, Gottlob (1980). Translations From the Philosophical -43 Writings of Gottlob Frege, edited by. P. Geach and M.Black, 3 rd ed., .Oxford: Basil Blackwell

Gamut, I.T.F. (1991). Logic, Language, and Meaning, Vol.1: -44 Introduction to Logic, Chicago and London: The University of .Chicago Press

Grice, H. P. and P. F. Strawson (1956). “In Defence of a Dogma”, -45 .Philosophical Review, 65, pp. 141- 158

Grice, H.P. (1969). “Vacuous Names,” in D. Davidson and J. -46 Hintikka (eds.), Words and Objections, Dordecht: Reidel, pp. 118 – .145

Grice, Paul (1970). “Lectures on Language and Realituy,” -47 delivered at University of Illinois, Urbana, Illinois, unpulished archives University of California, Berkeley CA. (Lecture IV, “Presupposition and Conversational Implicature” published in .Studies in The Way of Words

Grice, Paul (1971). “Intention and Uncertainluy”, Proceedings of -48 .the British Academy 57, pp. 263 – 279

Grice, Paul (1986). “Reply to Richards” in R.E. Grandy and -49 R.Warner (eds.), Philosophical Grounds of Rationality: Intention .Categories, Ends, Oxford: Clarendon Press, pp. 45 – 108

Grice, Paul (1989). Studies in the Way of Words, Cambridge, -50 .Massachusetts: Harvard Hniversity Press, fourth printing 1995

Grice, Paul (1991). The Conception of Value, Oxford: Clarendon -51 .Press

Grice, Paul (2001). Aspects of Reason. edited with an -52 .introduction by Richard Warner, Oxford Unibersety Press

Hale, Bob and Crispin Wright (eds.) (1999). A Companion to the -53
.Philosophy of Language, Blackwell Publishers

Hahn, Lewis Edwin (ed.) (1998). The Philosophy of Strawson -54
(The Library of Living Philosophers, Vol. XXVI), Chicago and
.Lasalle, Illinois : Open Court, first printing

Hanfling, O. (1989). “Theories of Meaning: From Reference to -55
Use”, in G.H.R. Parkinson (General editor), An Encyclopedia of
.Philosophy, Routledge, pp. 24- 49

Hookway, C. (1988). Quine: Language, Experience, and Reality, -56
.Stanford, California: Stanford University Press

Hugly, P. and C. Sayward (1979). “A Problem about -57
.Conversational Implicature”, Linguistics and Philosophy, 3, pp.19-25

Husserl, Edmund (1970). Logical Investigations, Vol.1, translated -58
.by J.N. Findlay, London: Routledge & Kegan Paul

Katz, J. J., (1975). “Logic and Language: An Examination of -59
Recent Criticisms of Intensionalism”, in Gunderson, K., (ed.).
Minnesota Studies in Philosophy of Science, Vol. VII, Language,
.Mind, and Knowledge, Minneapolis: University of Minnesota Press

Katz, J. J., (1971). The Underlying Reality of Language and its -60
.Philosophical Import, New York, Evanston: Harper & Row

Lee,H.N.(1988). "Discourse and Event: the Logician and Reality," -61
in L.E.Hahn and P.A.Schilpp (eds.), The Philosophy of Quine, La
.Salle,Illionis, Open Court, Third Printing, pp. 295-314

Leech, Geoffrey N. and Jennifer Thomas (1988). Pragmatics: -62
.The State of the Art, Lancaster University

Lewis, David (1969). Convention: A Philosophical Study, -63
.Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press

Loar, Brian (1977). “Two Theories of Meaning”, in Gareth Evans -64
and John McDowell (eds.), Truth and Meaning: Essays in Semantics,
.pp. 138–161

Lycan, William G. (1995). “Philosophy of Language “, in Robert -65
Audi, (General editor) The Cambridge Dictionary of Philosophy,
.Cambridge University Press, pp. 586 – 589

Lycan, William G (2000). Philosophy of Language: A -66
.Contemporary Introduction, London and New York: Routledge

Lyons, J., (1979). Semantics, Vol. 1, London. New York; -67
.Cambridge University Press

Mackay, Alfred F. (1972). “Professor Grice’s Theory of Meaning”, -68
.Mind, Vol. LXXXI, No. 321 January, pp. 57-66

McGuinness, B. and G. Golivieri (eds.) (1994). The Philosophy of -69
.Michael Dummett, Dordrecht: Kluwer Academic Publishers

Mey, Jacob L. (1998). Pragmatics: An Introduction, Oxford, UK & -70
.Cambridge USA: Blackwell

Miller, Alexander (1998). Philosophy of Language, Montreal & -71
.Kingston, London: McGill-Queen’s University Press

Morris, Charles (1971). “Foundations of the Theory of Signs”, in -72
Writings on the General Theory of Signs, The Hague: Mouton, pp.
.141 – 166

Neale, Stephen (1992). “Paul Grice and the Philosophy of -73
.Language”, Linguistics and Philosophy, 15, pp. 509 – 559

Neurath, O. (1959). "Protocal Sentences," Translated by -74
.G.Schick, in Logical Positivism, edited by A.J.Ayer, pp.199-208

Newmeyer, Frederick J. (1992). “Generative Grammar”, in Bright, -75 William, editor in Chief, International Encyclopedia of Linguistics, Vol. .1, New York, Oxford: Oxford University Press

Peirce, C.S. (1931-1958). Collected Papers of Charles Sanders -76 Peirce, Vol. 4, edited by Charles Hartshorne and Paul Weiss, .Cambridge: Harvard University Press

Peter, Simons (1996). “Meaning and Language”, in Barry Smith, -77 and David W. Smith (eds.), The Cambridge Companion to Husserl, .Cambridge Universty Press, pp. 106 - 137

Platts, Mark de Bretton (1979). Ways of Meaning: An -78 Introduction to a Philosophy of Language, London, Boston and .Henley: Routledge & Kegan Paul

Quine, W.V., (1964). Word and Object, second printing, -79 .Cambridge, Mass.: MIT Press

Quine, W.V., (1974). The Roots of Reference, La Salle, Illinois: -80 .Open Court

Quine, W.V., (1969). Ontological Relativity and Other Essays, -81 .New York and London: Columbia Uinversity Press

Quine, W.V., (1970). "Philosophical Progress in Language -82 .Theory", Metaphilosophy,1,, pp. 2-19

Quine, W.V., (1972). "Methodological Reflections on Current -83 Linguistic Theory," in D.Davidson and G.Harman (eds.), Semantics .of Natural Language, pp. 442-454

Quine, W.V., (1975). "The Nature of Natural Knowledge," in -84 .S.Guttenplan (ed.), Mind and Language, pp. 67-81

Quine, W.V. (1963). From A Logical Point of View, second -85 .edition, New York and Evanston: Harper Torch Books

Ryle, Gilbert, (1970). The Concept of Mind, London: Penguin -86
.Books

Recanati, Francois (1998). “Pragmatics,” in Edward Craig, -87
(General editor), Routledge Encyclopedia of Philosophy, Vol. 7,
.London and New York: Routledge, pp. 620 – 633

Searle, John R. (1965)."What is a speech- act,” in Max Black, -88
(ed.), Philosophy in America, Ithaca. NY: Cornell Univversity &
.London: George Allen and Unwin, pp.221 – 239

Searle, John R. (1970). Speech Acts, Cambridge University -89
.Press

Searle, John R. (1971). “Introduction” to The Philosophy of -90
.Language, London: Oxford University Press, pp. 1-12

Searle, John R. (1979). Expression and Meaning: Studies in the -91
.Theory of Speech Acts, Cambridge: Cambridge University Press

Searle, John R. (1986).” Meaning, Communication, and -92
Representation,” in R Grandy and R. Warner (eds.), Philosophical
.Grounds of Rationality: Intentions, Categories, Ends, pp.209 – 226

Searle, John R. (1996). “Contemporary Philosophy in the United -93
States,” in Bunnin, Nicholas and E.P.Tsui-James (eds.), The
.Blackwell Companion to Philosophy, Oxford, Blackwell, pp.1-24

Searle, John R. (1999). Mind, Language and Society: Philosophy -94
.in the Real World, New York: Basic Books

Searle, John R. (2002). Consciousness and Language, -95
.Cambridge University Press

Searle, John R. (2007). "What is Language: Some Preliminary -96
Remarks," in Saves L. Tsohatzidis (ed.) John Searle’s Philosophy of

language: Force, Meaning, and Mind, New York: Cambridge .University Press, pp.15-45

.Schiffer, Stephen (1972). Meaning, Oxford: Clarendon Press -97

Schiffer, Stephen (1982). “Intention – Based Semantics”, Notre -98 .Dame Journal of Formal Logic, Vol. 23, pp. 119 – 156

Schiffer, Stephen (1989). Remnants of Meaning, Cambridge, -99 .Massachusetts: MIT press

Smith, N. (ed.) (1982). Mutual of Knowledge, New York: -100 .Academic Press

Sperber, Dan and Deirdre Wilson (2002). “Pragmatics, -101 Modularity and Mind – reading”, Mind & Language, Vol.17, Nos.1 .and 2, February/April, pp.3 – 23

Stevenson, C.L. (1944). Ethics and Language, New Haven: -102 .Yale University Press

Strawson, P.F. (1971). Logico–Linguistic Papers, London: -103 .Methuen& Co Ltd

Strawson, P.F. (1998). “Intellectual Autobiography”, in Hahn, -104 .Lewis Edwin (ed.), The Philosophy of Strawson, pp. 3 – 21

Strawson, P.F. (2000). Entity and Identity and Other Essays, -105 .Oxford: Clarendon Press

Suppes. P. (1968). “The Primacy of Utterer’s Meaning”, in -106 R.Grandy and R.Warner (eds.), Philosophical Grounds of Rationality: .Intentions, Categories, Ends, Oxford: Clarendon Press, pp.109 –129

Taylor, Kenneth (1998). Truth and Meaning: An Introduction to -107 .the Philosophy of Language, Blackwell Publishers

108- Travis, Charles (1985). “On What is Strictly Speaking True”, Candian Journal of Philosophy, 15, pp. 187 – 229.

109- Warner, Richard (2001). “Introduction: Grice on Reasons and Rationality”, in Paul Grice, Aspects of Reason, Oxford University Press, pp. I -XXXIII.

110- Wittgenstein, L., (1963). Philosophical Investigations, translated by G. E. M. Anscombe, Oxford: Basil Blackwell.

مراجع عربية

1- أبو الفتح عثمان (ابن جني)، الخصائص، الجزء الأول، تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الثالثة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986.

2- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973.

3- صلاح إسماعيل، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، الطبعة الأولى، بيروت : دار التنوير للطباعة والنشر، 1993 .

4- صلاح إسماعيل، فلسفة اللغة والمنطق: دراسة في فلسفة كواين، القاهرة:
دار المعارف،1995.

5- صلاح إسماعيل، نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس، القاهرة : دار قباء الحديثة، 2007 (سبق نشره في حوليات كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت بعنوان: النظرية القصدية في المعنى عند جرايس، الرسالة230، الحولية 25، 2005).

6- صلاح إسماعيل، "ثلاثية سيرل:العقل واللغة والمجتمع"، مقدمة ترجمة سيرل: العقل واللغة والمجتمع، ص11-40.

7- صلاح إسماعيل، "ڤتجنشتين: فيلسوف اللغة والعقل"، مقدمة ترجمة هانس سلوجا، ڤتجنشتين. ص7- 38 .

8- صلاح إسماعيل، البراجماتية الجديدة : فلسفة ريتشارد رورتي، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة،2013.

9- عادل فاخوري، "الاقتضاء في التداول اللساني"، عالم الفكر، الكويت، 1989، ص141 – 166 .

10- عزمي إسلام، مفهوم المعنى: دراسة تحليلية، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت، الحولية السادسة، الرسالة الحادية والثلاثون،1985.

11- محمد مهران، فلسفة برتراندرسل، الطبعة الثالثة، القاهرة : دار المعارف، 1986.

كتب مترجمة إلى العربية

1- أفلاطون، محاورة كراتيليوس، ترجمة وتقديم د. عزمي طه السيد، الطبعة الأولى، عمان، الأردن : وزارة الثقافة، 1995.

2- ديكارت، رينيه، مقال عن المنهج، ترجمة محمود محمد الخضيرى، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1985.

3- تشومسكي، نعوم، المعرفة اللغوية، طبيعتها وأصولها واستخدامها، ترجمة
د. محمد فتيح، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1993.

4- تشومسكي، نعوم، اللغة ومشكلات المعرفة، ترجمة د. حمزة بن قبلان المزيني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1990.

5- جرايلنج، ڤتجنشتين: مقدمة موجزة جدا، ترجمة د.صلاح إسماعيل، تحت الطبع، القاهرة: دار الشروق.

6- جرين، جودث، علم اللغة النفسي: تشومسكي وعلم اللغة، ترجمة وتعليق
د. مصطفى التوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993.

7- كون، توماس، بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، العدد 168، الكويت، 1992.

8- ليونز، جون، نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة وتعليق د. حلمي خليل، الطبعة الأولى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1985.

9- سامسون، جفري، مدارس اللسانيات: التسابق والتطور، ترجمة د. محمد زياد كبه، جامعة الملك سعود، الرياض، 1997.

10- سلوجا، هانس، ڤتجنشتين، ترجمة وتقديم د. صلاح إسماعيل، القاهرة : المركز القومي للترجمة،2014.

11- سيرل، جون، "تشومسكي والثورة اللغوية" الفكر العربي، العددان 8، 9 يناير، مارس 1979، ص 123-143.

12- سيرل، جون، العقل واللغة والمجتمع: الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة وتقديم د. صلاح إسماعيل، القاهرة: المركز القومي للترجمة،2011.

معاجم وموسوعات عربية

1- مجمع اللغة العربية (بالقاهرة)، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة 1983.

2- محمد عزيز الحبابي، المعين في مصطلحات الفلسفة والعلوم الإنسانية، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1977.

3- د. مراد وهبه، المعجم الفلسفي، الطبعة الثالثة، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1979.

4- المنظمة العربية للترجمة والثقافة والعلوم، المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، تونس، 1989.

5- نخبة من اللغويين العرب، معجم مصطلحات علم اللغة الحديث، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، بيروت، 1983.

6- د. محمد علي الخولي، معجم علم اللغة النظري، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، بيروت، 1982.

القواميس والموسوعات الفلسفية

1- Audi, Robert (General editor) (1999). The Cambridge Dictionary of Philosophy, 2ed, Cambridge University Press.

2- Blackburn, Simon, (1996). Oxford Dictionary of Philosophy, Oxford and New York: Oxford University Press.

3- Borchert, Donald M (editor in Chief) (1996). The Encyclopedia of Philosophy, Supplement, New York: Macmillan Reference ASU.

4- Bunge, Mario Augsto (2003). Philosophical Dictionary, Promethus Books.

Craig, Edward (General editor) (1998). Routledge Encyclopedia of -5
.Philosophy, London and New York: Routledge. 10- Volumes

Flew, Antony (ed.) (1999). A Dictionary of Philosophy, St.Martin's -6
.Press

Honderich, Ted (ed.) (1995). The Oxford Companion to -7
.Philosophy, Oxford and New York: Oxford University Press

Lamarque, Peter V. and R.E. Asher (eds.) (1997). Concise -8
.Encyclopedia of Philosophy of Language, Pergamon

Malmkjar, K. and Anderson, J. M.,(eds.) (1997). The Linguistics -9
.Encyclopedia, London and New York: Routledge

Martin, Robert (1998). The Philosopher's Dictionary, Second-10
.edition, Broadview Press

Mautner, Thomas (1995). A Dictionary of Philosophy, Oxford:-11
.Blackwell Publisher

Mautner, Thomas (ed.) (1997). Penguin Dictionary of philosophy,-12
.London, UK: Penguin Book Ltd

Runes Dagobert D (ed.) (2002). A Dictionary of Philosophy,-13
.Kensington Publishing Corporation

Tanesini, Alessandra (2007). Philosophy of Language A-Z,-14
.Edinburgh: Edinburgh University Press

Trask, R. L.(1999) A Dictionary of Grammatical Terms in-15
.linguistics, London and New York: Routledge

Urmson, J.O.and Jonthan Ree (eds.) (1993). The Concise-16
Encyclopedia of Western Philosophy and Philosophers, New edition,
.London and New York: Routledge

17- Wilson, Robert A and Frank C.Keil (eds.) (1999). The MIT Encyclopedia of The Cognitive Sciences, Cambridge, Massachusetts & London, England: MIT Press.

فلسفة اللغة على الإنترنت

1- Stanford Encyclopedia of Philosophy: http://plato.stanford.edu

موسوعة ستانفورد للفلسفة هي أفضل موسوعة مجانية ودقيقة على الإنترنت. وفي حالة صعوبة فهم مقالاتها، يمكن الرجوع إلى مقالات مناظرة في الموسوعة التالية:

2- http://www.iep.utm.edu/

موسوعة الإنترنت للفلسفة. موسوعة مجانية وميسرة ومفيدة للطلاب وشباب الباحثين.

3- philpapers.org/

يعتبر هذا الموقع من أفضل المواقع الفلسفية الحالية على الإنترنت، ويحتوي على كتب وبحوث حديثة ومجانية أحيانا.

المؤلف في سطور

أ. د. صلاح إسماعيل

أستاذ الفلسفة المعاصرة، جامعة القاهرة.

قدم إلى الفلسفة العربية المعاصرة فرعين جديدين هما فلسفة اللغة وفلسفة العقل.

الاهتمامات البحثية: فلسفة اللغة، والإبستمولوجيا، والمنطق، وفلسفة العلم، وفلسفة العقل.

salah-philosophy@hotmail.com

الإنتاج العلمي

أولا : الكتب

1- التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، 1993.

2- فلسفة اللغة والمنطق: دراسة في فلسفة كواين، 1995.

3- قضايا إشكالية في الفكر الإسلامي المعاصر (بالاشتراك)، 1997.

4- بناء المفاهيم : دراسة معرفية ونماذج تطبيقية (بالاشتراك) في مجلدين، 1997.

5- الإبستمولوجيا الطبيعية، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، 2001 - 2002.

6- نظرية المعرفة المعاصرة ، 2005 .

7- النظرية القصدية في المعنى عند جرايس، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية 25، الرسالة 230 ،2005 (أُعيد نشره بعنوان: نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس، 2005).

8- نظرية جون سيرل في القصدية : دراسة في فلسفة العقل، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية 27، الرسالة 262، 2007 .

9- فلسفة العقل : دراسة في فلسفة جون سيرل، 2007 .

10- البراجماتية الجديدة: فلسفة ريتشارد رورتي، 2013. الطبعة الثانية، 2017.

ثانيا : من البحوث

1- مفهوم الصدق عند ديفيدسون، العدد السادس والخمسون، السنة الرابعة عشرة، صيف 1996، ص 206- 257.

2- فلسفة العقل عند ڤتجنشتين، المجلد 56، العدد 4 ، أكتوبر 1996، ص 39- 99 .

3- نظريات التسويغ المعرفي، العدد 69، السنة الثانية عشرة ـ شتاء 2000 ، ص 110- 151 .

4- جون سيرل ومشكلة الوعي، مجلد 60 عدد 4، أكتوبر 2000، ص 285-330 .

5- ثلاثية سيرل: العقل واللغة والمجتمع، مقدمة ترجمة جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع، ص11-40 .

6- ڤتجنشتين: فيلسوف اللغة والعقل، مقدمة ترجمة هانس سلوجا، ڤتجنشتين، ص7- 38.

7- ماريو بونجي والمادية النسقية، مقدمة ترجمة ماريو بونجي، المادة والعقل: بحث فلسفي، (تحت الطبع).

ثالثًا : كتب مترجمة

1- جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع: الفلسفة في العالم الواقعي، 2011.

2- هانس سلوجا، ڤتجنشتين، 2014.

3- جراهام بريست، المنطق: مقدمة موجزة جدا، (تحت الطبع).

4- أنتوني جرايلينج، ڤتجنشتين: مقدمة موجزة جدا، (تحت الطبع).

5- شارك في ترجمة قاموس بلاكويل للفلسفة الغربية، تأليف Nicholas Bunnin و Jiyuan Yu،.

6- ماريو بونجي، المادة والعقل: بحث فلسفي، (تحت الطبع).

7- بيتر هاكر، التحول اللغوي في الفلسفة التحليلية.

******